أحمد حمروش

قصة ثورة ٢٣ يوليو

١



إهـــــــداء2005

أ/إبراهيم منصور غنيم

القاهرة

أحمد حمروش

قصة ثورة ٢٣ يوليو

١

مصر والعسكريون

دار الموقف العربي

الاهـــــداء

الى ولـــدى عـــلاء وهـــانى
وجيـــــل مصر الجـــــديد

مقدمة

كانت وفاة جمال عبد الناصر المفاجئة صدمة هزت مشاعر الامة العربية ، فقد رحل الرجل الذى عاش زعيما تلهب كلماته ومواقفه حماس الملايين ، وانقضت بموته مرحلة هامة من مراحل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

غاب القائد الذى يملك كل الاسرار والمعلومات ... قبل ان تكتب قصة الثورة التى دبرها وقادها .

وشعرت بمسئولية كبيرة ، تدفعنى الى ضرورة البحث والدراسة لمحاولة تقديم ثورة يوليو ، التى شاركت فيها بقدر متواضع مع غيرى من الزملاء العسكريين ضباط الجيش المصرى .

لم تكن البداية سهلة ... فان شيئا رسميا لم يسجل عن تاريخ الحركة ... وكل ما نشر لا يعدو احاديث صحفية ... والمعلومات عندى شخصية ... وبعض الذين اسهموا فى الحركة تقدم بهم العمر ... والذكريات كادت تضيع .

المسئولية جسيمة ... واكتشاف الحقيقة كاملة ضرورة لا شك فيها ... ولم تأخذنى الحيرة طويلا .

بدأت بعقد اجتماعات واحاديث شخصية مع الذين قاموا بالحركة من العسكريين ... اعضاء مجلس قيادة الثورة ، والضباط الاحرار ، والذين وصلوا الى مركز المسئولية .

ولم تقتصر الاجتماعات والاحاديث على العسكريين فقط ... فقد قابلت بعض السياسيين القدامى الذين أضيروا من الثورة ، وبعض الذين شاركوا فى السلطة .

عدد الذين قابلتهم تجاوز المائة ... وفى نهاية الكتاب سجل بأسمائهم .

الدور الرئيسى للعسكريين ... ولكنه دور لا يبدأ يوم ٢٣ يوليو ... وانما يمتد قبل ذلك شهورا وسنين .

ليس هناك تاريخ محدد يمكن القول بانه نقطة البداية ... فان نضال العسكريين المصريين مترابط الحلقات ... يعود الى بداية القرن التاسع عشر عندما جند الفلاح المصرى لاول مرة بعد تاريخ طويل ، ليقوده ضباط من الاتراك والشراكسة .

الباب الاول ... يقدم فى ايجاز دور العسكريين المصريين ، ونضـالهم ضد سيطرة الاجانب . وثورة احمد عرابى ، وموقف الجيش المصرى فى عهد الاحتلال البريطانى ...

وجـدت ذلك ضرورة حيوية حتى لا تكون ثورة يوليو متطـوعة الصلة بالماضى . فتيار النضال متـدفق لا ينقطع ، والعسـكريون فى مصر لهم تاريخ قبـل ان يصلوا الى قمـه السلطة ، ويحكموا مصر بثياب عسكرية او مدنيـة .

(مصر ... والعسكريون) اسـم هذا الكتاب الذى يصدر فى اربعة اجزاء تنتهى بوفاة جمال عبد الناصر القائد الذى خـرج من صفوف الجيش ليقود الشعب ويحكم مصر ..

الجزء الاول ... بين يديك ... يقـدم ـ بعد العودة لدور العسكريين فى تاريخ مصر الحديث ـ قصة ثورة يوليو منذ بدأت فكرة فى ضمـير بعض الضباط الوطنيين من مختلف الاتجاهات والمدارس الفكرية ، حتى انتهـت الى تدبير وتنظيم وحركة .

الوصول الى القمـة كان دورا بسيطا من ادوار الثورة ، التى بـدأت من اليوم الاول تواجه مصر : الشـعب والقضـايا الوطنية والاجـتماعية ... وتواجه ايضا الاحتلال البريطانى والضغوط الامبريالية ..

الجزء الاول يمضى خلال مرحلة هامة من مراحل الثورة ، خاضـت فيهـا صراعات مختلفة ، انتهت الى عزل محمد نجيب ، وتولى مجلس قيـادة الثورة المسئولية وحده بعد تعيين جمال عبد الناصر رئيسا للوزراء .. فصل من فصول الثورة ، تعقبه فصـول اخرى فى الاجزاء التالية .

وقبل ان اترك الكتاب لك ... أحب أن أقول ان فى عنقى دينـا من الشكر لكل هؤلاء المعـارف والزملاء والاصدقاء الذين تفضلوا فمنحونى بعض وقتهم وقدموا لى فى سـخاء ما عندهم من معلـومات وذكريات ... كانت السند الرئيسى فى ظهور هذا الكتاب .

وفى صدق أقول : لا اعتقـد انى قـد احطت بكل شىء ... ولكنى حاولت ... فلم اكتب الكلمة الاولى فى الكتـاب الا بعد عام ونصـف من البحث والتدقيق والسؤال .

واخيرا ... كلمة وفاء ... للرجـل الذى قاد ثورة يوليو ... لجمال عبد الناصر .

أحمد حمروش

قصة ثورة ٢٣ يوليو

الجزء الأول

الباب الأول
العسكريون فى تاريخ مصر الحديث

الفصل الاول

محمد على واليا ··· وأبو خليل قائدا للجنود

(محمد على هو الشخص الوحيد الذى كان فى قدرته تحويل تركيا من العمامة الفاخرة الى رأس حى حقيقى) .

كارل ماركس

الحديث عن العسكريين فى مصر ليس حديثا عن طبقة ··· فالجيش المصرى يتكون من مختلف طبقات الشعب ··· عمالا وفلاحين ، وبورجوازية صغيرة وكبيرة ··· والى عهد قريب كان يضم الاقطاعيين ايضا ··

والحديث عن العسكريين فى مصر ايضا ، ينفرد بخاصية غريبة ··· لانه منذ اللحظة الاولى التى ليس فيها الفلاح المصرى ملابس الجندية فى عهد محمد على ، وانتظم فى صفوف الجيش ، نبت تناقض طبقى أخذ ينمو بين الجنود وصغار الضباط ابناء الفلاحين المصريين ، وبين الاتراك والشراكسة الذين تولوا مناصب القيادة العليا فى الجيش ، حتى وصل الصراع ذروته مع الثورة العرابية ·

ولم يخمد الصراع مع هزيمة الثورة العرابية واحتلال البريطانيين لمصر ··· ولكنه اخذ طابعا وطنيا بين المصريين فى صفوف الجيش ، وبين قوات الاحتلال البريطانى ·

حركة الصراع ، ونمو التناقضات ، وتغير صورة النضال داخل الجيش المصرى لم تهدأ او تتوقف منذ مطلع القرن التاسع عشر ... وهى تشكل صورة فريدة من صور نضال الشعب المصرى .

والمثير ان الجيش المصرى الحديث لا تمتد جذوره الى الماضى السحيق ، ولا يرتبط بصورة متصلة متجددة مع الجيش المصرى فى عهد الفراعنة ... هناك ثغرة زمنية طويلة فى تاريخ الجيش المصرى ، وفاصل عازل امتد مئات السنين بين آخر معاركه وبين العودة الى تجنيد المصريين .

خلال مئات السنين من حكم المماليك والعثمانيين لم يكن للمصريين دور فى الخدمة العسكرية ، كان حكام مصر يخشون ان يحمل الفلاحون السلاح وتنتظمهم صفوف الجيش .

الرفض المطلق لتجنيد المصريين يعطى مؤشرا هاما لتخوف الحكام غير المصريين من بعث الروح العسكريه فى الشعب ، او السماح لابنائه بحمل السلاح .

واصبحت هذه هى القاعدة .

ورث حكام مصر الاتراك الذين غزوا مصر ١٥١٧ من السلاطين المماليك عادة تكوين حرس خاص لهم من المماليك الذين كانوا ارقاء مستوردين فى الغالب من الدول المحيطة بالبحر الاسود اجبروا على اعتناق الاسلام ودربوا خصيصا للخدمة العسكرية ، وكان الحكام الاتراك يعينونهم فى مراكز الدولة الهامة ويهبونهم ارضا واسعة ... ثلثا الارض المصرية كانت فى حوزة المماليك فى نهاية القرن الثامن عشر مما جعلهم فئة سائدة بين الاقطاع فى مصر .

وعندما اضمحلت الامبراطورية العثمانية فى القرن الثامن عشر ... تدهور الاقتصاد وسرى الفساد فى اجهزة الدولة ، وانحطت الثقافة ، وخرجت الاقاليم عن طاعة الحكومة المركزية وفقد الجيش قدرته القتالية ، وانتهز على بك الكبير فرصة اندلاع الحرب بين تركيا وروسيا واعلن استقلاله عام ١٧٦٩ ، وصار اسمه يذكر فى خطب الجوامع مقرونا بلقب « سلطان مصر وخاقان البحرين » .

وفى مواجهة ذلك كان الفلاح المصرى يتعرض لعذاب شديد من الضغط والسخرة ونهب المحاصيل .. وكانت الهجرة من القرى ظاهرة منتشرة فى ارجاء الامبراطورية العثمانية ، وفى مصر خاصة ... وتكررت المجاعات ، واصدر الاتراك تشريعات باسم (قانون نامة مصر) تجبر الملتزمين والمشايخ على

عدم ابقاء قطعة ارض واحـــدة من الارض غير مزروعـــة ، وان يحولوا دون هرب الفلاحين ، وان يسعوا لاسكانهم فى القـرى الخربة والخاوية ، وفى حالة فرار الفلاح من ارضه يتحمل الشيخ التزاماته المادية ٠

من اجل هذه الحالة كان الفلاح يقف بعيدا عن الجيش ، لا يجنـده الحكام الاتراك او المماليك ، لما يمكن ان يحمله للجيش من روح النقمـــة والثورية ٠

وعندما غزا نابليون مصر عام ١٧٩٨ كان يدرك هذه الحقيقة ، فشـــاء ان يتخذ منها ســـتارا يخفى اغراضه الاســـتعمارية ، وقال فى بيانه عن المماليك (فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يســـتوجبوا ان يتملكوا مصر وحدهم ، ويختصوا بكل شىء احسن ما فيها من الجوارى الحســـان والخيل العتاق والمساكن المفرحة) ٠

كان المماليك يعتبرون جيشهم المدرب المحترف « جيشـــا لا يقهر » ٠ ولكنه كجيش اقطاعى هزم فى اول معركة امام جيش نابليون الذى عركتـــه حروب الثورة الفرنسية ٠ وكانت لنابليون فى ذلك نظرية عبر عنهـــا بقوله (لا شك ان مملوكين يتفوقان على ثلاثة من الفرنســـيين ، وان ١٠٠ مملوك يعادلون ١٠٠ فرنسى ، ٣٠٠ فرنسى يتفوقون عادة على ٣٠٠ مملوك ٠ امـــا ١٠٠٠ فرنسى فيهزمون دائما ١٥٠٠ مملوك) (١) ٠

المقصود من ذلك هو ان التطور الحديث للجيوش يســـتطيع الانتصـار على المهارة والقدرة الفردية ٠٠ وفى ذلك كتب فردريك انجلز فى كتابه (ضـد دوهرنج) موضحا (كل ما يحتاج اليه نابليون هو قدر محدود من الخيـالة ليظهر قوة ومفعول الضبط الذى تنطوى عليه الصفوف المتراصة والعمليـات المخططة ، لكى تتحول قوة الضبط هذه الى تفوق حتى على حشـــود اكبر من الفرسان غير النظاميين الذين يملكون خيولا أجود أو يتصفون ببراعة اكبر فى الفروسية وفى المبارزة والذين لا يقلون عن غيرهم بسالة) ٠

ولم تكن المعركة بين نابليون والمماليك فقط ، وانما دخلهـــا الشعب المصرى رغم انـــه لم ينتظم فى صفوف الجيش ٠٠ ولكنه اتخذ موقف المقاومة ضد القوات الاجنبية الغازية ، وجمعت التبرعات لشراء الســـلاح ، واسـهم سكان القاهرة اسهاما فعالا فى الدفاع عنها ، وغـرق الالوف منهم فى النيل اثناء التراجع ــ بعد معركة امبابة الغربية ــ من الاهرام على الضفة الغربيـــة للنيل ، والتى انتصر فيها نابليون بعد ان سـقط فى المعركة ٣٠٠٠ مملوك من

---

(١) تاريخ الاقطار العربية الحديث ٠٠ لوتسكى ٠

مجموع ٦٠٠٠ وفر الباقـــون : البعض منهم الى الوجه القبلى مع مراد بك والبعض الى سوريا مع ابراهيم بك ٠

الشعب المصرى لم يتردد فى دخول المعركة دفاعا عن ارضه رغم عـزل المماليك له عن الجيش ، واستمر فى نضاله العسكرى الذى كان يشـبـه (حرب العصابات) التى اشتعلت نتيجة اسلوب الادارة الفرنسـية فى فرض اتاوات نقدية وعينية تجاوزت فى بعض الاحيان ما كان يحصل عليه المماليك ، كما صادرت الاغـــذية والعلف ٠٠ وكانت هذه هى اول مجابهة لغزاة غير مسلمين بعد الحرب الصليبية ٠

اشتدت (حرب العصابات أو الأنصار) وخاصــة فى الدلتا بعد دخول الاتراك للحرب ، فهجم الفلاحون المصريون على الســعاة العســكريين والدوريات ، وارتبكوا خطوط الاتصال الفرنسـية ، وقتلوا الضباط والموظفين وجباة الضرائب الفرنسيين ، فأرسل نابليون حملات تنكيل للدلتا ، وحـرق ضباطه القـــرى المتمردة ، غـير ان ذلك لم يخمد اللهب الذى امتد الى القاهرة ، حتى اصبحت تشبه باريس خلال الايام الاولى للثورة الفرنســية على حد تعبير القنصل الفرنسى فى ذلك الحين (٢) ٠

وتحولت القاهرة الى مدينة ثائرة ، انسحبت منهـا القوات الفرنســية ، وهرب نابليون نفسه الى جزيرة من جزر النيل ، واحتشــد ١٥ الف ثائر فى الجامع الازهر وأقامـوا المتاريس والحواجز حــول الطرق المؤدية له ، وسارع الى القاهرة ٥ آلاف فلاح من القـــرى المجاورة ، وبضعة آلاف مـن بدو الصحراء الغربية (٣) ٠٠ .

وارسل نابليون كتيبة ضد الفلاحين واخــرى ضد البدو ، وحشــد قوته الاساسية بالقرب من القاهرة ، حيث وجه نيران مدافعـه الى المتحصنين فى الجامع وما حوله ، فقتل الآلاف منهم ومن نجا قتلته حــــراب الجنود الفرنسيين ، ولم يتخذوا أحدا اسيرا ٠

ورغم طلب الثوار وقف القتال الا ان نابليون لم يتوقــف ، ونفــذت خطته ببشاعة ، وفى ذلك كتب نابليون للجنرال مينو حاكم رشــيد يقول له (لا يمكن اخضاع هؤلاء القوم الا بالقسوة) ٠

ولم تكن هذه هى الانتفاضة الوحيدة لسكان القاهرة ٠٠ ثــــارت القاهرة مرة اخـــرى ضد كليبر فى مارس ١٨٠٠ بعد عودة نابليون سرا الى فرنسا ، وابادوا حامية فرنسية صغيرة كانت فى المدينة ، وقاوموا حصــارا

---

(٢) المصدر نفسه ٠

(٣) المصدر نفسه ٠

امتد شهرا حتى ١٥ ابريل عندما دكت القوات الفرنسية بولاق وحولتها الى رماد ، وقتلوا بالحراب عدة آلاف من الثوار ٠

وتعرضت القاهرة لمذبحة ثالثة بعد اغتيال كليبر بيد سليمان الحلبي في ١٤ يونيو عام ١٨٠٠ ، واجتاحت الجنود الفرنسية شوارع القاهرة تقتل وتحرق بلا حساب ٠

كان المصريون يدافعون عن وطنهم خلال سنوات الاحتلال الفرنسي الثلاث وهم يحملون السلاح بطريقة تلقائية ٠٠ وقد استفادوا من ذلك خبرة كبيرة ، انعكست على الحركات الوطنية في المستقبل ، وساعدهم في ذلك ان الاسلحة كانت في بداية تطورها تضم السيف والخنجر والسهم الى جانب البندقية البدائية ٠٠

وأثبت المصري بعد مئات السنين من حكم المماليك والعثمانيين انه لم يفقد صفته كجندي محارب يتحمل قسوة المعارك في صبر وشجاعة ٠٠ وفي ذلك يكمن سر ابعاده عن التجنيد وعزله عن صفوف الجيش وتعامل الحكام الاجانب معه في حذر ٠

وبعد مغادرة الفرنسيين مصر ، عقب توقيع معاهدة الصلح مع تركيا في ٩ أكتوبر ١٨٠١ تركوا دراسة شاملة لمصر في ٢٠ مجلد من كتاب « وصف مصر » تضم بحوثا لامعة في مختلف المجالات ، حلت بعض القضايا الحربية العملية مثل صنع البارود من الموارد الطبيعية المتاحة في مصر ، ووضع الخرائط الحربية ودراسة الطبوغرافيا ، وعلاج الامراض التي تتفشى بين الجنود ٠٠٠ وذلك الى جانب دراسات وابحاث اخرى في مختلف نواحي الحياة ٠

وكانت هذه الدراسات موضع تقدير ومتابعة في المستقبل ٠٠ كما كانت المقاومة الشعبية للحملة الفرنسية بداية الاهتمام بدخول المصريين الى ساحة العسكرية المنظمة ٠٠ أى الانضمام للجيوش ٠

خرج الفرنسيون من مصر ، وخلفوا بها ايضا قوات احتلال ثلاثية شاركت في هزيمتهم (٤٠ الف تركي ، ٢٠ الف انجليزي ، ٤ آلاف مملوك)، واعقب خروجهم ظهور تناقضات بين الاتراك الذين استقر رأي سلطانهم سليم الثالث على التخلص بصورة حاسمة من المماليك ، بينما ساندت انجلترا المماليك وعملت على اعادة ممتلكاتهم ومناصبهم في الدولة ، وهددت الباشا التركي بقصف القاهرة اذا لم يطلق سراح المماليك الذين كان قد أسرهم في حملة لابادتهم ، فاضطر الى اطلاق سراح ٢٥٠٠ مملوك استقبلتهم القيادة البريطانية بمراسم احتفال عسكرية ٠

ولم يستقر الانجليز طويلا في مصر ، خرجت آخر قـــواتهم في مارس ١٨٠٣ تطبيقا لشروط معاهدة صلح اميان التى وقعت بين انجلترا وفرنســا في ٢٧ مارس ١٨٠٢ ، واستصحبوا معهم قائـد المماليــك الموالى لهم محمـد الالفى .. واســتمرت الحرب بين الاتراك والمماليك ، حتى وصـــل الى مصر (محمد على) ضابطا في القوة الالبانية التابعة للجيش التركي ، ثـم سرعان ما عين قائدا لها .

عقد محمد على حلفا مع المماليك لضرب الباشوات الاتراك ، ولمـا بـدا للمصريين ان المماليك على وشك استعادة سلطتهم وممتلكاتهم ومعـــاودة النهب من جديد ، قرروا الامتناع عن دفع الضرائب وقتـــل الجباة ، وترأس الانتفاضة شيوخ الازهر ، ودارت المعـــارك في شوارع القاهرة ، وحوصر قصر عثمان البرديسى قائد المماليك في ١٢ مارس ١٨٠٤ ففر من القاهرة .

ولم يتردد محمد على .. انحاز للثوار بعد مـــا ادرك قـــوة الحـــركة الشعبية ، وسارع الى الازهر معلنا نفسه حاميا لحقوق الشـــعب المصرى ، ووجه كتائبه الالبانية لمحاربة المماليك والاقطاعيين في الوجـــه القبلى تحت قيادته خلال عامى ١٨٠٤ ، ١٨٠٥ واختاره مجمع الشـــيوخ قائمقاما (أى نائبا لباشا مصر التركى) .. واختير خورشيد الحاكم التركي للأســكندرية باشا لمصر .. وهنا انتهى دور السيد عمر مكرم الرجل المثالى الذى ســـلم الحكم لمحمد على ثم انزوى في بيته لمثاليته .

وتابع الاتراك أسلوبهم في سلب جهد المصريين .. فقرر خورشـــيد جباية الضرائب مقدما لمدة سنة كاملة ... ولكن الشـــعب المصرى الذى حارب الفرنسيين وطـــرد المماليك لم يقبل الخضوع للانكشارية حـــرس الباشا التركى .. واندلعت انتفاضة جديدة في مايو ١٨٠٥ عمت القـــاهرة كلها ، ونادى مجمع الشيوخ بمحمد على حاكما على مصر ... واضطـــر السلطان سليم الثالث الذى تهتكت امبراطوريته بالانتفاضات التحـــررية الى الاعتراف بمحمد على واليا على مصر في نفس العام ١٨٠٥ لانشغاله بانتفاضـة وطنية تحررية في صربيا ، وعدم استقرار الاوضاع في بلغاريا واليونان .

وفي ذلك الوقت كانت الحرب قد استؤنفت بين انجلترا وفرنســا ، وامتدت الى الشرق .. واستطاع محمد على بمهارته أن يهزم محمـــد الالفى (صنيعة الانجليز) ثم تخلص من عثمان البرديسى (الموالى للفرنسيين) .

وحاول الاسطول البريطانى ان يغزو استانبول لوقـــوف تركيا مـع فرنسا ، ولكنه اتجه الى الاسكندرية وانزل فيها ٥ آلاف محـــارب في ١٧ مارس ١٨٠٧ تحت قيادة (فريزر) .

وهنا اتجه محمد على لمقاومة القوة الغازية .

لم يعتمد على الانكشارية .. كانوا قد انتهوا .. ولم يعتمد على المماليك ... كانوا قد هزموا وتشتتوا ... ولم يعتمد على الالبانيين وحدهم فقد كانوا اقلة لا تستطيع المواجهة .

ولكن محمد على اعتمد على المصريين للمرة الاولى كقوة شعبية مسلحة .

خاض المصريون الحرب وسحقوا ــ فى نهاية مارس ١٨٠٧ ــ وحدة عسكرية انجليزية عددها ٢٠٠٠ فى شوارع رشيد ، ثم سحقوا وحدة أخرى أكبر منها وجهها القائد البريطانى لنجدة قواته ..

اسهم فى معركة رشيد الفلاحون والبدو الى جانب العساكر الاجانب المحترفين ... وانسحب الانجليز الى الاسكندرية ، ومن خلفهم محمد على .. واضطر القائد البريطانى الى طلب الصلح والانسحاب بعد حملة لم تتجاوز مدتها ستة شهور .

دخل محمد على الاسكندرية ... وارتفعت شعبيته الى القمة .. واعتبره المصريون بطلا وطنيا ..

وقد تابع محمد على خطوات نابليون ، الذى كان جيشه أى جيش فرنسا الثورة ، هو بداية العسكرية العصرية الاوروبية .. وكان بداية الانتقال من فرق الملوك والأمراء والباشوات ، أى الجيوش الافطاعية ، الى الجيوش القومية النظامية (البرجوازية) .

كان محمد على قد اضطرته ظروف محاربة الانجليز الى مهادنة المماليك الذين اعتبروه واليا عليهم . ولكنهم احتفظوا بالسلطة فى الوجه القبلى وجعلوا منه وكرا لمؤامراتهم وتمرداتهم ..

وبعد ان سحق محمد على الانجليز صادر عام ١٨٠٨ امبلاك الملتزمين الذين امتنعوا عن دفع الضرائب ، وفى عام ١٨٠٩ حرمهم من نصف الفائض ، وفى عام ١٨١٢ وضع يده على جميع الاراضى التى كانت فى حوزة المماليك ، وفى عام ١٨١٤ ألغى نظام الالتزامات نهائيا . واصبح الفلاح يدفع الضرائب لاول مرة الى الدولة مباشرة ، كما قضى على تبعية الفلاحين الشخصية للملتزمين .

خلال هذه الفترة قام المماليك بانتفاضتين ضد محمد على عامى ١٨٠٩ ، ١٨١٠ بعد تقلص نفوذهم واخذ اقطاعياتهم ، الامر الذى دفع محمد على الى ارتكاب مذبحة المماليك الذين حاصرهم فى القلعة يوم اول مارس ١٨١١ خلال عرض عسكرى اشترك فيه ٥٠٠ مملوك بمناسبة ارسال

قواته الى الجزيرة العربية لمحاولة القضاء على الدولة الوهابية بنـــاء على اوامر الباب العالى ·

المماليك الذين نجوا من المذبحة هربوا الى دنقلة واقاموا حكما خاصـــا بها حتى تم غزوهم عام ١٨٢٠ ·

بعد ما عزز محمد على سلطنته في مصر ، قرر ان يتخطى حدودهـــا ساعية وراء آماله وطموحه اللذين وصفهما فيما بعد الجنرال بوابيه في كتابه الى كيرمون ـ تونير وزير الحربية الفرنسى في اول ديسمبر ١٨٢٤ بقـــوله (ان محمد على يشكل فى الامبراطورية التركية حدثا غريبا لا يخلـــو من العبقرية فله تفكير واسع صحيح وآراء جريئة في الاصلاح والتنظيم ، وهـــو يعلم ان عقبات عصيبة تقوم في سبيل مشاريعه ، ولكنه كبير الامل في تخطيها جميعا) (٤) ·

ولذا فانه عندما اقترح السلطان محمود الثاني عليه تجـــريد حملـــة ضد الوهابيين في الجزيرة العربية سرعان ما استجاب لذلك ، وارسل ابنه طوسون ـ ١٦ سنة ـ على رأس حملة في سبتمبر ١٨١١ ، وارسل معـــه مستشارا سياسيا مصريا هو التاجر القاهري محمد المحـــروقي ··· وكانت الحملة موضع اهتمام التجار المصريين الذين تكبدوا خســــائر فادحة من توقف الحج وما يتصل به من تعامل تجاري فقدموا الاموال بســـخاء لتجهيز الحملة ·

كان هدف محمد على المباشر هو السيطرة على التجارة معتبرا الجـــزيرة العربية مفتاحا لسوريا والعراق ، ناظرا الى الوهابيين نظرته الى خصـــوم يصارعونه من اجل الاستحواز على الاقاليم العربية التابعة للامبراطـــورية العثمانية ··· وكان محمد بن عبد الوهاب مؤسس الوهابية يحلم بتحـــرير عرب سوريا والعراق من النير التركى ، ولم يعترف بخلافـــة السلـــطان التركى ، وكان يعتبر كافة العرب اخوة ويدعوهم الى الوحدة (٥) ·

تعرضت الحملة التى استولت على مكة والطائف وجدة الى مصــــاعب ومقاومة شديدة وقتل حوالى ٥ آلاف جنـــدى من حوالى ١٠ آلاف جنـــدى شكلت منهم الحملة ، مما اضطر محمد على الى ان يقـــود الجيش المصرى شخصيا فذهب الى جدة مع امدادات جديدة في مســـبتمبر ١٨١٣ حيث انزل بالوهابيين هزائم ساحقة اباد فيها جيشاً مكونا من ٣٠٫٠٠٠ شخص ·

وعاد محمد على الى مصر في مايو ١٩١٥ لتواصـــل الحملة الوهـــابية

---

(٤) السياسة الدولية في الشرق العربى ـ الجزء الثانى ـ اميـــل خـــورى وعادل اسماعيل ·

(٥) تاريخ الاقطار العربية الحـــديث ـ لوتسكى ·

مسيرتها بقيادة طوسون ثم ابراهيم ، حتى ادخل القسم الاكبر من الجزيرة العربية ضمن الامبراطورية العثمانية ، وتحولت الحجاز الى آقليم مصرى يعين محمد على حكامه ..

وقد كانت الحملة الوهابية أولى حملات محمد على خارج مصر نقطة تحول استراتيجية فى تفكيره ... اذ قرر خلالها عدة قرارات هامة :

اولا — القيام باصلاحات عسكرية حديثة ، فألغى نظم الجيش القديمة واستعاض عنها بأنظمة اوروبية تتناسق مع تطور التسليح الذى تمخضت عنه الثورة الصناعية الاوروبية .. فبدأت تختفى الاسلحة التقليدية مثل السيوف والدروع ... وارتبطت العسكرية الحديثة بالصناعة الحديثة .

ثانيا — قرر — من أجل الوصول الى أفضل المستويات ـ الاستعانة بخبراء ومدربين عسكريين من النمسا وايطاليا وروسيا وفرنسا بصفة خاصة .

ثالثا — اتخذ قرارا ثوريا بتجنيد الفلاحين المصريين فى الجيش النظامى لاول مرة فى تاريخ مصر الحديث ، مقتنعا بكفاءة وصبر المقاتل المصرى التى لمسها فى معركة رشيد ضد حملة فريزر وفى الانتفاضات الشعبية المتعددة .. ومقتنعا ايضا بأن فى ذلك تأمينا حقيقيا لحكمة المستقل عن الباب العالى ... ومقتنعا اخيرا بأن ذلك سوف يخلصه من اخطار المماليك ايضا ... وقد اتخذ محمد على هذا القرار ضاربا عرض الحائط بنصيحة بعض الذين احاطوا به وصوروا له ان فى ذلك مخاطرة شديدة .

وجد محمد على ان طموحه لبناء مصر الحديثة لابد ان يعتمد على عسكرية حديثة .. وهذه لابد أن تعتمد على أمرين :

١ — تجنيد ابناء مصر بعد الاستغناء تدريجيا عن الجنود والفرسان الاتراك والارناؤوط والمماليك ، وهم المرتزقة الذين لم يتعودوا تماما على انضباط الجيوش النظامية الحديثة .

٢ — بناء صناعة حديثة .

تمصير الجيش

وبدأ محمد على تنفيذ خطته فأقام معسكرا تدريبيا فى اسوان ، جند فيه الآلاف من المصريين والسودانيين تحت اشراف مدربين فرنسيين وايطاليين كان أبرزهم الضابط الفرنسى « جوزيف انتلم سيف » الذى

حضر مصر عام ١٨١٩ وعرف فيما بعد باسم « سليمان باشا الفرنساوى » بعد أن أسلم وتزوج وانجب فى مصر ٠

ولم يكن تجنيد الفلاحين للجيش امرا سهلا ٠٠٠ فقد اخذوا من التجنيد موقفا سلبيا بعد معاناة قرون طويلة من الاضطهاد والارهاب والسخرة ، وحدثت بعض تمردات فى المنوفية والوجه القبلى وبلبيس قمعها محمد على الذى لم يقابل هذا الموقف بالعنف ، وانما طلب من الشيخ العروسى شيخ الازهر ان يوضح الامور للفلاحين عن طريق رجال الدين ٠٠٠

وكتب محمد على رسالة يقول فيها للمسئولين عن التجنيد (انه لما لم يكن من عادة الفلاح ان يقبل هذا الوضع فلم يكن ثمة ما يجب ارغامه عليه ولا معاملته بالعنف فيه ، بل يلزم تحرير الفلاحين وتجنيدهم باستدراج عقولهم اليه ، وذلك بتفهيمهم تدريجا أنه أمر منطو على خير ، ولا تعتبر كمسائل السخرة) (٦) ٠

وقد اثبت الجنود المصريون تفوقهم وقوة احتمالهم ، وساندهم محمد على وابراهيم فى مواجهة المتاعب التى تعرضوا لها من الضباط الاتراك او مماليك محمد على ٠٠٠ فقد امر محمد على فعلا بجلد ناظر سلخانة تركى مائة جلدة لانه قال فى حفل استقبال أحد الآلايات بدمياط (صار الفلاحون العمى عساكر) ٠

وبدأ الفلاح المصرى يتدرج فى رتب الجيش ٠٠٠ بعد ان قام محمد على بفتح المدارس الحربية لاعداد الكوادر القيادية المصرية مثل مدرسة المشاة فى دمياط ، ومدرسة الخيالة فى الجيزة ، ومدرسة المدفعية فى طره بضواحى القاهرة ، ثم انشئت اكاديمية الاركان العامة عام ١٨٢٦ ٠٠٠ وترجمت الانظمة العسكرية الداخلية الفرنسية الى العربية لتطبق فى الجيش المصرى الذى كان يسير على تنظيمات جيش نابليون تماما ٠

هكذا حقق محمد على هدفه الاول ٠٠٠ وهو تجنيد ابناء مصر ٠٠٠ وسجل التاريخ حقيقة هامة ، وهى ظهور جيش من الفلاحين يعتبر بداية فى الحركة القومية الحديثة للامة المصرية ٠

وعن الهدف الثانى وهو بناء صناعة حديثة تكون فى خدمة الجيش الحديث ، انشأ محمد على مصانع لصب الحديد بلغ انتاجها ٢٠٠٠ طن من حديد الزهر سنويا ومصانع للبارود ، ومصانع للأقمشة والاشرعة والحبال والزيوت والصابون وغيرها ٠

وبنى محمد على كذلك ترسانة الاسكندرية عام ١٨٢٩ بعد تحطيم

---

(٦) ميلاد ثورة ـ محمد عودة ٠

جميع سفن الاسطول المصرى فى موقعة (نفارين) وفى ينـاير ۱۸۳۱ انزلت الى البحر اول سفينة ذات مائة مدفع ٠

وظهرت (البروليتاريا الصناعية) لاول مرة فى مصر ... الترسـانة كان يعمل بها ٨٠٠٠ عامل ، ومجموع العمال فى مختلف المصانع وصل الى ٤٠٫٠٠٠ عامل ... وكان العمال يخضعون للنظام العسكرى ، يقسـمون الى فصائل وسرايا وكتائب ويعيشون فى الثكنات ، ويعملون فى المصـانع نتيجة التجنيد الاجبارى ٠

كانت الصناعة مرتبطة ارتباطا وثيقا باحتياجـات الجيش ... وكان العمال يحصلون على اجور زهيدة ، وتشير ارقام ميزانية ۱۸۳۳ فعـلا الى ان مصروفات الجيش بلغت ٢٨ مليون فرنك ، ونفقات محمد على الشخصية ٣٫٥ ملايين فرنك ، بينما دفع لنفقات المصانع واجور العمال ٢٫٧٥ مليـون فرنك لا أكثر ٠

وكما تقدمت الصناعة فى خدمة الجيش ، تقدمت الزراعـة ايضـا ، وتحسنت ظروف الفلاح نسبيا عن ذى قبل ... واصبحت مصر مصـدرة للقطن والارز ، وانشئت الترع والمصارف وبدىء فى بناء « القناطر الخـيرية أول سد يقـام فى تاريخ مصر .. وزادت بذلك مسـاحة الارض المزروعـة من مليونى فدان عام ۱۸۲۱ الى ٣٫١ مليون فدان عام ۱۸۳۳ ٠

وانتقل محمد على بمصر ـ التى كانت تعتبر شكليا احدى الولايـات التابعة للامبراطورية العثمانية ـ الى عصر جديد ... اصبحت فى الواقـع دولة مستقلة ذات حكومة وجيش وقوانين ونظام ضرائب خاص بهـا ولا يربطها بالسلطان الا ضريبة سنوية يدفعها محمد على له وقيمتها ٣٪ مـن ميزانية الدولة ٠

واعيد تنظيم جهاز الدولة ، وانشئت الوزارات على النظـام الاوروبى ... وتطلب تكوين الجيش وجهاز الدولة الجـديد توافر كثير من المثقفين والمتعلمين .. فأرسل محمد على الذى بدأ يتعلم القراءة والكتـابة وهـو فى الخامسة والاربعين (٧) بعثات كثيرة الى اوروبا لدراسة العلوم الحربيـة والهندسية والطب واللغات والحقوق ٠

ولكن هذه الدراسات جميعا كانت تدور حول محور رئيسى هـو الجيش والاهتمام به ... ومثال ذلك ان رفاعة رافع الطهطاوى بدأ حياته واعظا واماما فى احدى فرق الجيش المصرى عام ١٨٢٤ ثم ارسل فى بعثـة

---

(٧) مقال رفاعة رافع الطهطاوى فى ذكراه المئوية ـ محمود يوسف ـ الهـلال ـ يوليو ١٩٧٣ ٠

الى باريس عاد منها عام ١٨٣١ ليعمل فى المدرسة التجهيزية للطب ثم مدرسة المدفعية فمدرسة الالسن ٠

لم يكن هناك حد فاصل بين المدارس المدنية ومدارس الجيش ٠٠ بل ان الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى كان حاصلا على رتبة عسكرية منذ عمل اماما فى الجيش ٠٠٠ كان يوزباشى فى باريس ثم ترقى حتى وصل فى آخر حياته الى رتبة الاميرالاى (٨) ٠

هذا يوضح انه كما كان العمال يجندون للعمل فى المصانع كان بعض المثقفين يحصلون على الرتب العسكريه ٠

وقد زاد عدد الجيش المصرى حتى بلغ ١٨٠ الف جندى نظامى ، ٤٠ الف جندى غير نظامى عام ١٨٣٣ ووصل عدد البحارة المصريين الى ١٥ الف بحار ٠٠ وهذا يعنى ان ربع مليون مصرى من ثلاثة ملايين كانوا مجندين فى الجيش ٠

ومع ذلك ظلت ترقية الجندى المصرى حتى آخر عهد محمد على لاتتجاوز رتب صغار الضباط ، بينما كان هناك عدد كبير من الضباط الاجانب فى رتب كبيرة ، وفى نفس العام (١٨٣٣) كان هناك اكثرمن ٧٠ ضابطا ايطاليا و ٧٠ ضابطا فرنسيا ممن خدموا مع نابليون ولم يجدوا عملا يناسب مهنتهم بعد هزيمة الامبراطور ، و ١٢ ضابطا اسبانيا ، وعدد من الضباط البريطانيين ، وكان هؤلاء بمثابة الخبراء المكلفين بنقل مدنية أوروبا ونهضتها العسكرية الحديثة الى مصر ٠

وكان هؤلاء الضباط الاجانب يمثلون جانبا محدودا من ضباط الجيش المصرى ٠٠٠ الاغلبية كانوا من الاتراك ثم المماليك الذين دربوا على يد محمد على بعد ان فقد الآخرون شوكتهم بعد مذبحة المماليك ٠

واغرى محمد على الضباط الاتراك والاجانب على الخدمة فى الجيش المصرى برفع مرتباتهم عن نظيرها فى الجيش التركى نفسه ٠٠٠ هذا بينما كان الجنود وصف الضباط المصريون يتناولون مرتبات اقل كثيرا من مرتبات جنود السلطان التركى كما يتضح فى الجدول الآتى :

رتبة	الجيش المصرى	جيش السلطان	النسبة
عسكرى	١٥ قرشا	٢٠ قرشا	٧٥ر٠ الى ١
باشجاويش	٤٠	١٢٠	٣٣ر٠ الى ١
ملازم ثان	٢٥٠	١٢٠	١٠ر٢ الى ١

(٨) المصدر السابق ٠

رتبة	الجيش المصرى	جيش السلطان	النسبة
يوزباشى	٥٠٠	١٨٠	٢ر٨٠ الى ١
بكباشى	٢ر٥٠٠	٤٠٠	٦ر٢٥ الى ١
اميرالاى	٨ر٠٠٠	١ر٢٠٠	٧ر٧٦ الى ١

يتضح من هذا الجدول ان الاميرالاى فى الجيش التركى كان يحصل على مرتب يعادل مرتب الجندى ٦٠ مرة بينما كان يحصل فى الجيش المصرى على مرتب يعادل مرتب الجندى ٥٢٣ مرة ، وذلك حرصا من محمد على على الارتفاع بمستوى الجيش .

ولم تقتصر مكافأة الضباط فى مصر على هذه المرتبات المرتفعة وانما كانوا يمنحون ايضا وجبات طعام ودخانا ، والضباط العظام كانوا يمنحون قطعا من الأرض .. أما الخبراء الفرنسيون فقد أجزل محمد على لهم العطاء وخصص لكبار الضباط منهم راتبا لايقل عن ٣٦ر٠٠٠ فرنك فى السنة عدا الهدايا والهبات فى وقت لم يتجاوز فيه راتب المدرب الاوروبى ١٨٠٠ فرنك فى السنة .

وكان محمد على اقد عاد بعد تحويل الارض لملكية الدولة الى توزيع بعض منها لتصبح ارضا خاصة اعتبارا من اول ديسمبر ١٨٢٩ وهو التاريخ الذى بدأ يهب الارض فيه الى اقاربه وحاشيته وبعض كبار الضباط .

نشأت من ذلك فى صفوف الجيش فروق طبقية حادة بين الضباط والجنود ... أو بين الاجانب والمصريين ... واصبح هناك نوع من الاقطاعية العسكرية التى لا تتناسب مع اتجاهات محمد على التقدمية .

أدى ذلك الى بقاء الفلاح المصرى أو الجندى المصرى فى موقعه عاجزا عن التعبير عن ارادة الجماهير التى نبت بينها ، خاضعا لتعليمات قادته وضباطه الذين لا تربطهم بمصر اكثر من رابطة المصلحة المادية .

ورغم ذلك اشترك المصريون فى كل حملات محمد على العسكرية وخاصة تحت قيادة ابراهيم باشا الذى كانت له قدرة خارقة على استثارة حماسة الجنود ، وكان لا يرضى ان تعمل اصغر رتبة فى جيشه ما لا يطيق هو نفسه عمله ... وكان اسمه الشائع هو (أبو خليل) الذى كان يحمى الفلاحين من الجنود من التصرفات المهينة لبعض الضباط الاتراك أو المماليك .

ولا بد لنا من جولة قد تطول قليلا فى تاريخ حملات محمد على العسكرية ، ولكنها ضرورية لانها تظهر الدور الذى لعبة الفلاح المصرى فى ملابس الجندية ، والمؤهلات التى توافرت لنضاله وتضحياته .

اسهم العسكريون المصريون ابناء الفلاحين فى حملات عديدة بدأت بحملة لاحتلال شرق السودان مستهدفة ضرب فلول المماليك الذين تجمعوا فى دنقلة ، ولقد بدأ زحف الجيش المصرى البالغ تعداده ٥ آلاف محارب تحت قيادة اسماعيل باشا احد ابناء محمد على فى اكتوبر ١٨٢٠ .

ولم يقابل الجيش المصرى مقاومة شديدة كما حدث فى الجزيرة العربية ، اذ لم يكن لدى السودانيين اسلحة ناريه ... حاربوا بالرماح والحراب والتروس ، بينما كان الجيش المصرى مسلحا بالمدفعية .

وانتهت الحملة بالاستيلاء على شرق السودان ... واصبحت الخرطوم مركز الممتلكات المصرية ، وتحولت بسرعة الى مدينة تجارية كبيرة .
وقد زار محمد على السودان عام ١٨٣٨ حيث جهز بعثات للبحث عن الذهب فى النيل الابيض والازرق ، وقسم السودان الى سبعة اقاليم عين محمد على عليها باشوات من حاشيته الاتراك .

كان المصريون قد دخلوا صفوف الجيش ... ولكنهم لم يكونوا قد فرضوا أنفسهم بما يسمح بتعيينهم حكمدارات او حكاما للاقاليم المفتوحة .

كان محمد على قد سيطر بحملته على السودان على مجرى النيل كله تقريبا واستقر سلطانه فى مصر .

ولكن هذا لم يضع حدا لطموحه ... فان اقدرات مصر فجرت فى نفسه كثيرا من الاهداف .
كان يأمل فى تكوين دولة عربية مستقلة ...
أخذ محمد على يجاهر بأن الشعوب العربية التى تكون مصدر قوة السلطان بالمال والرجال تعيش فى الامبراطورية العثمانية حياة التابع البائس المستضعف ، واقام ينادى باسناد المناصب فى الادارة والجيش الى العرب ليمارسوا حق السلطة كما يتحملون تكاليفها .
كانت مصر قد اصبحت اضيق من ان تتسع لاحلامه .
يؤكد الذين رافقوا ابراهيم باشا فى حملته على سوريا فيما بعد بأنه سئل اثناء حصار عكا الى اى مدى ستصل فتوحاته فأجاب :

(الى حدود البلاد التى لا يتكلم فيها الناس ويتفاهمون باللسان العربى) (٩) .

---

(٩) السياسة الدولية فى الشرق العربى ، الجزء الثانى — اميل خورى وعادل اسماعيل .

وكان محمد علي مصمما في قرارة نفسه في حال نجاح سياسته ان يدفع هذه الشعوب لمبايعته بالخلافة فيعزل الاتراك نهائيا عن العالم الاسلامي (١٠) .

ولكن الظروف التي تعرضت لها الامبراطورية العثمانية غيرت قليلا من مسار خطة محمد علي ... فقد كان القرن التاسع عشر عصر القوميات في البلاد الاوروبية ، وقامت في انحاء الامبراطورية عدة ثورات تحررية وانتفاضات شعبية ... ثورة الصرب ١٨١٥ والحركة الوهابية ١٨١٨ واعلان العصيان في حلب ١٨١٩ .. واخيرا ثورة اليونان ١٨٢١ ..

واذا كان محمد علي قد استجاب لاقتراح السلطان بالقضاء على الوهابيين مرحبا بخروج جنوده من مصر ، فانه تعرض مرة اخرى لموقف جديد في مواجهة ثورة اليونانيين التحررية التي كانت تعطف عليها كافة الشعوب الاوروبية .

كان السلطان محمود الثاني قد تورط في مقاومة الثورة اليونانية التي استطاعت البرجوازية اليونانية النامية بسرعة شديدة من التجارة البحرية ـ ان تجذب اليها الفلاحين الذين قاسوا من اضطهاد الاقطاعيين الاتراك ، وارتكب جنوده فظائع وحشية شديدة توترت لها أعصاب الجماهير الاوروبية . ونطوع في جيش الثوار عدد من القادة العسكريين ورجال الفكر في اوروبا كالوزير سانتاروز الايطالي ، والشاعر لورد بيرون ، ولورد ستانهوب والسير ادوارد تشرش البريطاني ، والجنرال روش ، والكولونيل فافبيه ، والكولونيل فيليب جوردان الفرنسيين (١١) .

ولم يجد السلطان محمود الثاني بدا من الاستعانة مرة اخرى بمحمد علي بناء على نصيحة مترنيخ الالماني ، وكان يستهدف بذلك أمرين كلاهما له فيه مصلحة ، الاول القضاء على الثورة اليونانية بسلاح محمد علي وما يؤدية ذلك الى خلاف بينه وبين الدول الغربية .. والثاني اضعاف محمد علي بسلاح اليونانيين ومن ورائهم الشعوب الغربية .

ودعا السلطان محمود محمد علي الى تركيا واحاطه بكل مظاهر العطف والتكريم وأقطعه جزيرة كريت ثمنا لتدخله ، وفي ١٦ ديسمبر ١٨٢٤ صدر فرمان شاهاني بتعيينه قائدا عاما للقوات العثمانية في المورة ، فندب لذلك ابنه ابراهيم مع ٣٠ الف جندي واسطول مؤلف من ٥٦ سفينة حربية كبيرة ، و ٢٥٠ سفينة نقل .

---

(١٠) السياسة الدولية في الشرق العربي ، الجزء الثاني ـ اميل خوري وعادل اسماعيل
(١١) (نفس المصدر) .

ولكن لم يكن محمد على جاهلا بنية السلطان ، ولكنه وجد فرصة لتحقيق اهدافه ... فان ضعف الباب العالى واشتعال ثورات التحرر فى ارجاء الامبراطورية العثمانية يعطى محمد على خير فرصة لتحقيق استقلال مصر .

ولعل اصدق توضيح لخلفية فكر محمد على ما ورد فى خطاب صديقه الجنرال بوابيه كبير المدربين العسكريين الفرنسيين بتاريخ ١٨ يوليو ١٨٢٥ مرسلا الى وزير حربية فرنسا :

(من واجبى ان اطلعك على حديث سرى جرى لى مع الباشا اطلعنى فيه على حقائق افكاره ومراميه وما هيأه من مشاريع . ان محمد على يثق ثقة كاملة بعبقرية ابنه وصلابة عود جيشه ، ولا يشك مطلقا بأن حملته على المورة ستكلل بفوز تام . وقد قال لى : « ان الانتصارات التى سأحرزها فى هذا الجزء من الامبراطورية ستوسع مدى صيتى وتزيدنى نفوذا . والسلطان لم يبق له من وسائل القوة والبأس ما يمكنه من أن يحول دون تنفيذ مشاريعى . ولقد اصبح النصر حليفى وبات اسمى ومجدى على كل شفة ولسان فى الامبراطورية . انا من الترك ولهم . ولكنى ايضا للتاريخ . لقد أقلت الدولة من عثراتها ونهضت بها مما كانت فيه من خراب وذلك على كره من الديوان الذى يأبى على غيره ان يكون عظيما ويريد ان تكون العظمة وقفا عليه . وانا مدرك ان الامبراطورية ماضية قدما الى هلاكها وان يوما سيأتى يستعصى على فيه امر انقاذها ، فلا مغنم لى ولا فائدة فى ان اغامر بامكاناتى ووسائلى فى سبيل امر مستحيل ، ولكننى سأقيم على انقاضها مملكة واسعة . وانا املك كل ما يلزم لتحقيق هذه الغاية . ولى من جيوشى وعملائى المنتشرين فى كل جانب ما يجعل كلمة واحدة منى كافية لفتح حصون عكا وابواب دمشق وبغداد . وشعب جبل لبنان سيحمل سلاحه عند أول اشارة منى للاسهام فى تحقيق اهدافى وتنفيذ ارادتى . ولا اطلب من الزمن الا ان يكون حليفى لثلاث سنوات وهى مدة تكفيكم لتجهزوا وتنظموا لى جيشا اضافيا من خمسين الف مقاتل ومائة وخمسين مدفعا . وعندئذ أصبح مستكملا اسباب العمل . وسأفيد من السنوات الثلاث لتعزيز جيوشى فى سنار وبلاد الحبشة والحجاز . وسأجد فيما تحت حكمى من البلاد الاسيوية وشعوبها الكثيفة عددا لا يستهان به من العساكر . وفى هذا الوقت يتم احتلال المورة وتنظيمها سلميا . وعندئذ اصبح بفضل قوتى متحررا من كل هم خارجى فينطلق ابنى الظافر لتقرير المصير على ضفاف دجلة والفرات اللذين اريدهما حدودا حصينة للاراضى التى أنوى اقطاعه اياها والتى له من البأس والشجاعة وقوة العزيمة ما يضمن انتزاعها

وبسط سلطاني عليها) .

يظهر هذا الخطاب ان محمد علي لم يأخذ موقفا مبدئيا في مساندة حركات التحرر القومي ، رغم ان محاولته الاستقلال بمصر كانت واحدة من أهم هذه الحركات التي تفجرت في الامبراطورية العثمانيه مع مطلع القرن التاسع عشر .

ولكن ظروفه الخاصة في مصر وظروف العصر الذي كانت تتناطح فيه الدول الاستعمارية الاوروبية دفعته الى الاقدام على مشاركة السلطان في محاربة الثورة اليونانية مما بذر تناقضا محدودا بينه وبين فرنسا التي ساندت الحركة التحررية في اليونان ، وفي ذلك يقول محمد علي للجنرال بوايه :

« انتم في اوروبا لكم من تربيتكم ودينكم وتقاليدكم ما يجعلكم تستفظعون ما هو واقع في بلاد اليونان فاكتب الى اصدقائك أني في الساعة التي يلقي فيها هذا الشعب المتمرد سلاحه ويعلن خضوعه سأجمع في كل البلاد التي احكمها ، الارقاء الذين اسرهم جنودي واعيد عليهم ، ذكورا واناثا ، حريتهم وارجعهم الى بلادهم . فأنا اريد ان اكون ملكا على شعوب حرة لا على عبيد . ومتى تقدمت في تنفيذ مشاريعي فاني سأطبق قوانينكم في تنظيم الادارة واقتفي خطى الشعوب المتحضرة في قارتكم السعيدة ، فكل ما يعمل عندكم ليس اعتباطيا بل مدروسا . وكل انظمتكم موجودة لدي بنصها وترجمتها ولن يمضي وقت طويل قبل ان اجعلها مطبقة ونافذة في بلادي » .

« وانا لا اشعر بخوف الا من بريطانيا لان باستطاعة اساطيلها ان تشل ارادتي وفعاليتي وتخرب ماليتي بحصار تضربه على سواحلي ، ولكن لي سياسة ، وساسهر على ألا يكون فيها ما يغضب هذه الدولة . فاذا ساعدتني الحظوظ ومكنتني من كسب الوقت الكافي فاني سأخرج من هذه الظروف الصعبة وانا على أطيب حال » . (١٢)

وكان وصول القوات المصرية بقيادة ابراهيم باشا انعطافا حادا في طبيعة الحرب اذ توالت انتصارات الجيش المصري ، فتم تدمير حصن ميسولونجي مركز مقاومة اليونانيين الرئيسي في ٢٢ ابريل ١٨٢٦ ...

وشاءت مصادفات القدر ايضا ان يستسلم الاكروبول وتحتل قوات ابراهيم آثينا يوم ٥ يونيو ١٨٢٧ وهو نفس التاريخ الذي هزمت فيه القوات المصرية امام اسرائيل بعد ١٤٠ عاما .

---

(١٢) السياسة الدولية في الشرق العربي ؛ الجزء الثاني — اميل خوري وعادل اسماعيل .

اظهر الجندى المصرى قدرته على التحمــــل والتضحية بأسرع مما توقعه اكثر القادة العسكريين تفاؤلا •

وقد جذبت انتصارات محمد على أنظار الدول الغربية اليه باعتبـــارها خطرا يهدد اوروبا ••• ونصحه القائد الفرنسى بليار خلال مستشــــــاره بوايبه بقوله « غريب ان يستمر الباشا فى عمله ويواصل ارسال عســاكره وامواله الى بلاد لاحظ له ببقائها تحت حكمه والتى ارادوا ان تكون مقبـــرة لقواه ومجده » ••• « ان سر عظمة محمــــد على الحقيقيه هى فى ان يكـــون قويا جدا ومنيعا فى داره أى فى حدود ملكه ، وامامه مجالات واسعه لامتــداد سلطته •• امامه سوريا وافريقيا وآسيا ، ففى هذه البــــلاد ميادين تليــق بمجده » ••• ونصحه أيضا بأن يسارع لعقد معاهدة تعاون وصــــــداقة مــع اليونانيين اذا لقى من يحدثه فى ذلك (١٣) •

ولكن محمد على بقى مترددا فى الانســحاب من المورة وتــرك جيـــــوش السلطان تحت رحمه اليونانيين وعبر عن حقيقة تفكـــيره بما قاله للجنـــرال بوايبه •

ولما تحرج الموقف بعد ســـقوط اثينا عقدت انجلترا وفرنسا وروسيا معاهدة فى لندن بعد شهر واحد من سقوط الاكروبول ــ يوم ٦ يوليـــــو ١٨٢٧ ــ وقررت فيها حل المسالة اليونانية بأن تصـــبح اليونان دولةمستقلة تحت اشراف السلطان ، أى فصلها مدنيا عن تركيا ، وتضمنت بنودا سرية فى حالة رفض السلطان للمعاهدة تقضى باتخاذ اجراءات عملية لانهاء الحــرب والاعتراف بالدولة اليونانية •

رفض السلطان المعاهدة ، وطلب من محمد على تحــريك اسطوله الى اليونان فتحرك فعلا فى شهر اغسطس ١٨٢٧ ، وفى نفارين يوم ٢٠ اكتوبــر حدث تضادم بين بحارة سفينة عثمانية وملاحى احدى السفن البريطانيـــة انتهى الى معركة طاحنة انتهت بتدمير الاسطولين العثـــمانى والمصرى تدمــيرا تاما ••• ولم يكن ابراهيم وقتها فى مكان المعركة ، بل كان فى المورة •

وكانت معركة نفارين بداية حـــــرب روسية تركية رفض محمـــد على الاشتراك فيها واظهر من الحكمة والتعقل ما جعله يقبل طلب الدول الكبرى الجلاء عن اليونان بعد ان تكبد خسائر فادحة بلغت ٣٠ الف مقاتل واسطولا كاملا •

وغادر ابراهيم باشا المورة والتعاســة تثقل قلبه ، واثناء تسليمه للقائد الفرنسى جنرال ميزون اقال الاخير أن الغاية من قدومه ليســـت الا تكريس

---

(١٣) السياسة الدولية فى الشرق العربى ، الجزء الثانى ــ اميل خورى وعادل اسماعيل •

استقلال اليونان ، ورد عليه ابراهيم باشا ساخرا « اذا كان الامر هكذا واذا صح ان فرنسا حريصة على استقلال الشعوب فلماذا تستعبد الاسبان وترسل اليهم الجيوش للقضاء على حركتهم التحررية .. أيكون الاسبان أقل حقا من اليونانيين بأن يكونوا احرارا ؟ » (١٤) .

وفي ٩ سبتمبر غادر ابراهيم باشا المورة مع فلول قواته بعد ان انتهى التعاون العثماني المصرى ، وانفرط ايضا عقد التحالف الثلاثي بين روسيا وانجلترا وفرنسا ، خشية تسرب النفوذ الروسي ، ووعدت فرنسا محمد على بمساعدته فى بناء اسطول جديد .

من اجل دولة عربية مستقلة

ولم تصب هزيمة نفارين محمد على باليأس . وانما بعثت فيه نشاطا جديدا في صراعه من اجل سوريا وفلسطين وتكوين الدولة العربية الكبيرة التى كان شديد الطموح لتكوينها .

وفي ذلك كتب كارل ماركس (لقد فقد الباب العالى هيبته في عيون رعيته نتيجة لحرب ١٨٢٨ — ٢٩ الفاشلة ، وعندما تضعف السلطة العليا — كما هو مألوف عادة فى الامبراطوريات الشرقية — تستمر انتفاضات الباشوات

ومنذ اكتوبر ١٨٣١ نشب خلاف بين محمد على باشا مصر الذى كان قد آزر الباب العالى اثناء الانتفاضة اليونانية (١٥) .

كانت العلاقة بين السلطان ومحمد على تزداد توترا يوما بعد يوم .. رفض محمد على الاسهام مع تركيا فى حربها مع روسيا ، ورفض المساهمة فى دفع التعويضات مع السلطان .

وكان مفروضا ان تتحول ثورة محمد على التحررية الى حرب فعلية ضد السلطان عقب انهاء حرب المورة ولكنها تأجلت مدة عامين بسبب الخطط المصرية الفرنسية الرامية الى فتح شمال افريقيا والتى انتهت الى رفض محمد على للمشاركة فى هذا الفتح لان الاتفاق كان على حد قوله للمفاوضين الفرنسيين « يعتبر تآمرا على الباب العالى مع دولة اجنبية » ... ويلقى محمد على مزيدا من الضوء على اسباب رفضه فيقول ايضا « لست مستعدا للمجازفة بمركزى وشعبيتى ، واذا قبلت الاتفاق فانى اخسر كل ما اكسبتنى اياه أعمالى وجهودى ، واخسر معه شرفى فيحتقرنى ابناء امتى

---

(١٤) السياسة الدولية فى الشرق العربى ، الجزء الثانى — اميل خورى وعادل اسماعيل .

(١٥) تاريخ الاقطار العربية الحديث (لوتسكى) .

وينصرف الناس عني ، وثقوا ان قراري وما اقوله لكم الآن لا ينبع من عاطفة دنيئة فانتم تعرفونني وتعلمون انني متحرر من هذا الاعتبارات التي يتقيد بها القومي وان تفكيري يسمو فوقها ، ولكني افعل واقول هذا لاني لست كبيرا الا بفضل عطف امتي علي وثقتها بي • قد تقولون ان مواطني حمير وثيران • هذا حقيقة اعلمها • ولكن هؤلاء الثيران والحمير هم قوتي • ان الاتفاق الذي تفرضونه علي اذا قبلته كان قبولي حكمـا مني على نفسي بالهلاك ولا اقول لكم هذا اعتباطا ولكن عن علم صحيح وبعد تفكير طويل • والبدوي في الصحراء اصدق علما بمرض بعيره من اكبر طبيب في اوروبا • وانا لا اجزع من القيام بالحملة ، ولكني لن أقوم بها الا منفردا وعلى اساس الاتفاق الاول» •

رفض محمد علي ان يسهم في حملة ضد السلطان مشتركا مع دولة غربية ، واصر على ان تكون حركته منفردة حتى لا توصم بغير حقيقتها القومية التحررية ••• كما زاد ارتباطا وثقة بالشعب والجيش المصري •

وعندما وصلت محاولة الاتفاق لغزو شمال افريقيا مع فرنسا الى نهايتها ، بدأت فورا حركة محمد علي للاستيلاء على فلسطين وسوريا من اجل تكوين دولة عربية واحدة مستقلة مستندا الى ان جزيرة كريت ليست كافية وحدها لتعويض النفقات والمصاريف التي تكلفها في حملة المورة••

واستخدم محمد علي نزاعا نشب بينه وبين عبد الله باشا والى عكا الذي رفض اعادة ٦٠٠٠ جندي هارب الى صفوف الجيش المصري ••• وكان عدد من الجنود المصريين يعمد الى الهرب من العسكرية للمتاعب الشديدة التي يتعرضون لها في الحملات الخارجية ، ولشعورهم بأنهم يحاربون في معارك (لا ناقة لهم فيها ولا جمل) كما ان محمد علي كان قد ضاعف عدد المجندين لسد الثغرات التي فتحتها في صفوف جيشه حروب الحبشة وآسيا والمورة — على حد تعبيره ، وتجنيد عشرين ألفا من البحارة لتعزيز اسطوله الجديد الذي انشأه بالتعاون مع فرنسا بعد هزيمة نفارين وضم ثلاث سفن ضخمة ذات ثلاثة طوابق ، وعشر بواخر ، وخمسة عشر طرادا ، كما ان محمد علي كان يتخذ اسلوبا عنيفا في معاملة الهاربين من الجندية اذا ظلوا في مصر وهو في ذلك يقول « ولا يخفى على ان عددا غير قليل من عساكري البريين والبحريين يفرون من الخدمة العسكرية ولذلك امرت بشنق كل رجل يأوي الى بيته جندي فار سواء أكان هذا الرجل شيخ القرية او القائمقام او حاكم الاقليم » (١٦) •

---

(١٦) السياسة الدولية في الشرق العربي — الجزء الثاني — اميل خوري وعادل اسماعيل •

ولذا استخدم محمد علي رفض والى عكا اعادة الستة آلاف من الجنود الهاربين ذريعة للهجوم على سوريا وفلسطين في وقت كان الشعور فيه معاديا للسلطان نتيجة لضيق الجماهير الشعبية من الضرائب التي اجبر السلطان على فرضها للنفقات والغرامات الحربية ٠

واستقبل المصريون كمنقذين ومحررين من نير السلطان ، لا من قبل سكان المناطق العربية فحسب ، بل من قبل سكان المناطق التركية الصرفة التابعة للامبراطورية (١٧) ٠

كانت حركة الجيش المصرى في سوريا وفلسطين مختلفة تماما عن حركته في بلاد اليونان ٠٠٠ انه يناصر الشعوب العربية ضد الظلم الواقع عليها من السلطان التركي بينما كان في السابق يعادي حركة الشعب اليوناني التحررية ٠

بدأت الحملة تحت قيادة ابراهيم باشا في ٤ نوفمبر ١٨٣١ وتساقطت المدن واحدة بعد الاخرى : غزة ويافا وحيفا ثم عكا بعد حصار طويل ، واخيرا دمشق وحمص وحماة وحلب ٠٠٠ واثناء ذلك وجد الجيش المصرى قوات الاتراك التي تمركزت قرب حمص ، وكبدها خسائر بلغت ٤٠٠٠ قتيل وجريح ٠٠٠ ودخل بلاد الاناضول حيث هزم الجيش التركي للمرة الثانية في بيلان في ٢٩ يوليو ١٨٣٢ وهرب قائده مع فلول قواته الى اطنه ٠٠٠ وواصل الجيش المصرى زحفه حتى التقى بحشد من القوات التركية بلغ ٦٠ر٠٠٠ يواجهون ٣٠ر٠٠٠ جندى مصرى في مدينة قونية ، وكانت النتيجة انتصارا باهرا للجيش المصرى الذى أسر القائد محمد رشيد باشا الصدر الاعظم ، وفتح الطريق بعد ذلك الى الاستانة ووصل الى كوهيه ٠

وكتب ابراهيم باشا الى والده بعد المعركة بتاريخ ٢٨ ديسمبر ١٨٣٢ يقول :

« انى اعتقد ان مشكلاتنا يجب ان تسوى في الاستانة لا في غيرها من الاماكن ٠ ففي الاستانة اذن يجب ان ندق اوتادنا لنملى ارادتنا ونحقق اهدافنا ٠٠ ويجب ألا ننسى ان الاتراك لم يعقدوا الصلح مع روسيا الا بعد أن وصلت جيوش القيصر الى ابواب الاستانة ٠ لذلك يجب علينا ان نسرع بالتقدم الى بروسه على الاقل ونحتل البلاد الواقعة على ساحل بحر مرمرة ونتخذها قواعد بحرية لتموين جيشنا ٠ ومتى دخلناها يصبح سهلا علينا نشر الاشاعات التي تؤدى الى اسقاط السلطان ٠ واذا عجزنا عن خلعه

---

(١٧) نفس المصدر ٠

(١٨) تاريخ الاقطار العربية الحديثة ٠٠ (لوتسكى) ٠

فاننا لن نعجز عن املاء شروط الصلح التي نريدها » (١٩) ٠

ولكن محمد علي كان له رأي آخر صرح به لقنصل روسيا في الاسكندرية بعد رؤيته لفزع الدول الكبرى من انتصاراته الخاطفة اذ قال له :

« انني لا اسعى للجلوس على عرش السلطان رغم علمي بما يدور في الاستانة واطلاعي على امكانات الباب العالي الحقيقية ٠ ان باستطاعتي أن أنزل السلطان عن عرشه بهجمة موفقة يقوم بها اسطولي ولكني لا احب الاعتداء على حقوق ابنائه لانهم خلفاء النبي ٠ وليس معنى هذا انني ارهب جيوش السلطان ٠٠ ان السلطان يتهمني بالعصيان وينسى انني استوليت على مصر بسيفي وان احدا لا يستطيع ان يخرجني منها الا بحد السيف ٠ انا تابع للسلطان ولكني في مصر بحق الفتح ٠ واذا كتب لي البقاء في الشام فسأظل تابعا له ودعامة لعرشه » ٠

وكان محمد علي ابعد نظرا اذ سرعان ما طلب السلطان محمود الثاني المعونة من روسيا في ٣ فبراير ١٨٣٣ فدخل اسطولها مياه البوسفور في ٢٠ فبراير وانزل فيلقا عسكريا من ٢٠ الف محارب ، واسرعت بريطانيا وفرنسا خوفا من تغلغل النفوذ الروسي الى مصالحة محمد علي مع السلطان الامر الذي تحقق في كوتاهيه بتاريخ ٤ مايو ١٨٣٣ عندما اصدر السلطان فرمانا يثبت فيه حقوق محمد علي في مصر والجزيرة العربية والسودان وكريت وتعيينه حاكما عاما على فلسطين وسوريا ، بعد ان كان قد اصدر في ٤ مايو ١٨٣٣ نطقا يعلن فيه خروج محمد علي عن الطاعة هو وابنه ابراهيم وعزله عن ولاية مصر ٠٠٠

ظل صلح كوتاهيه شفهيا ورفض السلطان ان يسجل احكامه في معاهدة خطية مما جعله بمثابة تجميد للمشكلة وليس حلا لها ٠٠ هدنة وليست صلحا ٠

كان السلطان يريد الانتقام من محمد علي ، ولكنه كان عاجزا وحده عن ان يفعل شيئا ، فاتجه الى روسيا التي ساعدته على الاحتفاظ بعرشه ، وعقد معها معاهدة (هنكار اسكلسي) في ٨ يوليو ١٨٣٣ فور جلاء القوات الروسية عن الارض التركية ٠

واثارت هذه المعاهدة التي عقدت لمدة ثماني سنوات ونصف وكانت احدى موادها السرية تشير الى تعهد الباب العالي باقفال الدردنيل بوجه كل اسطول

---

(١٩) السياسة الدولية في الشرق العربي ٠

(٢٠) نفس المصدر ٠

اجنبي يرى الروس فيه ما يهدد سلامة ممتلكاتهم الواقعة على البحر الاسود مع فتح المضايق امام الاساطيل الروسية في سيرها الى البحر الابيض المتوسط في حال وقوع حرب بين روسيا واحدى الدول الاخرى ٠

اثارت هذه المعاهدة عاصفة في السياسة الدولية لانها تمت تحت ضغط حقد السلطان على محمد علي وفي ذلك قال لمندوبي انجلترا وفرنسا بأن « الدوله العثمانية وعاصمتها لا قيمة لهما في نظره وانه مستعد للنزول عن عاصمته لمن يجيئه برأس محمد علي » (٢١) ٠

ماذا فعل محمد علي في الارض التي احتلها الجيش المصري ؟

كتب بالمرستون عن محمد علي في عام ١٨٣٣ قائلا « ان هدفه الحقيقي هو تكوين مملكة عربية تضم كل الاقطار التي تتكلم بلغة الضاد » ٠٠٠ وابلغ البارون بوالكمث الممثل الفرنسي لدى ابراهيم بأنه يرمي « الى بعث الوعي القومي العربي واحياء الامة العربية وغرس شعور وطني اصيل عند العرب » (٢٢) ٠ وسبق ان ذكرنا تصريحا لابراهيم قال فيه ان فتوحاته ستصل « الى حدود البلاد التي لا يتكلم فيها الناس ويتفاهمون باللسان العربي » ٠

وهكذا كانت القومية العربية تلهب خيال محمد علي وتدفعه الى تجريد الامبراطورية العثمانية من سكانها العرب ٠

وبذل ابراهيم في سبيل ذلك الى جانب خطواته الحربية خطوات اخرى اجتماعية ٠٠ فقام بعدد من الاصلاحات مثل التي قام بها والده في مصر لتصفية العسف الاقطاعي وتغيير اسسه ، فحرم الابتزاز واعفى الارض البكر من الضرائب وسكن البدو في الارض المناسبة ٠

زادت مساحة الارض المنزرعة في سوريا خلال العامين الاولين من ٢٠٠٠ الى ٧٠٠٠ فدان في حوران واستطاع الفلاحون ان يتاجروا بمحاصيلهم بدلا من تخزينها خوفا من الباشوات الاتراك وكبار الاقطاعيين الذين اجبرهم ابراهيم على الخضوع للسلطة المركزية ٠

واعاد ابراهيم تنظيم البلاد على اساس ست مديريات بنظام عصري مركزي ، كما اصلح نظم التعليم وانشأ المدارس الابتدائية في كافة انحاء سوريا ، والمدارس الثانوية في المدن الكبيرة ، وجعل كلوت بك مشرفا عليها طالبا منه غرس الوعي القومي العربي في نفوس الطلاب ٠٠٠ وانشأ ابراهيم

---

(٢١) السياسة الدولية في الشرق العربي ٠

(٢٢) تاريخ الاقطار العربية الحديث — لوتسكي ٠

ايضا اول دار للطباعة في لبنان (٢٢) ٠

وكان ابراهيم مثل والده محمد علي بعيدا عن التعصب الديني فحرر المسيحيين من القيود التي فرضها عليهم الباشوات الأتراك ٠

ولكنه رغم كل ما قام به محمد علي وابراهيم من اصلاحات في سوريا وفلسطين الا ان تجمعا معارضا بدأ يتحد ضده من الاقطاعيين الذين قهر نفوذهم ومن الفلاحين الذين بدأ يطبق عليهم قوانين التجنيد فقامت عدة انتفاضات من الفلاحين ضد التجنيد في فلسطين وفي مناطق الدروز ، وتعرضت القوات المصرية وابراهيم نفسه لاخطار شديدة ، تغلب عليها بعد مقاومة عنيفة ٠

وانتهز السلطان هذه الفرصة متذرعا بالاضطرابات ليعاود موقفه العدائي من محمد علي مستهدفا ابعاده عن سوريا لانه على حد تعبيره « غير اهل للحكم وعاجز عن تأمين الامن والراحة للاهلين » ٠٠٠ ولكن الامر كان يجاوز حدود قدراته لفقدان الباب العالي لهيبته وعجزه عن ارغام محمد علي عسكريا على الانسحاب ٠

ولكن تطورات السياسة الدولية ساعدت السلطان على اتخاذ موقف صريح ضد محمد علي ، فان فرنسا فشلت في انجاح المفاوضات بين السلطان ومحمد علي ، وانجلترا برزت في الميدان تستهدف تحطيم نفوذ فرنسا ووقف نمو النفوذ الروسي وانتصار محمد علي في وقت واحد ٠

كان محمد علي يخشى انجلترا ٠٠٠ ولم تكن الحكومة البريطانية من جهتها مرتاحة الى نجاح محمد علي والتقدم الزراعي والصناعي والعسكري الذى احرزه في مصر وبسطه لسيطرته على الجزيرة العربية وسوريا مما يجعل طريق الهند تحت رحمة رجل قوى منظم يقود قوة عسكرية هائلة ٠

ولعب بالمرستون وزير خارجية بريطانيا دورا خبيثا في تحقيق هذه الاهداف معتمدا على ضعف السلطان ٠٠ وقد وصف كارل ماركس هذا الرجل الداهية بقوله :

« انه محافظ من رأسه الى اخمص قدميه ، ألبس السياسة البريطانية نسيجا من الكذب والنفاق فكان في هذا خير ممثل للمحافظين وأصح ناطق باسمهم ٠ وكان ماهرا في صب الآراء والافكار الاقطاعية في قالب كلامي ديموقراطي ، وفي اخفاء ما في صدره من اطماع تجارية راسمالية وراء ستار الحرص على السلام والاستمساك الشديد بالقيم الروحية » (٢٤) ٠

---

(٢٣) السياسة الدولية .

(٢٤) السياسة الدولية .

وكان محمد علي قد استدعى قنصلي بريطانيا وفرنسا وابلغهما انه قرر اعلان استقلاله تمشيا مع سياسته الاصلاحية وتطور بلاده ، وان بقاء مصر وسوريا في حظيرة السلطان يتنافى والواقع السياسى والاجتماعى فى الشرق ... وكان قد سبق له حديث قاس مع القناصل سألهم فيه كيف تقبل دولهم استقلال الولايات المتحدة واليونان وبلجيكا وتأبى على مصر أن تستقل قائلا لهم « خبرونى ايها القناصل عن التاريخ الذى قرأتم فيه ان رجلا كان له من القوة والشأن مثل مالى فاستكفى بوضع التابع ولم يحطم الغير ليتحرر ويستقل » .

وكان بالمرستون يعتقد ان اى تصادم بين محمد علي والسلطان سيكون فيه القضاء على الجيوش العثمانية قضاء تاما فيتدفق الروس الى الاستانة ودمشق ويصعب اخراجهم منها ، كما ان انتصار محمد على لا بد ان يحمل انتعاشا للنفوذ الفرنسى ... ولذا عقد معاهدة تجارية مع تركيا عام ١٨٣٨ ، حولت بها الامبراطورية العثمانية الى مصدر تابع للدول الاجنبية يزودها بالمواد الاولية ، والغت احتكار الخزينة الدولية لمختلف انواع المواد الاولية .

ولكن السلطان محمود الثانى عندما شعر بمساندة الدول الاوروبية له (روسيا وانجلترا والنمسا وبروسيا) استعد للحرب بصورة محمومه وعبأ جيشا من مائة ألف جندى .

الحملة السورية الثانية :

عبرت القوات التركية الفرات فى ٢١ ابريل ١٩٣٩ وهاجمت قوات محمد على ولكنها منيت بهزيمة شديدة فى ٢٤ يونيو قرب نصيبين رغم ان القوات العثمانية كانت تحت ادارة القائد الالمانى المشهور (فون مولتكه) الذى اصبح فيما بعد القائد الاعلى للجيش البروسى فى عهد بسمارك .

اصبح الطريق مفتوحا للمرة الثانية امام ابراهيم باشا الى الاستانة وتوفي السلطان محمود بعد ستة ايام من هذه الهزيمة . واعتلى العرش ابنه عبد المجيد ... وانضم الاسطول العثماني كله بقيادة الأميرال احمد فوزى الى جانب محمد على .

ومع ذلك لم يتقدم ابراهيم باشا الى الاستانة ... واستجاب لرأى والده الذى اراد تفادى القيام بأى عمل استفزازى ضد الروس .

تردد محمد على فى فرض ارادته كما فعل بعد انتصاره فى المورة ... وكان عدد كبير من المفكرين الاوروبيين يرون أنه كان على محمد على ان

يعلن استقلاله بالقوة اثناء حرب المورة فتضطر الدول الى معاملة مصر على قدم المساواة مع اليونان . وكان من ابرز هؤلاء المفكرين الامير البروسي بوكلر ـ موسكو وهو عالم اثرى ، فكتب ان الدول الاوروبية ظنت واعلنت ان واجب الشرف قضى عليها بخوض معركة نافارين دفاعا عن حرية اليونانيين واستقلالهم ، وواجب الشرف يقضى علينا نحن بأن نسألها لماذا لم تنظر الى استقلال بلاد الفراعنة بالعين التى نظرت بها الى الحرية اليونانية . ان علماء الآثار ورجال التاريخ والجغرافيا لا يفرقون بين حضارة البلدين وحق كل منهما فى الاستقلال والحرية ، ولكن القوة العسكرية ليست بيدهم . ان راحة اوروبا وآسيا ومصلحة العلوم والفنون والحضارة أحق بالرعاية والاحترام من الغايات المادية . ولقد كان على محمد على ان يمضى الى هدفه غير متأثر أو متعثر بالاعتبارات الخارجية . واخشى ان ينطبق عليه قول حكيمنا شيللر « ان الفرصة التى أعطاكها الدهر فرفضتها لن تعيدها لك الابدية » .

وتحقق قول شيللر فعلا فضاعت الفرصة من محمد على ووقعت الدول الاربع مذكره الى تركيا تطالبها بعدم اتخاذ قرار نهائى وبدن مساعدتهم لها وان ترقب نتائج التعاون المشترك الذى اتخذ من قبلهم من اجل مصيرها (٢٥) .

وقامت فى فرنسا معارضة قوية ضد الرأى الذى بدأ يسود بتسوية الاوضاع فى الشرق على اساس اعادة سوريا الى السلطان دون تعويض محمد على .. وشنت الصحافة الفرنسية حملة شديدة على السياسة البريطانية التى استشعرت خطرها على مستقبل فرنسا فى البحر المتوسط وهم يحتلون أهم المراكز الاستراتيجية فى جبل طارق ومالطه وكورفو ويتحينون الفرصة للاستيلاء على الاسكندرية والسويس .

خطب الشاعر المعروف لامارتين فى الجمعية الوطنية الفرنسية فى اول يوليو خطابا كان له دوى عظيم فى المحافل السياسية قال فيه :

« اجل ان الدولة التركية تميل الى الانهيار . وكبار الرجال والعناصر الفتية والقوية ينفخون روح الرجولة فى الامبراطوريات الهرمة ويجددون لها شبابها . انظروا الى باشا مصر يبعث البلاد العربية فهل هو ابن سلطان . ان هو الا عبد متمرد . وهل فى هذا ما يحط من شأنه او من قيمته . هو الرجل الذى تتجسم فيه الشرعية الوحيدة فى الشرق الناهض . ولقد حقق المعجزات . هو رسول الحضارة الى الشرق وسيد مصر وبلاد

---

(٢٥) تاريخ الاقطار القومية الحديث - لوتسكى .

العرب وسوريا . ولو انكم لم تحولوا دون زحفه بعــد وصوله الى كوتاهيه لكان الآن في الاستانة رأس الامبراطورية يبعثها جديدة قائمة على انقــاض دولة بني عثمان » (٢٦) .

ومضى ما يقرب من عام كامل والدول الكبرى تتفاوض حــول مصير تركيا ومصر ... مؤتمر للسفراء ينعقد بصفة مســتمرة في لندن ... وفرنسا تنجح في مايو ١٨٤٠ في عقد اتفاقيه بين مصر وتركيا يمنح السلطان فيها محمد على حكما وراثيا في مصر وسوريا ، ولكن الدول الكبرى تعمــل على احباط هده الاتفاقية .

وتنشط بريطانيا في استفزاز قوة محمد على دون توريط قواتها التى كانت تعانى في الصين مما اجبرها على اجلاء الرعايا البريطانيين من الاماكن التى كانت تحتلها في ماكاو ، والاضطرابات عدن وهجمات البدو على الحاميــة البريطانية فيها ، وتدهور الحالة الداخلية في الهند .

اطلق البريطانيون الجواسيس والعملاء يشجعــون اللبنانيين على الثورة ضد ابراهيم باشا والامير بشير لزيادة الضرائب التى بلغت ثمانيــة ملايين وسبعمائة وخمسين الف قرش عام ١٨٤٠ بعد ان كانت لا تزيد عن المليونين ونصف المليون قبل مجيء الجيش المصري قبل ذلك بثماني سنوات، وصدور قانون الخدمة العسكرية الاجبارية عــلى جميع اللبنانيين مســلمين ونصارى ، وكذلك استخدام الأمير بشير للسخرة .

وعندما فشلت ثورة لبنان التى كانت ضــعيفة التنظيم حــاول البريطانيون خلق المتاعب لمحمد على بتحريض بحارة الاســطول العثماني اللاجيء الى الاسكندرية على رفع رايه العصيان والعودة الى الآستانة .

وساءت العلاقات بين محمد على والقنصل البريطــاني هودجز الذى قال عند تقديم أوراق اعتماده بأن بريطانيا عازمة عزما أكيدا عــلى مواصــلة سياستها القائمة على سلامة الامبراطورية العثمانية ووحدتهــا مما يحمل شبهة اعلان الحرب على محمد على الذى انصرف الى تقوية دفاعه وتوســيع استعداداته العسكرية ، فبدأ بتشكيل فيالق جديدة ، وبناء تحصينات قــوية على الشواطيء وفى داخل القطر ، وجمع الضرائب واستنفار الرجال .فأقلقت استعداداته قناصل الدول في مصر وســوريا فكتب هودجز الى بالمرســتون في ٢٢ فبراير ١٨٤٠ « ان الدول الاوروبية تخطيء خطأ فادحا اذ تعتقــد ان محمد على زعيم عصابات من الافارقة السود الذين لا معنى عندهم للقيــادة ولا قيمة للنظام ، فهو في الحقيقة رئيس لدولة غنية بالرجال والاموال وقائد

---

(٢٦) السياسة الدولية .

لجيش مدرب على احدث الطرق الاوروبية • وهو ينظر بعين ملؤها الحذر الى تنكر أوروبا لنهضته وتجهمها له ويستعد للقائها • وقد تلمست في نشاطه ، في كل نواحي هذا النشاط ، فكرة يقظة وارادة منظمة كنت بعيدا كل البعد عن الاعتقاد بوجودهما عنده » • ولكن بالمرستون كان مصمما على القضاء عليه فكتب الى هودجز يقول له بكل صراحة ان الدول الاوروبيه قد اقررت استعمال القوة ضده اذا لم ينفذ مقرراتها واقام على موقفه من السلطان •

كان تفكير محمد علي سليما في استعداده لمواجهة بريطانيا بالقوة ، ولكن حيل بالمرستون لم تنضب فركز على النشاط الدبلوماسى ، ودفع عجلة المفاوضات بين السفراء في لندن حتى نجح في الحصول على توقيع النمسا وبروسيا وروسيا وتركيا على اتفاقية لندن في ١٥ يوليو ١٨٤٠ وهي الاتفاقية التي قررت مصير محمد علي •

اعتبرت اتفاقية لندن عام ١٨٤٠ نصرا كبيرا للدبلوماسية البريطانية ، والتي وجهت الى محمد علي انذارا في ١٩ اغسطس بشروط الاتفاقية وهي :

١ ــ تسلم محمد علي مقاليد مصر كملك وراثى •

٢ ــ اناطة ادارة فلسطين (ولاية عكا) به كملك عليها مدى الحياة •

٣ ــ اعادة جميع الممتلكات الاخرى الى السلطان •

٤ ــ في حالة عدم موافقة محمد علي على الشروط المقترحة خلال عشرة أيام يحتفظ بمصر وحدها •

٥ ــ ان لم يوافق خلال عشرين يوما على هذه الشروط يعمل على عزله عندئذ بجهود الحلفاء المشتركة •

رفض محمد علي الانذار ، واعلن انه ينوى ان يبقى بالسيف ما ربحه بالسيف ، وبدأت الحرب بنزول قوات بحرية بريطانية ونمسوية مشتركة على شواطىء لبنان وانتهت بسقوط بيروت واللاذقية والاسكندرية وعكا وتهديد الاسطول البريطاني بضرب الاسكندرية •

واضطر محمد علي الى التوقيع على الاتفاقية يوم ٢٧ نوفمبر ١٩٤٠ تحت فوهات المدافع البريطانية بعد ان اقتصرت مساعدة فرنسا حليفة مصر على الامداد بالاسلحة والتأييد المعنوي ، متحاشية دخول حرب أوروبية ضد روسيا وانجلترا في وقت واحد ••• فتركت مصر وحدها في كفة الاقدار •

أصدر محمد علي مرسوما بالجلاء عن سوريا وفلسطين ، واضطر ابراهيم باشا للانسحاب في ظروف صعبة عبر السهول والصحاري الاردنية

فلم يصل من قواته التي بلغت ٦٠٫٠٠٠ جنــدى مصرى الا ٢٤٫٠٠٠ وهلك الباقون من العطش والجوع والبرد والمرض وعجمات العرب عليهم ٠

تمت تسوية الموقف في اول يونيو ١٨٤١ باصدار مرسوم سلطاني يحتفظ فيه محمد علي ضمن ممتلكاته الوراثية بمصر والسودان مع إعادة جميـــع الاراضي الباقية ، وانقـــاص عـدد الجيش ليصبح ١٨٫٠٠٠ فقط مع حرمان محمد علي من حق تعيين اللواءات في جيشه او بناء السفن الحربية ، مـــع اعترافه بأنه تابع للسلطان ، يتعهد بدفع جزية كبيرة الى خزينته ٠

وهكذا تحالفت البرجوازية الاوربية وخاصـــة الانجليزية لضرب مصر التي حقق فيها محمد علي انجازات هائله في ميـــدان الصناعة والزراعـة والثقافة والحرب الحديثه ٠٠٠ وضعفت تبعية مصر الشكلية لتركيا لتقترب وتقع في دائرة النفوذ البريطاني ٠

لم يكن محمد علي مثلما حاول لامارتين الشـــاعر الفرنسي ان يصـــف صورة السيد في الشرق مظهرا الخلاف بينها وبين صـــورة الســـيد الذي يحكم في الغرب عندما وقف خطيبا امام الجمعية الوطنية الفرنسية قائلا :

« في الشرق لا وجود للنظم والاجهزة بمفهومها الصحيح ولا اثر للتقاليد السياسيه ٠ ولا وجود فيه الا لسيد من ناحية ولعبيد من ناحية اخـــرى ٠ والرجل الكبير فيه ليس سوى شخصية او حدث ، بل هو اشـــــبه بنجم يتلألأ لحظة في ظلمات البربرية ٠ هو رجل يقوم بأعمال كبيرة يســـخر لها آلافا من الناس الذين يحكمهم ولكنه لا يغير شيئا في مستوى هـــذا الشعب ولا يؤسس دولة وطيدة الاركان ، ولا يخلق اجهزة او يضـــع قوانين ، فاذا غادر هذه الدنيا طوى عبقريته كما يطـــوى البدوى خيمته وتوارى معها تاركا المكان خاليا كما كان قبل قيامه » ٠

لم يكن محمد علي مثل البدوى الذى يطوى خيمته ويغـــادر الارض بلا اثر ٠٠٠ فانه أقام في مصر نظام اقتصـــاديا واجتماعيا وسياســـيا انتكس بعد موته ولكنه لم يندثر ٠

كان محمد علي قد وضع اساسا سليما لاقامة بناء ينفرد به المصريـون ولا يخضعون فيه لسلطة قوة خارجية عنهم ٠

وضعت اتفاقية لندن نهاية لحكم عصرى متحضر امتد ما يقرب من ٤٠ عاما استطاع فيها أن يستنفد جانبا من طاقات الشـــعب المصرى ، ويتيـــح الفرصة لابنائه في مجالات التعليم والثقافة والحرب ايضا ٠

وكتب كارل ماركس قائلا (ان محمد علي كان الشخص الوحيد الذى كان في قدرته تحويل تركيا من العمامة المفتخرة الى راس حي حقيقي) ٠

الفصل الثانى

الامير الاى عرابى ثائرا وقائداً

(السلطة التى انمتع بها الآن لم أقم باغتصابها
بل قلدنى اياها الشعب) .

احمد عرابى

أثر الاستسلام على قدرة محمد على العقلية وهو فى الواحـــدة والسبعين من عمره فتنحى عن ادارة شئون الدولة لابنه ابراهيم باشـــا الذى ادارهـــا فى الاربعينيات حتى اصبح حاكم مصر الرسمى عام ١٨٤٨ الا انه توفى بعد ثلاثة شهور فقط فى ١٠ نوفمبر ولحق به محمد على الذى مات عن ثمانين عاما فى ٢٠ اغسطس ١٨٤٩ .

تولى عباس باشا الحكم فى ٢٤ ديسمبر ١٨٤٨ ومحمد على مايزال على قيد الحياة ...

وانحسرت خلال حكمه منجزات محمد علي، لانه كان معاديا للتطـــور نفورا من الحضارة الاوروبية ، منجذبا الى الســـلطنة التركية ... فأغلق المصانع والمدارس وهدم ما بنى من القناطر الخيرية ... وخضع لتعليمـــات الانجليز خضوعا تاما . واستند فى حكمه الى كبار الاقطاعيين الذين تكونوا فى عهد محمد على ، واضاف عباس لهم مزيدا من الارض ، وكان هو نفســـه اكبر مالك فى مصر .

منح عباس الانجليز امتياز مد السكة الحديد من الاسكندرية الى القاهرة والسويس لتسهيل تجارتهم مع الهند ... واصبحت انجلترا هى الدولة الاولى فى التعامل التجارى مع مصر . فى اواخر الاربعينيات كان ربع الاستيراد منها وثلث الصادرات اليها .

ووصل الانحسار الرجعى فى مصر الى صفوف الجيش اساسا فانقص عدده عما حدد له حتى هبط فى وقت ما الى ٥٠٠٠ جندى ، حوله كما كان فى عهد بكوات المماليك الى حرس خاص له ... ومع ذلك كانت نهايته القتل بواسطة حرسه والاعلان فى بيان رسمى صدر فى يوليو ١٨٥٤ بأنه مات بالسكتة القلبية .

ولم يكن سهلا على عباس ان يرجع بمصر التى تألقت باصلاحات محمد على الى الانظمة التركية القديمة ...

كانت مصر قد بعثت فيها القوى الانتاجية ، واتضحت العلاقات الرأسمالية وتكونت البرجوازية ، وارتبطت بالسوق العالمية .

وفى ١٤ يوليو ١٨٥٤ تولى الحكم سعيد باشا احد اولاد محمد على الصغار وكان مختلفا فى طبيعته عن عباس باشا ... تميز بتفكير حر واعتبر نفسه مصريا الا ان ميوله كانت غربية ... منح صديقه فرديناند دى ليسبس امتياز شق قناة السويس بعد ثلاثة شهور فقط من حكم مصر .

كانت بعض شروط الامتياز شديدة الاجحاف بمصر التى تعهدت بتقديم اربعة اخماس العمال المطلوبين للحفر مجانا ، والذين بلغ عددهم بصفة مستمرة ما بين ٢٥ الى ٤٠ الف فلاح ، عملوا فى سخرة مطلقة وتحت ظروف رهيبة القسوة ، فمات منهم خلال العمل ٢٠ الفا ، شيدوا بحياتهم وعرق زملائهم اضخم مشروع للبرجوازية الاوروبية فى القرن التاسع عشر .

وفى نفس الوقت حرم سعيد باشا نظام وتجارة واستيراد الرقيق ، وحرر العبيد الذين كانوا يعيشون فى مصر ... واعطى للفلاح حق تملك الارض ، وحرية زراعة وبيع المحصولات الزراعية بعد ان الغى نظام الاحتكارات وقام بتصفية الجمارك الداخلية .. وقد كون هذا الوضع ظروفا ملائمة لتطور العلاقات الرأسمالية فى القرية حيث اتيح للتجار واثرياء الفلاحين شراء الارض مما نقل مساحات كبيرة الى المرابين والرأسماليين الاجانب .

وفى عهد سعيد اصبحت اللغة العربية هى اللغة الرسمية الوحيدة فى مصر .

وكان سعيد باشا مع ضعفه وتناقضاته يحب مصر حبا عميقا ، ويتحمس للمصريين ، وانعكس ذلك على الجيش اساسا ، فأعاد له صبغته

الوطنية ، ونجح في تغيير بعض القيود التي فرضت على الجيش عـام ١٨٤١ فحصل في عام ١٨٥٦ على موافقة من البـاب العالى بزيادة الجيش المصرى من ١٨ الفا الى ٣٠ الف جنـدى ، وكان يقضى معظم وقته مع الجيش ، يقدم لجنوده جيد الطعام ، ويوفر لهم افخر الملابس الزاهيـة ، ويشـجع المصريين على دخـول مدارس الجيش التي اعاد فتحهـا ٠٠ يقـول عرابى في مذكراته ان سعيدا أهداه تاريخ نابليون بالعربيه طبع بيروت وهـو بادى الغيظ لتمكن الفرنسيين من التغلب على البلاد المصرية ٠

وسن قاعدة جديدة تسمح بترقى صـف الضباط والضباط المصريين الى رتب كبار الضباط ٠٠٠ وتسر بذلك نهائيا الحاجز الذى كان يسـد طريق وصول المصريين الى قيادة الجنود لاول مرة في تاريخ مصر الحديث ، وفي نفس الوقت مهد الطريق لثورة حقيقية في المجتمع المصرى ٠

وصل الى رتبة البكباشي ـ المقدم ـ في عهده ضابطان مصريان ، همـا احمد عرابى وعبد العال حلمى ٠٠ ووصل الاقباط كذلك الى رتب الضـباط لاول مرة ٠

واحمد عرابى ولد عام ١٨٤١ ابنا لشيخ بلد قرية (هـرية رزنة) بالشرقية ، تعلم القراءة والحساب على يد صراف قبطى ثم انتقـل الى الأزهر ومنه الى الجيش ، حيث سـاعده تعليمه وزيادة عـدد الجيش على سرعه الترقى حتى اصبح ملازما عام ١٨٥٨ وبكباشى وياورا لسعيد عام ١٨٦٠ ٠

ولكن احمد عرابى لم يواصل ترقياته السريعة في عهد اسماعيل الذى اقتصر منذ تولى الحكم بعد سعيد عام ١٨٦٣ على ترقيه الضـباط الالبانيين والشراكسة الى المناصب القياديه ، وابعاد الضباط المصريين الى المناصـب الثانوية ، مما احدث خلافـا في صفوف الجيش بين العنـاصر الوطنيـة الديمقراطية من الضباط الذين كانوا يسمون انفسهم (الفلاحين) والآخرين الذين لقبوا باسم (الشراكسة) وزادت حدة التناقضات بتوزيعه خمسمائة فدان لكل لواء ، ٢٠٠ فدان لكل اميرالاى ١٥٠ لكل قائمقـام ٠٠٠ ومعنى هذا حرمان المصريين من هذه الهبات ٠

ومع هذا لم يكن عهد الخديوى اسماعيل يمثل انحسـارا في تطـور الجيش ٠٠٠ العكس هو الصحيح ٠

اتاحت الفرمانات التي حصل عليها من الباب العالى فرصـة كبيرة لتطوير الجيش والمجتمع ايضا ٠

وصل الجيش في السـبعينيات الى ثمانين الفا ، وارسل ١٥ فرقة عسكرية الى مولدافيا وكريت لمعـاونة الجيش العثمانى في القضـاء على ثوراتها ، وكما حضر الضباط الفرنسيون بعد هزيمة نابليون للعمـل في الجيش المصرى ، حضر ايضا عدد من الضباط الامريكيين بعد انتهاء الحرب الاهلية الامريكية (١٨٦١ ـ ١٨٦٥) ٠

وقد احتجت انجلترا وفرنسا على ذلك ولكن اسماعيل قابلهما بالسخرية وعدم الاكتراث ٠

كان الخديوي اسماعيل يفضـــــل الضباط الامريكيين لان الولايات المتحدة الامريكية في ذلك الوقت كانت بعيدة عن الاطماع الاستعمارية ٠٠٠ وخلال الفترة من ١٨٧٠ الى ١٨٧٩ كان هناك ٥٤ ضابطا امريكيا يخدمـــون في الجيش المصرى ، احدهم في رتبة لواء واثنان في رتبة اميرالاى ، ولكنهم سرحوا جميعا عام ١٨٧٩ كنتيجة للازمة المالية الطاحنة ، ولم يبق الا اللـواء ستون باشا الذى كان رئيسا لهيئة أركان الحرب من ١٨٧٠ الى ١٨٨٢ ٠

ولم يكن الضباط الامريكيون يعينون في قيـــادة الوحـــدات ، ولكنهـم كانوا يتولون مناصب في الرئاسات وفي الاسلحة المساعدة ٠٠٠ قام البعض منهم بأعداد خرائط حربية لمنابع النيل وغرب السودان وتشاد ٠

ونتيجة لزيادة عدد الجيش المصرى ، وصدور قرار بتعيين ضـــباطه من خريجي مدارس الجيش فقط ، زادت نسبة الضـــــباط المصريين حتى اصبحوا الاغلبية التى ترأسها وتتحكم فيها الاقلية الشركسية ٠٠٠ كمـــا انتشر التعليم في الجيش بحيث لم يكن فيه سوى ٤٢ جنديا اميا فقط (٢٧)٠

أحمد عرابي الذى وصل الى رتبة البكباشي في عهد سعيد ٠٠ أمضى ١٩ عاما بلا ترقيه خلال حكم اسماعيل ، ولم يصل الى رتبة الاميرالاى الا بعد خروج اسماعيل في صيف ١٨٧٩ ٠

وتألفت في الجيش المصرى عام ١٨٧٦ اول (جمعية سرية) في تاريخه الحديث برئاسة على الروبى للدفاع عن مصالح الضباط الوطنيين باســـم (مصر الفتاة) وزاد نشاطها عقب انضمام احمد عرابي لها بعـــــد حرب الحبشه ٠ التى اتهمه الاتراك خلالها ظلما بالرشوه ، عندما كان مأمور الحملة في (مصوع) واصبح عرابى بجرأته وفصاحته الرئيس الفعـــلى لهذه الجمعية عام ١٨٧٧ ٠

واختبرت الاحداث قوة الضباط الوطنيين في مواجهة السلطة ، عنـــدما تأخر صرف مرتبات الضباط ما يقرب من ١٥ شـــهرا ، ثم سرت اشـــاعة بنية رئيس الوزراء الارمنى نوبار باشا ووزير ماليته ريفرز ويلســـون الذى عينته الحكومة البريطانية لتســـوية الديون بتسريح ٢٥٠٠ ضابط مصرى ، وتخفيض رواتب الباقين الى النصف ٠

واقام الضباط المصريون بقيادة لطيف سليم ناظر المدرســـة الحربية بأول مظاهرة في التاريخ يـــوم ١٨ فبراير ١٨٧٩ وحاصروا نوبار وويلســـون

---

(٢٧) روزنشين ــ الثورة العرابية / صلاح عيسى ٠

امام وزارة المالية وانهالوا عليهما ضربا ، حتى حضر الخديوى شخصيا لانقاذهما ، غير انه لم يتخذ اى اجراء مضاد ، نظرا لعدم تحمسه للاثنين ... ومع ذلك فقد قدم احمد عرابى وعلى الروبى ومحمد النادى الى المحاكمة بتهمة تدبير التمرد واكتفى المجلس العسكرى بتوبيخهم رغم عدم اشتراكهم فى المظاهرة وهذا دليل على ان حركتهم كانت تحت الضوء ... وقد دفع ذلك عرابى الى التفكير فى تكوين جمعية لخلع الخديوى اسماعيل الذى اقترض ٤٠٠٠٠٠ر٤٠٠ جنيه من بيت روتشيلد لدفع المرتبات المتأخرة ، وأقال نوبار باشا فى ٩ مارس وعين ابنه توفيق رئيسا للوزراء.

وكانت هذه الحادثة بمثابة الاكتشاف الجديد ، لقوة ضباط الجيش الوطنيين الملقبين باسم (الفلاحين) ، اذ ادركوا امكانية خوضهم النضال ضد الظلمة الاوروبيين ، واشتهرت بينهم اسماء احمد عرابى وعلى الروبى وعبد العال حلمى وعلى فهمى ومحمود فهمى وغيرهم من الضباط الوطنيين .

ولم تكن حركة الضباط منعزلة عن الجماهير .. بل كانت مرتبطة بها أشد الارتباط .. وكان احمد عرابى يعتبر نفسه من اتباع جمال الدين الافغانى الذى استقر فى مصر عام ١٨٧١ وابعد عنها فى سبتمبر ١٨٧٩ ، كما برز بعض المعبرين عن ايديولوجية الحركة مثل الشيخ محمد عبده واديب اسحق الكاتب والصحفى السورى الذى استوطن مصر عام ١٨٧٦ وعبد الله النديم وسليم نقاش وابراهيم اللقانى وغيرهم من المثقفين .

ولم يقف ارتباط حركة الضباط بالقوى السياسية عند هذا الحد بل وصلت اتجاهات المعارضة الى (مجلس شورى النواب) الذى كان مشكلا من أصحاب الاراضى ورجال الدين ، والذى تحولت جلسته الدورية فى يناير ١٨٧٩ الى ساحة لمهاجمة (الوزارة الاوربية) والتى اصبح الهجوم عليها اساسا لكافة الاتجاهات الوطنية فى الجيش وخارج الجيش .

وفى هذه الفترة حدث تجمع العناصر ـ الشراكسة الاذكياء والبرجوازية الزراعية فيما عرف باسم (الحزب الوطنى) بقيادة محمد شريف باشا ... ورغم ان جمعية (مصر الفتاة) كانت تعتبر اكثر تقدما الا انها تحالفت معه واندمجت فيه .. ولكن الحزب الوطنى فى تشكيله العام كان قاصرا عن الوعى بابعاد التناقضات التى تعيش فى الجيش ومدى ما يمكن ان تؤدى اليه .

وبدأت تعقد الاجتماعات ضد (الوزارة الاوروبية) علانية ، وترسل العرائض للخديوى من المدنيين والعسكريين مطالبة باقالتها . وثمة اختلاف فى عدد الموقعين على عريضة المطالب وعلى تصنيفهم ، يذكر مراسل التيمس ان هذه العريضة قد وقعها سبعون من العلماء على رأسهم شيخ الاسلام وبطريرك الاقباط وحاخام اليهود بالنيابة عن طوائفهم ، وستون من

الباشوات ومثلهم من البكوات واربعون من الاعيان وكثير من ضباط الجيش. ومعنى هذا أن الموقعين على البيان هم ٣٢٠ غير ضباط الجيش . بينما يذكر الاستاذ الرافعي ان عدد الموقعين جميعا ٣٢٧ منهم ٦٠ من اعضاء مجلس الشورى و ٦٠ من العلماء والهيئات الدينية و ٤٢ من الاعيان والتجار و ٧٢ من الموظفين والعاملين والمتقاعدين و ٩٣ من الضباط . ويقل العدد فى مصادر اخرى الى ٢٠٠ عضو فقط منهم ٦٢ من رجال الدين و ٤١ من كبار الملاك الزراعيين والتجار و ٦٠ من اعضاء مجلس الشورى و ٣٧ من الضباط (٢٨) .

وشرع مجلس النواب يعد خطة مالية خاصة بخلاف خطة ويلسن .. وقد ساعد المناخ السياسى على بلورة الاتجاهات السياسية فى الجيش كما ربط بين الضباط والمدنيين ... وسارع فى خلق علاقة وثيقة بين المطالب المهنية والسياسية .

وجدت هذه الاتجاهات الوطنية صدى عند الخديوى اسماعيل الذى عقد اجتماعا يوم ٧ ابريل ١٨٧٩ فى قصر عابدين اعلن فيه أن الاستياء قد بلغ ذروته فى البلاد وان الامة تطالب بتاليف وزارة مصرية خالصة وقال « انى اعتبر واجبى المقدس كرئيس دولة وكمصرى ان اراعى وجهة نظر بلادى وان أحقق أمانى أمتى الشرعية بصورة تامة » .

واعلن الخديوى اسماعيل عزل الوزارة الاوروبية وتاليف حكومة مصرية برئاسة شريف باشا وزير العدل وكان من كبار اصحاب الاملاك وذوى الافكار الوطنية الحرة .

أثار مواقف الخديوى اسماعيل ثائرة الدول الاوروبية فاخذت تصفه بأنه (طاغية شرقى) بعد ان كانت تثنى عليه باعتباره حاكما مثقفا تقدميا اثناء استدانته للقروض الخارجية .

وقدم القنصل البريطانى انذارا باسم اللورد سالسبورى وزير الخارجية رفضه الخديوى اسماعيل وتبعه انذار آخر من حكومتى المانيا والنمسا ثم وصل انذار نهائى فى ١٩ يونيو ١٨٧٩ قدمته انجلترا وفرنسا تطلبان فيه التنازل عن العرش ، تحت تهديدهما بالالتجاء الى السلطان التركى وخلعه بالقوة .

رفع اسماعيل الموقف بنفسه للسلطان فكانت النتيجة وصول برقية من السلطان يوم ٢٥ يونيو بعزله وتعيين ابنه توفيق خديوى على مصر ... ورحل اسماعيل وقد ودعته مظاهرة شعبية قدرت موقفه الاخير فى تاليف حكومة وطنية وانتهاج سياسة مستقلة .

---

(٢٨) الثورة العرابية ـ صلاح عيسى .

وطويت صفحة الخديوى اسماعيل الذى يعتبر رائد التطور الرأسمالى فى مصر ، والذى حقق فى المجتمع انجازات كبيرة شملت الصناعة التى تقدمت فى مجالات النسيج والتسليح وصناعة السكر وبناء السفن التى وصلت باسطول مصر التجارى الى مستوى تفوقت به على الاسطول الفرنسى من الناحية الفنية .. كما ان نسبة البواخر الى السفن الشراعية كانت ٦٠٪ فى مصر ، ٢٥٪ فى انجلترا ، ١٥٪ فى فرنسا ... وسبقت مصر فى مجال السكة الحديد عددا من الدول الرأسمالية المتطورة ففى عام ١٨٧٦ مثلا كان فى فرنسا ٣٧ر٥ كيلو متر سكة حديد لكل ألف كيلو متر مربع من الارض بينما وصلت فى مصر الى ٥٥ كيلو متر .

وارتفع عدد المدارس فى عهد اسماعيل من ١٨٥ مدرسة الى ٤٦٨٥ كان يدرس بها حوالى مائة الف تلميذ وانشئت الاوبرا ودار الكتب والمتحف والجمعيات العلمية وانتشرت الصحافة المتطورة .

كانت سياسة الخديوى اسماعيل الاقتصادية هى السبب الرئيسى الذى أدى الى وقوعه فريسة لديون الدول الراسمالية التى اطاحت بعرشه .

وكانت سياسته فى الجيش ايضا سببا فى وقوف الضباط المصريين منه موقف الجفاء ، اذ ادركوا انه لا يساندهم مساندة صريحة ، وانما يستخدمهم لاغراضه ... نبهه جعفر مظهر حكمدار السودان الى ضرورة ارسال ضباط مصريين بدلا من الضباط الاجانب لاكتشاف مناطق خط الاستواء ، ولكنه ارسل صمويل بيكر ثم عين جوردون خلفا له فى حكومة خط الاستواء ، واخيرا عينه حاكما عاما فى السودان ترضية لانجلترا وبناء على توصية البرنس اوف ويلز ولى عهد انجلترا .

وعقب مظاهرة فبراير ١٨٧٩ اصدر امرا بنقل احمد عرابى الى الاسكندرية مغضوبا عليه ... مما جعل الضباط يجتمعون مرتين ويفكرون فى عزل اسماعيل/والتخلص من اسرة محمد على واعلان الجمهورية كما روى احمد عرابى .

وكان المصدر الرئيسى الذى تشعبت منه هذه المظاهرة هزيمة الجيش المصرى فى الحبشة عام ١٨٧٦ عندما ارسل الخديوى اسماعيل حملة مؤلفة من ٢٠ الف مقاتل تحت قيادة راتب باشا التركى والجنرال الامريكى لورنج واركان حربه ... وحدثت خلافات فى القيادة العليا بين الاثنين انتهت بهزيمة منكرة للجيش كلفت الدولة اكثر من مليون جنيه ، وبدرت فى الشعب والجيش شعورا بالاستياء العام .

وكانت هذه الحملة هى الاخيرة فى سلسلة الحملات التى قام بها الجيش المصرى خلال ثمانين عاما تقريبا خارج وادى النيل (مصر والسودان)

وتحققت فيها انتصارات كبيرة ، اثبت فيها الفلاح المصرى أنه محارب شجاع وصبور متى توافرت له القيادة القادرة .

وكان وصول المصريين الى مراكز القيادة فى الجيش ، وتوافر الاغلبية العامة بين الضباط لهم ، وتوحيد الافكار داخل الجيش وخارجه بين العناصر الوطنية ، دافعا الى اتخاذ مواقف وطنية أكثر جرأة وصلابة ضد الخديوى توفيق الذى بدأ حكمه بعد والده باتخاذ خطوات رجعية متهاونة ... رفض التوقيع على لائحة الدستور التى اعدها شريف باشا ، واعاد الرقابة المالية الثنائية ، ثم أقال وزارة شريف باشا واستبدله برياض باشا الذى كان شديد الخضوع للمسئولين البريطانيين ، فمارس المراقبون الاجانب واعضاء (لجنة دين الخديوى) وظائف الحكومة الفعلية فى البلاد .

وبدأ احتكاك الضباط بالخديوى يظهر فى صورة عملية بعد الغاء فرمان ١٨٧٣ الذى حصل عليه اسماعيل ، فتقرر حرمان مصر من عقد قروض خارجية الا بعد موافقة الباب العالى ، وخفض عدد الجيش المصرى مرة ثانية ليكون ١٨ الف شخص فقط . فأحيل عدد كبير من الضباط الى الاستيداع ، ووقعوا فى ضيق مالى شديد .

عادت القسوة فى معاملة الفلاحين لسوء جشع المرابين الاجانب ... وتأخر صرف مرتبات الضباط عدة مرات .. وتربع الشراكة تماما فى المراكز القيادية التى أبعد عنها الضباط المصريون .

وحدث الصدام الاول بين الجيش والحكومة عندما أعد عثمان رفقى وزير الحربية فى وزارة رياض باشا مشروعا يقصر مدة التجنيد على اربع سنوات فقط ، الامر الذى يحرم ترقية الجنود الى ضباط ... او بمعنى أصح يحرم المصريين من ذلك ... لان المدة المقررة للخدمة لا تكفى لكى يصل العسكرى الساذج الخالى من المعارف العسكرية الى درجة تؤهله لان يكون ضابطا ، فلا بد أن ينحصر تعيين الضباط فيمن ينال المعارف العسكرية بالتحصيل فى المدارس الحربية لا غير . وهى حجة واهية لان المدارس الحربية فى ذلك الوقت كانت فى مستوى عادى ، ولم تكن تقدم معارف عسكرية ذات قيمة فضلا عن ان دخول العناصر المصرية اليها لم يكن ميسورا . وكان الهدف الحقيقى من أصدار القانون هو حرمان المصريين حرمانا تاما من الوصول الى مراكز قيادية فى الجيش .

وتقدم احمد عرابى قائد الكتيبة الرابعة بالجيش وعلى فهمى قائد الكتيبة الاول بعريضة الى رئيس الوزراء يطلبان فيها التحقيق فى الترقيات

الاخيرة ، وعزل عثمان رفقى وزير الحربية لانه فصل بعض الضباط دون تحقيق ٠

واجتمع مجلس الوزراء برئاسة الخديوى يوم ٣٠ يناير ١٨٨١ واصدر قرارا باعتقال احمد عرابى وعلى فهمى وعبد العال حلمى ومحاكمتهم لان عثمان رفقى اعتبرها (حركة فلاحين شيالين بالمقاطف) ٠

استدعى الضباط الثلاثة الى وزارة الحربية يوم اول فبراير ١٨٨١ حيث كان كل شيء معدا للتنكيل بهم ٠٠٠ المحاكمة الصورية والاحكام المسبقة ٠٠٠ ولكن قرار مجلس الوزراء لم يكن سرا بالنسبة لهم ، فاتخذوا حيطتهم وابلغوا وحداتهم بأنهم اذا تأخروا عن العودة اكثر من ساعتين فعليهم التحرك مع آلاى مشاة آخر فى طره لانقاذهم ٠

وما ان بدأت تمثيلية المحاكمة حتى وصلت قوات المشاة المصرية الى الوزارة فطوقتها ، وهرب عثمان رفقى من الشباك ، واقتحم الجنود قاعة المحاكمة وحملوا قادتهم على الاعناق ، وتوجهوا فى مظاهرة الى قصر الخديوى حيث طالبوا بعزل عثمان رفقى فورا ، واقرار حقوق متساوية فى الجيش ٠

وتلفت الخديوى حوله فلم يجد أحدا يسانده ، فعزل وزير الحربية فورا وعين بدلا منه محمود سامى البارودى الذى كان شاعرا ووطنيا ديموقراطيا من الحزب الوطنى انجذب بعد ذلك الى جناح عرابى اكثر من جناح شريف باشا ٠٠٠ وصدر قرار خديوى بتشكيل لجنة خاصة للتحقيق فى ترقيات عثمان رفقى وعين فيها احمد عرابى ٠

كانت هذه هى المظاهرة العسكرية الثانية بعد مظاهرة الضباط ضد نوبار باشا ٠٠٠ ولكنها كانت قاصرة أيضا على مطالب مهنية محدودة،ولم تتجاوز ذلك الى مطالب وطنية اخرى فلم يعترضوا على صلاحيات المراقبين الاجانب وتركوا رياض باشا فى منصب رئاسة الوزراء ٠

يرجع ذلك الى السرعة التى تمت بها كرد فعل دون تدبير ٠٠٠ والى عدم اكتمال تنظيم الحزب الوطنى من المدنيين والعسكريين والاتفاق على برنامج واضح لهم ٠

وكانت هذه المظاهرة تعنى فقدان الخديوى لثقته فى ضباط الجيش وتربصه بهم وتدبيره الخطط للتنكيل بهم ٠

نظرة الخديوى توفيق للجيش كانت ترى فيه حاميا للطبقة السائدة ووظيفته محدودة فيما رسم له وقد عبر الخديوى عن ذلك فى خطاب القاه فى احتفال أقيم فى ١٢ فبراير ١٨٨١ عقب الهجوم على قصرالنيل وحضره

جميع الضباط الكبار في الجيش ، وفي هـذا الخطاب اعلن الخديوى اسفه لما حـدث في اول فبراير ، وعفوه عنه ، ثم اكد للضباط انه « يلزمكم ألا تشـتغلوا من الآن فصاعدا بشيء خارج عن حـدود وظائفكم »ذلك ان « العسكر ليس لهم وظيفة سوى التمسك بالقوانين الجهادية والسـعى في اداء واجباتهم العسكرية والامتثال لولى امرهم » • وان اكمل الصـفات العسكرية هي « الاستقامة والامتثال في كل الامـور والاحوال » • وكرز رياض باشا ـ رئيس الوزراء اذ ذاك ـ هذه الافكار ، فقـد خاطب الضباط قائلا : « أنتم روح الضبط والربط وأنتم قوة الحاكم وآلته المنفـذة ، فاذا بدأكم الحاكم بحسن الالتفات ونظـر اليكم بعين الرأفـة والرحمـة فعليكم وجوبا كما اخذتم مالكم ان تؤدوا ما عليكم وهو طاعة ولى الامر الذى هـو السبب الاعظم في جميع هذه الخيرات التى شملتنا • فعليكم ان تكونوا دائما على قـدم الاستعداد لتنفيذ احكامه والمحافظة على اوامره ونواميسـه العادلة » •

أما نظرة ضباط الجيش فقـد تمثلت في رد عرابى علىخطاب رياض وتأكيده بأنه وزملاءه « يريدون الاصلاح واقامة العـدل على قاعدة الحـرية والاخاء والمساواة » ••• وفي حديثه مع بلفت قال : « ان الجيش هـو القوة الواقفة الان بين مصر وحكامها الاتراك الذين لا يحجـمون عن تجديد مظالم اسماعيل في أى وقت اذا لاحت لهم فرصة » ويقول « ان المراقبـة الاوروبية تحول بصفة جزئية بين اولئك الحكام وما يريدون ولكنها لا تؤهل البلاد لحكم نفسها حين ينقضى اجل المراقبة » وقال « لقد كسـب الجيش للمصريين حق التكلم في مجلس النواب ، ونحن نؤيدهم ـ أى النواب ـ حتى لا يخدعوا ولا يضغط عليهم بالقوة ، ومتى عرف برلماننا كيـف يتكلم تنتهى مهمتنا نحن الجنود ، ونحن مصممون على حراسة الشعب المصرى وحمايتـه من الذين يحاولون اسكات صوته » وهو ما عبرت عنـه المادة الرابعة مـن برنامج الحزب الوطنى حيث اشارت الى مجلس النواب التركى الذى اكـره على الصمت وقالت ان الوطنيين قد « فوضـوا امرهم الى امراء الجهـادية وطلبوا منهم أن ينضموا على طلبهم لعلمهم ان رجال العسكرية هم القـوة الوحيدة في البلاد ، وهم يدافعون عن حريتهم الآخذة في النمو • وليس في عزمهم ابقاء الحال على ما هي عليه ، بل متى تحصلت الامة على حقوقهـا عدلوا عن السياسة الحاضرة ، وان امراء الجهادية عازمون على ترك التدخـل في السياسة متى فتح المجلس • فهم الآن بصفة حراس على الامـة التى لا سلاح لهـا » • ومن هذا التصور لدور الجيش كسـلطة ثورية تحفظ

« حقوق الامة » انطلقت القوى الثورية لتحقيق مفهومها هذا عمليا ·

وهكذا بدأ التناطح وظهر ذلك سريعا اذ لم تكد تهدأ الاضطرابات حتى عزل الخديوى توفيق محمود سامى البارودى ، وقرن ذلك باجتماع دعا اليه كبار الضباط وابلغهم انه يضع ثقته كاملة فى رياض باشا رئيس الوزارة وامر بزيادة مرتبات الضباط المصريين الذين احيلوا الى الاستيداع ، كما أصدر أمرا آخر يقضى بمعاملة جميع الضباط مستقبلا على قدم المساواة سواء أكانوا أتراكا أم شراكسة أو مصريين ، وحاول فى سنة ۱۸۸۱ أن يضم اليه القوات المرابطة فى الاسكندرية ، وان يتفاهم مع على فهمى ليضمه اليه هو وقوات حرس الخديوى وخدعه على فهمى واكد له انه معه تضليلا ··· كما اصدر من جهة اخرى تعليمات بمنع اجتماعات الضباط فى المنازل او الاحياء ولكن هذه الخطوات لم تضعف من تأهب كل فريق للآخر وحذره منه ··· كان الضباط يواصلون اجتماعاتهم السرية وارتباطاتهم العلنية مع الوطنيين والمثقفين ··· وكان الخديوى يعد خطته للتخلص من الاتجاهات المضادة له فى الجيش ، فأصدر أمرا يوم ۹ سبتمبر ۱۸۸۱ بنقل بعض الآلايات الى الريف وكان ينبغى ان يرحل معها احمد عرابى وعلى فهمى وعدد من الضباط الوطنيين ·

وقرر القادة الوطنيون عدم الاستجابة للامر اذ كانوا على ثقة من ان هذه كانت خطوة تمهيدية للتخلص منهم ، خاصة وان بذور شك كانت قد بعثت فى صدورهم بوجود مؤامرة لاغتيالهم ·

وتحرك الجيش المصرى فى مظاهرته الثالثة خلال فترة أقل من ثلاث سنوات فى نفس اليوم الذى تلقوا فيه الاوامر بتحريك القوات للريف ··· وكان عددهم حوالى ۲٥۰۰ ضابط وجندى اصطفوا فى شكل مربع مفتوح مواجه لسراى عابدين بقيادة احمد عرابى ، وعندما نزل الخديوى توفيق الى الساحة ومعه اوكلند كلفن المراقب المالى البريطانى ، بعد آن حاول عبثا استثارة وحدات موالية له ··· تقدم له احمد عرابى ممتطيا جواده ومقدما ثلاثة مطالب محددة هى :

۱ ــ اقالة وزارة رياض باشا ·

۲ ــ اعلان الدستور وتشكيل مجلس نواب على النظام الاوروبى ·

۳ ــ زيادة عدد الجيش ·

وارتبك الخديوى ثم دار الحوار المشهور عندما قال له الخديوى ،

ــ كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها وانا ورثت هذه البلاد عن آبائى واجدادى وما آنتم الا عبيد احساناتنا ·

وقال عرابى قولته المعروفة :

ـ لقد خلقنا الله احرارا ٠٠٠ واننا لا نستعبد بعد اليوم ٠

وخاف الخديوى من لهجة الحديث واشار عليه القنصل البريطانى الذى كان يقف الى جانبه بالعودة للسراى ، وتصدى هو وكلفن لمناقشة عرابى الذى وافقهما على تنفيذ المطلب الاول بتعيين شريف باشا رئيسا للوزراء وتاجيل الباقى لعرضه على الباب العالى فى تركيا ٠

ومرة ثانية ٠٠٠ لم تصل الحركة العسكرية الى غايتها ، ولم تحقق اهدافها كاملة رغم تعبيرها عن ارادة الجماهير كما قال عرابى للقنصل البريطانى « ان طلباتى المتعلقة بالاهالى لم اعمد اليها الا لانهم أقامونى نائبا عنهم فى تنفيذها بواسطة هؤلاء العساكر الذين هم اخوانهم واولادهم » ٠

كان النصر مرة اخرى جزئيا ٠٠٠ لان المظاهرة الثالثة ايضا بعد مظاهرة ١٨٧٩ واول فبراير ١٨٨١ كانت من رد الفعل الذى اجبر الضباط على تنفيذه دون تخطيط او تدبير فى نفس اليوم ، حتى يكونوا فى الهجوم بدلا من الدفاع ٠

وكانت العلاقة بين الضباط الثوريين ابناء الفلاحين ٠٠٠ وبين كبار الملاك الارستقراطيين غير منسجمة بالقدر الذى يحقق لهما الوحدة الشعبية الكاملة ٠٠٠ فعندما دعى شريف باشا لتولى الوزارة عارض فى ان تأتيه عن طريق ترشيح الجيش المتمرد ٠

ولم يذعن شريف لرجاء مندوبى انجلترا وفرنسا ٠٠٠ واراد احمد عرابى ان يحصل على تأييد مجلس النواب واعيان القاهرة فجمعه يوم ١٣ سبتمبر ، وعرض عليه نتيجة اتصالاته بشريف وموقف الاخير منها ، حيث كان يصر على انسحاب الآلايات المتمردة الى المواقع التى يختارها لها فى حالة توليه رئاسة الوزارة ٠

ولم يدرك احمد عرابى فى هذه اللحظة عمق التناقضات الطبقية بين الفلاحين الذين كان يفخر بتمثيله لهم ، وبين الاعيان الذين كان يمثلهم شريف ٠٠٠ كان كبار الملاك ينتابهم الخوف من اندفاع الحركة الشعبية ٠٠٠ كما ان العناصر المدنية كانت تخشى تأليف حكومة عسكرية كاملة ٠

ولقد وقف المدنيون من الاعيان وغيرهم الى جانب شريف ، وتوسطوا لديه بقبول الوزارة على ان يكون الجيش خاضعا لها ٠٠٠ وحدثت مساومة قبل فيها عرابى نقل الآلايات المتمردة من القاهرة ، وقبل شريف تولى الوزارة مع تعيين محمود سامى البارودى وزيرا للحربية وتنفيذ القانون العسكرى الذى تعتبر اهم مادة فيه زيادة الجيش الى ١٨٫٠٠٠ ٠

ورغم ذلك تعتبر انتفاضة ٩ سبتمبر ١٨٨١ نقطة انتقـــال في تاريخ الحركه الوطنية المصرية ، اذ ربطت لاول مرة بين الشـــعب والجيش في نضال مشترك ٠٠ ولم يعد عرابى زعيما لفريق من الضباط وانما اصـــبح في مركز الصدارة من الزعامه الشعبية ورئيسا فعليا للحزب الوطنى واصبح الجيش هو المنظمة الوحيدة التى تتطلع اليها الجماهـــير لتحقيق امالها ٠٠ والدفاع عن حرياتها ٠٠٠ وتعزز مركز الوطنيين في مصر ووقعوا توكيـــلات بانابة احمد عرابى عن الامة فى كل ما يتعلق بالسياسة الوطنية ٠

وانتهز شريف باشا الذى اسفر عن موقفه الطبقى المعـــادي لحـــركة الجيش فرصه توليه الوزارة فارسل الى الخديوى يطلب استمرار نظـــام المراقبه الثنائية الاوروبيه عـــلى الحكومة كمـــا شرع في ترحيل الآلايات المتمردة ، فانسحب فى اكتوبر ١٨٨١ الاى عرابى الى أبو كبير والاى عبد العال حلمى الى دمياط ٠

وكانت تحركات هذه القوات فرصة لقيام مظاهرات شـــعبية ضـــد حكومة شريف ، واحتشد عشرات الالاف من ســـكان القاهرة لتوديع عـــرابى وجنوده والاحتجاج على نقلهم من القاهرة ٠٠ وقـــد زاد ذلك فى متانة النسيج بين الشعب والجيش ٠

ولم تنجح هذه التحركات في اضعاف المد الثورى اذ واصـــل جنـــود حامية القاهرة مساندتهم لعرابى الذى رجع الى القاهرة بحجـــة توعك صحة زوجته ، وبدأ يواجه الخديوى صراحة ويعارض اتجاهاته علانية ٠٠

وظهر عرابى بمظهر الرجل القوى الذى يهدد المصالح الاجنبية فى مصر مما دفع فرنسا وانجلترا لتهيئة خطة مشتركة للعمل فى مصر ٠٠٠ وقـــرر شريف عندئذ عقد مجلس النواب لكى يحرم الجيش من دوره النضــــالى مصرحا بأن مجلس النواب سيصبح هيئة يستند اليها الخـــديوى وحكومته في نضالهما ضد (الاستبداد العسكرى) ٠

ورفض شريف اقرار الدستور الذى اعده هو نفسه منذ سنتين ليظـــل المجلس محصورا فى حدود سلطاته المحدودة ٠٠٠ وهكـــذا وقف عرابى والجيش مع دستور شريف ، واحتفظ شريف بقانون المجلس القديم ٠

وتألف المجلس فعلا في ديسمبر ١٨٨١ برئاسة محمد سلطان باشا ، واتخذ موقف التأييد من الخـــديوى ، ولكنـــه اصر على حقه في التصـــويت على الميزانية المصرية ٠٠٠ ممـــا دفع حكومتى انجلترا وفرنسا الى تقـــديم مذكرة اثارت استياء عاما فى مصر وجعلت المجلس يقرر ان حقه فى التصويت على الميزانية لا يمكن ان يكون موضع نقاش مع الدول الاجنبية ٠

واستقال شريف الذى كان قد قبل المذكرة واقترح على المجلس اجراء مفاوضات مع انجلترا وفرنسا فى ٥ فبراير ١٨٨٢ وتولت الحكم وزارة يرأسها محمود سامى البارودى وعين احمد عرابى وزيرا للحربية ، وكان ذلك انتصارا للحركه الوطنية وانتصارا للجيش الذى وصل الى قمة المسئولية فيه جندي من الصفوف ، وهكذا نجحت ثورة الجنرالات التى عبرت عن حق المواطن المصرى فى تحقيق ذاته من السلطة الشركسية ومن اجل التغيير الاجتماعى .

وعبرت هذه الحكومة عن ذلك بعمل اجراءات هامة .. اصدر عرابى اوامره بترقية ٤٠٠ ضابط الى رئيس أعلى ، وترقية ١٥٠ صف ضابط الى رتب الضباط واحالة ٣٠٠ ضابط الى المعاش بحجة تجاوز السن القانونية واغلبهم من الشراكسة والاتراك .

وقرر زيادة المرتبات ايضا :

ملازم ثان من	٣٥٠ قرشا	الى ٦٠٠ قرش
يوزباشي من	٥٠٠ قرش	الى ٩٥٠ قرشا
بكباشى من	٢٥٠٠ قرش	الى ٣٥٠٠ قرش
رتب اعلى	٥٠٠٠ قرش	

وتلاحظ النظرة الاجتماعية فى هذه الزيادات اذ علت نسبة الزيادة للرتب الصغيرة عنها للرتب الكبيرة ، وقلت الفروق الى حد كبير بين الرتب العليا والرتب الصغيرة فى الجيش بعد ان كانت النسبة بين الحد الادنى والحد الاعلى فى فئة الضباط (ملازم الى فريق) هى ١ : ٣٧ فى القانون القديم ، قلت فى القانون الجديد الى ١ : ١٣ . اما النسب بين الحد الادنى والحد الاعلى فى فئة صف الضباط (من أومباشى الى صول) فقد كانت فى القانون القديم ١ : ٤ زادت الى ١ : ٦ نتيجة لرفع مرتب الصول الى ما يوازى ٢٠٠٪ . وهذا مع العلم بأنه بعد رتبة الصول مباشرة يحدث تقارب شديد بين فئات المرتبات . اما رتبة النفر فقد زاد مرتبها الى ما يوازى ١٣٣٪ مما كانت عليه . وبشكل عام فان النسبة بين ادني فئة واعلى فئة (نفر ـ فريق) كانت فى القانون القديم ١ : ٣٧٥ قلت ١ : ٢٦٦ . وهو ما يمثل الى حد كبير تقدما لا بأس به فى ظروف العصر .

وهكذا تبدل الحال ... وبعد ان كان الضباط المصريون يعيشون فى خوف التشتيت او الاحالة الى الاستيداع ... فاذا بهم يشعرون بالامن والاستقرار ويحصلون على زيادة فى المرتبات سبق ان حصل عليها المدنيون .

ولم تتوقف الاجراءات عند حـــدود الجيش فقط ... اذ ان الوزارة الجديدة ابطلت المراقبه التنائية ، واعدت (لائحه اساسية) لمجلس النواب تضمن له حقوقه ، وأعدت قانونا انتخابيا جديدا اكثر ديموقراطية ، كمـــا أعدت عدة قوانين تقدمية تقضي بالغاء السخرة وتأسـيس البنــك الزراعي واصلاح المحاكم المختلفه وتحريم استخدام جباة الضرائب للسياط ، كمـــا أعد مشروع أقره مجلس النواب يقضي بانشاء مدرسه في كـــل قرية وتعميم التعليم لتخلو مصر من الاميين خلال عشر سنوات .

وقد أدت هذه المشروعات الاجتماعية المتتاليه الى بعث يقظة شـــعبية أضعفت من سلطة المديرين المطلقه ، ودفعت بعض الفلاحين الى أخـــــذ حقوقهم بالتهجم على اراضي كبار الملاك ، واعلن احد كبار الضـــباط اثناء زيارته للريف بأن الارض يجب ان تكون لمن يفلحونها ... وارتفع شـــعار (مصر للمصريين) كأحد شعارات الجيش وحرص زعماء الحركة العســكرية الثلاثة ان ينهوا اســـماءهم بلقب (المصرى) تمييزا لهم .. ونبتت فكــرة الانفصال النهائي عن الخلافة . وظهور فكــرة الجمهورية او الدولة العربية .

وهنا بدأ اصحاب الاملاك يتلمسون خطرا يهددهم ، وتراجـــع بعض أعضاء مجلس النـــواب في موقفهم ، وقال ســـلطان باشـــا رئيس المجلس للقنصل الانجليزى ان استقالة شريف باشا تمت بضغوط من العســـكريين تحت زعامة احمد عرابى .

وهكذا بدأ تجمع رجعي من الخديوى والضباط الشراكســـة وبعض الاقطاعيين .. واكتشف عرابى مؤامرة لاعتقاله فحوكم ٤٨ ضابطا شركسيا من بينهم عثمان رفقي واصدرت المحكمة في حقهم حكما معقولا اذ قـــررت تجريد ٤٠ من رتبهم العسكرية ونفيهم الى السودان ، ولكن الخـــديوى خفف قرار المحكمة في مايو ١٨٨٢ بايعاز من القنصلين الفرنسي والانجليزى واكتفى بالابعاد عن القاهرة الى الريف بديلا عن النفي .
وكان هذا الموقف من الخديوى تحديا للجيش ومفجرا لطاقات النضال فوقف احمد عرابى امام مجلس النواب مطالبا بخلع الخـــديوى . ولكن اعضاء المجلس لم يستجيبوا له ... البعض كان عاطفـــا على الخـــديوى والبعض كان في خشية الوقوع تحت حكم عسكرى .

وطلب الخديوى عقد المجلس بصورة غير قانونية ، مطالبا بحله ، وهنا استقال محمود سامي البارودى ، ورفض الوزراء الوطنيون الاســـتقالة حتى يصدق مجلس النواب قراره بذلك ... ورفض كافة اعوان الخـــديوى تولى رئاسة الوزارة مادام الوطنيون في قيادة الجيش .

واضطر الخديوى امام هذا الموقف الى استبقاء محمود سامي البارودى رئيسا للوزراء ٠٠ ليدبر مع انجلترا وفرنسا خطة اخرى قضت بحضور بعض قطع الاسطولين الانجليزى والفرنسى الى الاسكندرية يوم ٢٠ مايو ١٨٨٢ وبعد خمسة ايام طلبت الدولتان من الخديوى رسميا فى مذكرة ٢٥ مايو الشهيرة ابعاد احمد عرابى عن مصر وابعاد على فهمى وعبد العال حلمي عن الجيش الى الريف واقالة محمود سامي البارودى ٠

قبل الخديوى هذه الطلبات واعلن اقالة الوزارة بعد ان كانت قد قدمت استقالتها يوم ٢٦ مايو على اساس قبول الخديوى للمذكرة ٠٠٠ وهنا تحركت قوات الجيش فأرسلت حامية الإسكندرية يوم ٢٧ مايو برقية للخديوي ترفض موافقته على الانذار وتعطيه مهلة ١٢ ساعه للتفكير ٠

وقد حدد عرابى موقفه في انه لا يعتبر استقالة الوزارة انتهاء لوجود القوة الثورية وانحسارا لتأثيرها ٠ وقد صرح للضباط فى اجتماع عقد فى ٢٧ مايو بقشلاق عابدين « انه تنازل عن نظارة الجهادية ولم يتنازل عن رئاسة الحزب الوطنى » ٠ واكد ذلك فى خطاب ارسله تلغرافيا لجميع مراكز العسكريه قال فيه « انني وان كنت قدا استعفيت من نظارة الجهاديه لكن لم استعف من رئاسة الحزب الوطنى » ٠

وعقد كبار ضباط الجيش والبوليس فى القاهرة اجتماعات متعددة لبحث الموقف على ضوء احتمالات التدخل الاوروبى ٠ واجتمع كبارهم فى قشلاق عابدين حيث تعاهدوا على الدفاع عن الوطن ٠ وحضر هذا الاجتماع الذى اقسم فيه المجتمعون على مصحف وسيف كل من عرابى وعبد العال وطلبه عصمت ويعقوب سامى وعلى الروبى وعلى فهمى ومحمد عبيد وعبد الغفار والزمر وحسن جاد وعلى يوسف ومحمود فهمي والبارودى ٠ كما حضره عمر رحمي وابراهيم فوزى مأمور الفيلق ٠ ويقال ايضا ان عبد الوهاب قومندان البوليس قد حضره ٠ وقام الشيخ محمد عبده بتلقين الحاضرين يمينا من بين فقراته : « والله العظيم قاهر السماوات والارض انني انا فلان لا اخون وطنى ولا اخون نفسى ولا أغش احدا من اهل بلادى واحافظ على عرضى وعلى دينى وعلى عرض اهالى بلادى ما دمت قادرا على منعه ، وانني احافظ على النظام وعلى القانون العسكرى بكل ما يمكنني ، واذا حنثت في يميني اكون مستحقا لقطع الرقبة وشق الصدر وان اكون محروما من مزايا الانسانية والاداب » ٠ وذكرت جهات الامن انه قد ذكر في اليمين ان « يكون الضباط يدا واحدة وعصبة واحدة ولا يسمعون اوامر من احد ما الا اذا اتفقوا عليها » ٠

واستبد الذعر بالخديوى فلجأ الى سلطان باشا الذى حاول اقنـاع الوطنيين بالطاعة فى نفس اليوم ، ولكن ردهم كان المطالبة بخلع الخديوى الذي اصبح تابعا للدول الاجنبية • وقال احد قائمقامات الجيش على حسب رواية كرومر بأن « الضباط يمزقون عرابى اربا اذا هو تخلى عنهم » ••• وكان هذا دليلا على ان جذور الحركة الوطنية قد ضربت بعمق فى صفوف الجيش والشعب معا ، فقامت المظاهرات وعقدت الاجتماعات مطالبة بعزل الخديوى وتثبيت عرابى والوزارة الوطنية فى السلطة •

وارتبكت افكار الخديوى فقرر اعادة عرابى ، واصبح هو الوزير الوحيد بلا وزارة •• ثم استنجد بالباب العالى الذى ارسل بعثة من درويش باشا وشيخ السعيد قام الخديوى برشوهما بمبالغ مالية كبيرة ، وطلبت البعثة من عرابى ان يذهب الى استانبول على وعد بأن ينال منصبا كبيرا هناك •

رفض عرابى قائلا (ان السلطة التى أتمتع بها الآن لم أقم باغتصابها بل قلدنى اياها الشعب ويتوجب على أن أنزل على ارادته وأعطى أذنا صاغية لشكاويه) •

وعقب فشل مهمة البعثة بدأ تنفيذ خطة جديدة صاحب فكرتها المعتمد البريطانى مالبث وهى اثارة اصطدامات داخلية تكون سببا فى تدخل خارجى مسلح •

ويوم ١١ يونيو ١٨٨٢ استأجر مالطى كان فى خدمة القنصل الانجليزى بالاسكندرية حوذيا حمله الى احدى الحانات ، وعندما طالبه بأجره حدثت بينهما مشادة اطلق فيها المالطى النار على الحوذى وظهر عدد من الاجانب المشتبه فيهم فأطلقوا النار على الاهالى الهائجين ••• وفى توقيت معلوم ظهر فريق من البدو كان الخديوى قد استأجرهم فشاع الاضطراب فى الاسكندرية وقتل ١٤٠ مصريا و ٥٠ اوربيا فى المدينة التى كان الاجانب من المرابين والمضاربين والراسماليين قد بدأوا يتدفقون عليها بعد بداية الضائقة الاقتصادية الناجمة عن الديون •

ولكن عرابى استطاع السيطرة على الاضطرابات واعادة الهدوء الى المدينة وانكشف أمر المدبرين ، وفشلت خطة التدخل •

وشقت هذه الحادثة المجتمع الى شقين ••• الخديوى وكبار الملاك والاعيان فى جانب والقوى الوطنية من المدنيين والعسكريين فى جانب آخر •

وسار الخديوى الى الاسكندرية ومعه كبار الرجعيين والاقطاعيين مثل نوبار باشا ورياض باشا وانضم اليهم ايضا شريف باشا وسلطان باشا ••

وهناك ألف الخديوى وزارة خاضعة فى الاسكندرية برئاسة راغب باشا .. بينما كانت القاهرة تحت سيطرة الوطنيين .

ونبتت خطة ثالثة للتدخل الاجنبى عندما قرر احمد عرابى ترميم الحصون الساحلية عقب زيارة الاسطولين الانجليزى والفرنسى للاسكندرية ، وارسل الباب العالى يطلب وقف الترميمات ووجد الاميرال سيمور قائد الاسطول البريطانى فى ذلك فرصة للتدخل فارسل انذارا الى رئيس حامية الاسكندرية يوم ٦ يوليو ١٨٨٢ مطالبا بوقف التحصينات ... واجاب عرابى بأنهم يقومون بالترميم فقط دون اقامه اى تحصينات جديدة .
ومع ذلك قدم سيمور انذارا آخر يوم ١٠ يوليو مطالبا بتسليم التحصينات خلال ٢٤ ساعة ورفض عرابى ذلك رفضا باتا ... فأطلق سيمور مدافع أسطوله يوم ١١ يوليو على الاسكندرية فحولها الى أنقاض .. ومع ذلك ظل الخديوى وكبار الاعيان فى قصورهم بالضواحى بعد تحذير سيمور لهم فى الوقت المناسب ، واصدر عرابى امرا بانسحاب الحاميه من المدينة المحترقة .. وغادرها معه آلاف السكان ... وبعد ٤ ايام احتل الانجليز المدينة المهجورة ... وكان ذلك ايذانا بالحملة البريطانية على مصر التى صوت مجلس العموم البريطانى على اعتماداتها يوم ٢٧ يوليو ١٨٨٢ تحت قيادة الجنرال ولسلى .

وطلب الخديوى من عرابى ان يوقف العمليات الحربية ضد الانجليز ، ولكن عرابى رفض تنفيذ الامر مخاطبا الشعب بأن حربا قد بدأت بين المصريين والبريطانيين المعتدين محذرا الخونة ... واسرع الخديوى القابع فى الاسكندرية تحت حماية الغزاة باصدار امر يعزل به عرابى من وزارة الحربية يوم ٢٢ يوليو معلنا عصيانه .

وكان رد عرابى لجماهير الشعب يوم ٢٥ يوليو ١٨٨٢ بيانا قال فيه « ان الخديوى قريب الى الانجليز وكل مايقوله يعود عليهم بالفائدة ... وهو يقوم بتضحية مصالح البلاد والشعب ... واما فيما يتعلق بنا فنحن لا نتخلى عن الشعب ما دام لنا قلب ينبض » .

ونقل عرابى المعركة الى صفوف الشعب ... وتقدم آلاف المتطوعين من الفلاحين وسكان المدن مقدمين تبرعاتهم التى ساعدت على التسليح .

واعتبرت هذه الحركة امتدادا لنضال الشعب المصرى المسلح ضد الحملة الفرنسية . ثم غزو الانجليز للاسكندرية ورشيد عام ١٨٠٧ ، ولكن تميز هذه المرة بوجود قادة مصريين وعساكر نظاميين من العمال والفلاحين .

وتشكل (مجلس الطوارىء) من العلماء والمشايخ والاعيـان ، ولكن بعضهم كان مترددا بين الولاء للخديوى وبين الاندفاع مع التيـار الوطنى ، وذهب بعضهم الى الخديوى فى الاسكندرية ٠٠ وتشـكل ايضا (المجلس الحربى) من الضباط الوطنيين ٠

واعدت خطة الدفاع عن الشمال اعدادا تاما اعجز الانجليز عن التقـدم عند كفر الدوار ٠٠ واعد رئيس اركان حرب الجيش محمود فهمى خطـة اخرى للدفاع عن الشرق تقضى بتعطيـل قناة السـويس وسد ترعـة الاسماعيلية ولكن فرديناند دى ليسبس فـزع من هذه الخطة حرصا على ارباحه وتآمره مع الغزاة فتعهد لعرابى بأنه سـوف لا يسـمح للقوات الانجليزية بالنزول فى منطقة القناة ٠٠ وقبل عرابى منه هذا التعهد ٠

وكانت هذه غلطته الاولى حربيا وسياسيا ٠

ونزلت القوات البريطانى فى السـويس يوم ٢ أغسطس ١٨٨٢ ثم قاموا بعملية انزال فى بور سعيد والاسماعيلية يوم ٢٠ أغسطس رغم وعـود دى ليسبس وبدأوا بتنظيم القوات استعدادا للمعركة الحاسمة ٠

وحدثت موقعة التل الكبير يوم ١٢ سبتمبر ١٨٨٢ بهجوم بريطـانى مفاجىء لاذ البدو بعده بالفرار ورموا عرابى بالحجارة ٠

وهرع عرابى الى القاهرة حيث عقد (مجلس الطوارىء) مصرا عـلى مواصلة النضال ، مفترحا تشييد تحصينات حـول العاصمة ، مقترحـا اغراق الوادى حول القاهرة ، وايده فى ذلك عبد العال حلمى وعبدالله النديم ومحمود سامى البارودى ، ولكن كبار الملاك والاعيان صوتوا من اجـل الاستسلام وخضع عرابى لهذا القرار ٠٠٠ رغم وجود قوات الجيش المصرى سليمة فى الشمال ٠

وكانت هـذه هى غلطة عرابى الثانية والاخيرة ٠٠٠ فقد استسلم للبريطانيين على مشارف القاهرة يوم ١٤ سبتمبر ١٨٨٢ ، نتيجة لخيـانة شيوخ البدو واعيان القاهرة ٠

وهكذا طويت صفحة مضيئة من صفحات نضال الشـعب المصرى ، بعد ان تكالبت عليه بريطانيا كما تكالبت الدول العظمى على محمد على قبـل ٤٢ عاما فقط ٠

ولكن هناك فراقا فى الحالتين ٠

محمد على لم يكن مصريا صميما ـ قال ابنه ابراهيم « غيرتنا شـمس مصر وصهرتنا » ـ ولم يعتمد الا على الارستقراطية والبرجوازية التى كانت موجودة أو خلقها بهباته من الارض للمماليك والالبانيين ٠٠ كما لم يطـور

النظم والمجالس التي كونها نابليون ·· ولم ينقـــل من ديموقراطية أوروبا وفكرها السياسى مثلما نقل علومها وصناعاتها ·· كمـــا ان غزواته اثارت ضده شعوب الدول المقهورة ومهدت ضده مؤامرات الدول الاســـتعمارية الكبرى التي وجدت فيه خطرا نابعا من الشرق ··

اما أحمد عربى فكان مصريا صميما ·· أقرب الزعماء فى تاريخ مصر الحديث الى قلوب الفـــلاحين واول قائد لجيش كامل من المصريين ··· واول ثائر تتجمع حوله الجماهير من العساكر والمدنيين بما استثاره فيهـــا من همة وحماسة ··· وهو في حركته كان يستلهم افكار الثورة الفرنســية الديموقراطية ، ويحاول ان ينسج بين الشعب والجيش ·· وان كان قــد فاته ادراك التناقضات الاجتماعية العميقة التى ظهرت في المجتمع مـــع ظهور البرجوازية المصرية ·· والتي خلفت لحركته اعداء طبقيين يرون خطرا كبيرا في اطلاق ارادة الفلاحين والبرجوازية الوطنية الصــــغيرة والبروليتاريا الناشئة ··· كما انه لم تتوافر لاحمد عرابى النظرة العلمية الشاملة التى تجعله يحسن تصنيف الاصدقاء والاعداء فخدعه دي ليسبس وخضع لاصوات اعيان القاهرة ·

وثورة عرابى لم تحصر فى دائرة التناقضات القائمـــة بين الضباط المصريين والشراكسة ولكنها امتدت الى رحاب الشعب فكانت انعكاســا لما هو قائم في المجتمع من فروق طبقية وقهر اجتماعى بين الفلاحين والاقطاعيــين واغلبهم من الأجانب والمرابين والشراكسه ·

وهزيمة ١٤ سبتمبر ١٨٨٢ أدت الى نتائج وخيمة للحركة الشـــعبية وللقوى الوطنية في الجيش ·

الفصل الثالث

الجيش المصرى .. تحت الاحتلال البريطانى

(من الحكمة الا نمكن العدو من رقابتنا وانا لاأود ان يدخل ضباط الجيش فى حركتنا السياسية)

مصطفى كامل

اصدر الخديوى توفيق يوم ١٩ سبتمبر ١٨٨٢ مرسوما من جملة واحدة (تسريح الجيش المصرى) .. وعاد الخديوى الى القاهرة فى حماية القوات البريطانية ليتابع اصدار قراراته بتجريد جميع الضباط من رتبة يوزباشى فما دون اشتركوا فى الثورة العرابية من رتبهم وحرمانهم من المعاش ، وتقديم اعداد كبيرة من الرتب الكبيرة للمحاكمة ، بعد اعتقال ٣٠٫٠٠٠ شخص ، وفرض المحتلون تعويضات على الشعب المصرى قيمتها ٩ ملايين جنيه استرلينى .

واختار الخديوى توفيق (السير فلانتين بيكر) لتنظيم جيش مصرى جديد .. وعين (السير ايفلين وود) قائد جيش الاحتلال ليكون قائدا عاما للجيش المصرى الذى تقرر ان يهبط عدده ليكون ٦٠٠٠ جندى .

وتبع ذلك خطوات اخرى اذ اغلقت كل المدارس الحربية عدا واحدة ،

واغلقت ترسانات الاسلحة والمدرسة البحرية ، وعطلت الترسانة البحرية ، وبيعت السفن الحربية ...

وفي بداية عام ١٨٨٣ كان هناك ٢٥ ضابطا بريطانيا يتولون المناصب القيادية في الجيش المصرى ، اما صغار الضباط فكانوا يختارون من الاسر الموالية للانجليز والخديوى .

وفي ديسمبر ١٨٨٢ حوكم عرابى وصدر الحكم باعدامه هو وانصاره ، ولكن دوفرين سفير انجلترا في تركيا الذى كان قد حضر للتنكيل بالمشتركين في الدفاع عن الاستقلال الوطنى قرر استبدال الاعدام بنفيه هو وسبعة من زملائه نفيا مؤبدا الى سيلان . مدركا ان اعدام أحمد عرابى يمكن أن يؤدى الى انتفاضة شعبية اخرى .

ودخل العسكريون المصريون في مرحلة جديدة ، لم تعد لهم فيها القيادة ... وادخل الاحتلال نظام (البدل النقدى) عام ١٨٨٦ ليصبح التجنيد في الجيش قاصرا على الفقراء ، ويعفى منه ابناء الضباط ورجال الدين وموظفو الحكومة وطلبة المعاهد الدينية مما أدى الى زيادة الفارق الطبقى بين الجنود والضباط ، كما عمل على قتل روح الجندية في جماهير الشعب . وكان الجيش المصرى عند وقوع الاحتلال موزعا بين مصر والسودان ... وكانت ثورة المهدى مشتعلة هناك ، وناور الاحتلال البريطاني اولا بعدم امداد الجيش في السودان بأية امدادات ثم تعيين ضابط بريطاني هو الجنرال هكس ليقود الجيش هناك خلفا لعبد القادر باشا حلمى وذلك بناء على طلب من رئيس الوزراء شريف باشا .

واخيرا انتهز الاحتلال فرصة اشتعال الثورة المهدية ليتخلص من الجنود والضباط المصريين الذين اشتركوا في الثورة العرابية ، فأقاموا معسكرا للتدريب في القناطر الخيرية جمعوا فيه بقايا جيش عرابى المنحل ، وارسلوا ٥٠٠٠ جندى الى الخرطوم وارتفع العدد عندما وصل هكس باشا يوم ٧ مارس ١٨٨٣ ليصبح حوالى ١٣٫٠٠٠ جندى .

ولكن الجنود الذين ارسلوا الى السودان كانت في قلوبهم مرارة شديدة لشعورهم بأن بلادهم محتلة ، ولاحساسهم بأنهم انما يرسلون الى هناك للتخلص منهم ، وذلك كما ورد في تقرير كتبه كولونيل ستيوارت الذى ارسلته الحكومة البريطانية الى السودان لتقديم تقرير عن الحالة .

وقد وقعت الكارثة التى رسمها الاحتلال عندما خرج الجنرال هكس (باشا) يوم ٨ سبتمبر في حملته التعيسة لمهاجمة كردفان فلما وصل الى غابة شيكان فوجىء بالدراويش يحاصرونه من كل جانب بينما كان جنوده قد انهكهم التعب والجوع والعطش والابيد الجيش الذى تجاوز عدده ٣٠٫٠٠٠ جندى عن آخره ولم ينج منه سوى ضابطين برتبة الملازم وثلاثمائة جندى معظمهم من الجرحى .

نمت هذه الكارثة بذور الريبة في موقف الحكومة البريطانية التي نادت اولا بعدم التدخل ثم ساندت الجنرال هكس باشا في اعداد حملته على كردفان رغم تحذير الكولونيل ستيوارت من خطرها في تقرير رسمي .

واكتملت ابعاد هذه الخطة بعد مصرع آلاف من جنود الجيش المصري عندما نصحت الحكومة البريطانية مصر باخلاء السودان .

ورفض شريف باشا .

وهنا ارسل اللورد جرانفيل وزير المستعمرات برقية في يناير ١٨٨٤ تفيد بأن من لا يريد اتباع نصائح الاحتلال فعليه ان يتخلى عن منصبه واستقال شريف باشا في ٧ يناير ١٨٨٤ قائلا (اذا تركنا السودان فالسودان لن يتركنا) .

وجاءت وزارة نوبار باشا يوم ١٠ يناير خاضعة للاحتلال البريطاني ساجدة لاوامره مصدرة تعليماتها باخلاء السودان وترحيل الموظفين وسحب الحاميات المصرية التي بلغت ٢٥٫٠٠٠ جندي وصدر مرسوم في ١٥ يناير بالحاق ادارة السودان بوزارة الحربية بدلا من رئاسة الوزراء .

كان المستهدف هو افناء الجيش المصري اولا ثم انسحاب مصر من السودان ثانيا .

ولذا لم تقف الكارثة عند حدود معركة (شيكان) فقط ، وانما امتدت لتشمل تدبيرا بريطانيا قضى باعلانهم استقلال السودان عن مصر في مقابل تعيين غوردون حاكما عاما للسودان .

ووصل غوردون يوم ١٨ فبراير ١٨٨٤ الى الخرطوم ، واعلن استقلال السودان وعين المهدي سلطانا على مديرية كردفان ، محتفظا لنفسه بمنصب الحاكم العام ، وقام بالغاء جميع الضرائب المتأخرة ، وأعلن العفو عن المسجونين الذين تأخروا عن دفعها ... الا ان المهديين اكتشفوا هذه المناورة البريطانية ، ولم يكن في نيتهم تقديم السودان للسلطة الانجليزية .

وعندما فشلت هذه الخديعة في سرعة تقرر تكليف غوردون بتدبير عملية انسحاب المصريين مدنيين او عسكريين من السودان ، ولكن دون ان تصله اية قوات لتأمين عملية الانسحاب ... الجنرال ولسلي وهو الجنرال الذي فتح مصر قاد جيشا من ٧٠٠٠ جندي ولكنه لم يصل الى الخرطوم .

وفي ذلك قال غوردون (لقد عينت لاخلاء السودان وليس للهرب من الخرطوم) وترك الحاميات الاخرى في جميع المواقع تواجه مصيرها ... واعتبر التخلي عن هذه الحاميات عارا لا يمحى .

وفي ٢٣ يناير ١٨٨٥ توقفت الخرطوم المحاصرة عن المقاومة ، واحتلها الثوار المهديون وقتل غوردون والانجليز الذين كانوا معه اثناء اقتحام المدينة

وتركت الحاميات الاخرى تواجه مصيرها قبل سقوط الخرطوم وبعدها .

وكان من نتيجة موقف الحكومة البريطانية أن أبيد اكثر من ٣٣٫٠٠٠ جندي مصري من حاميات المدن السودانية المختلفة واثناء سقوط الخرطوم وكسلا وسنار خلال عامي ١٨٨٤ ، ١٨٨٥ .

نفذت الخطة الاستعمارية لابادة الجيش المصرى في مصر والسودان لضرب الحركة الوطنية التي تولدت فيه ، ووقف نموها ... وكان انتصار ثورة المهدى عام ١٨٨٥ قد طوى صفحة الجيش المصرى فى السودان الى حين . وبدأ الاستعمار البريطانى مناوراته لتحويل الاحتلال المؤقت الى احتلال دائم عن طريق المماطلة ، حتى عقدت فى ٨ ابريل ١٩٠٤ اتفاقية بين فرنسا وانجلترا ، انطوت على نص يقضى بأن الحكومة البريطانية ليس فى نيتها تغيير الوضع السياسى فى مصر مما يطلق يدها فى مصر ويد فرنسا فى مراكش .

وقبل هذه المعاهدة وخلال ثمانينيات القرن الثامن عشر ، وبعد الضربة الشديدة التي وجهت للقضاء على الجيش المصرى واعتقال ٣٠٫٠٠٠ مصرى بعد قمع الثورة العرابية غابت الحركة الوطنية المنظمة ، وتشتتت كوادر الوطنيين او مارسوا نشاطا سريا .

ولكن لم تكد تسعينيات القرن تهل حتى نشط مثقفو البرجوازية الوطنية المصرية بعد وفاة الخديوى توفيق وتعيين ابنه عباس حلمى الثانى الذى حكم مصر فى يناير ١٨٩٢ وهو فى الثامنة عشرة من عمره وبرز فى هذه الفترة الشيخ محمد عبده الذى سعى الى تطوير الشريعة الإسلامية بما يتناسب مع العصر ، وناضل ضد تتريك السكان العرب فى الامبراطورية العثمانية داعيا الى بعث اللغة العربية الفصحى ، وعبد الرحمن الكواكبى (١٨٤٩ ـ ١٩٠٣) المولود فى حلب والذى هاجم الاستبداد فى كتبه ودافع عن الفقراء والبؤساء واستنكر التعصب الدينى ودعا الى تكوين دولة عربية واحدة ، واضعا الوطن فوق الدين والوطنية فوق الخلافات الدينية ... ومصطفى كامل الذى كون حلقة من الشباب وهو مازال تلميذا ، وطالب بابعاد الانجليز عن مصر ، ففتحت له الابواب فى فرنسا .

وكان مثقفو البرجوازية المصرية لا يؤمنون بامكانية الحركة المثقفة الجماهيرية فى هذه المرحلة ، تأثرا منهم بنكسة الاحتلال ، ولذا وجهوا اهتمامهم فى الحصول على التحرر الوطنى الى محاولة استغلال التناقضات بين الدول الامبريالية وخاصة انجلترا وفرنسا .. واتجه مصطفى كامل

ايضا الى اعتبار التثقيف والدعاية وسيلة اخرى من وسائل التحرر الوطنى وذلك بعد ان اجهده السعى وراء المتناقضات •

ولكن الخديوى عباس الثانى كانت له وجهة نظر فى الجيش عبر عنها بقوله (انه الاداة الوحيدة القادرة على ضمان الحريات الوطنية) •• ولذا فقد ربط نفسه به واظهر اهتماما شديدا باصلاحه ••• كان يلبس الملابس العسكرية ويزور الوحدات ويحضر التدريب والمناورات ويرعى حالة الجنود والضباط مما جعل قوات الجيش تتعلق به على عكس والده •

وانتهز الخديوى فرصة سفر كرومر الى انجلترا وعين محمد ماهر باشا وكيلا لنظارة (وزارة) الحربيه ، واعتبر هذا الاجراء بداية المتاعب ، فقد اخذ ماهر باشا يحدد سلطة كتشنر سردار الجيش ، ورافق الخديوى فى زيارة تفتيشية مع كتشنر عند حدود مصر الجنوبية ، حيث اكثر الخديوى من انتقاد العيوب وخاصة التى لمسها فى تصرفات الضباط البريطانيين قائلا للجنرال كتشنر عقب استعراض فى وادى حلفا « انه من العار - فى رأيه - أن يكون الجيش المصرى على هذه الدرجة من عدم الكفاءة »•

وقدم كتشنر استقالته وارسل الى كرومر برقية بما حدث فأصر على ان ينقل الخديوى محمد ماهر باشا من (نظارة) الحربية ، تحت التهديد بوضع الجيش المصرى تحت سلطة الحكومة البريطانية رأسا •• وقد خضع الخديوى عباس للانذار ووجه الى السردار خطابا نشر فى الجريدة الرسمية يبدى فيه الرضى عن حالة الجيش ، ويسجل للضباط البريطانيين خدماتهم فيه •• وبعد ايام نقل محمد ماهر باشا محافظا الى بور سعيد •

كان هذا الموقف نقطة تحول فى تاريخ الجيش ••• فبعد ان كان الخديوى توفيق يأخذ موقفا معاديا من رجاله ويلقى بنفسه فى احضان الانجليز ••• اذا بالخديوى عباس يحاول ان يأخذ موقفا معاديا من الانجليز ويلقى بنفسه فى احضان الجيش •

ولكن خضوع الخديوى لانذار كرومر اضعف من نبت الحركة الوطنية فى الجيش التى انتعشت بالامل ••• ولكنها لم تذبل تماما ••• تكونت فى صفوف الضباط جمعية سرية اسمها (جمعية المودة السرية) من الضباط الموالين للخديوى لتزويده بالانباء والاخبار •

واتخذ البريطانيون موقفا اكثر تشددا فى تعيينات الضباط المصريين وترقياتهم ، وبدأوا بتعيين ادوارد زهراب باشا وكيلا للحربية وكان ولاؤه للانجليز كما يقول ملنر (امر لا يحتمل المناقشة) •

وهنا خلقت الظروف موقفا وضع الجيش المصرى امام مسئولية جديدة •

كانت خطة الاستعمار البريطاني لابادة الجيش المصري وابعاده عن السودان قد تحققت ... واراد الاستعمار بذلك ان يكسب السودان صفة الدولة التي لا يستعمرها احد في افريقيا لمدة سنوات مما يبعد صلته عن مصر ، ويضعف العلاقات الشعبية الوثيقة بينهما ... ثم يهجم الاستعمار البريطاني عليه من الجنوب ... من كينيا واوغندا ليحتله بقواته ويصبح مستعمرة بريطانية كاملة لا صلة لها بمصر .

كان الاستعمار البريطاني يريد ان يقيم (عازلا زمنيا) بين مصر والسودان .

ولكن عاملا هاما لم يكن قد دخل في حسابات الخطة البريطانية انقض عليها ، فغيرها تغييرا كاملا .

اعادة تكوين الجيش المصري

تسابقت الدول الاستعمارية على اقتطاع اطراف السودان والتوغل في ارضه على حساب حكومة الخليفة عبد الله التعايشي الضعيفة . وكانت فرنسا تزحف على افريقيا من الغرب ولما كان السودان بعد عام ١٨٨٥ يعتبر دولة مستقلة فانها قررت ان تحتله وزحفت عليه بعثة وارشان حتى وصلت حدوده عام ١٨٩٨ .

وحدث سبب مباشر عند هزيمة الايطاليين في موقعة عدوة اول مارس ١٨٩٦ على لايدي الاحباش ، وتهديد الدراويش السودانيين لكسلا التي كان الايطاليون قد اخلوها بصفة مؤقتة عام ١٨٩٤ ... وطلب الحكومة الايطالية من الحكومة البريطانية ان يهاجم الجيش المصرى الدراويش في دنقلة للتخفيف من الضغط عليهم .

ولم يجد الاستعمار البريطاني امام هذه الظروف المتغيرة من سبيل الا اعادة تكوين جيش مصرى لدخول السودان .

واتخذت الحكومة البريطانية قرارها في ١٢ مارس ١٨٩٦ باسترجاع دنقلة ، وكان في هذا نقطة تحول عن سياسة انشاء جيش مصري صغير للاعمال البوليسية ، الى انشاء جيش محارب قادر على خوض المعارك .

لم يكن قد مضى على حل الجيش المصرى في مصر الا ١٤ عاما .. ولم يكن قد مضى على الابادة المتعمدة للجيش المصرى في السودان الا ١١ عاما ... وبدأ تكوين جيش مصرى جديد .

وكان الاستعمار البريطاني يعتمد في ضمان بقائه بمصر على وجود جيش الاحتلال ، وقيادة الضباط البريطانية للجيش المصرى الجديد .

وزاد عدد الجيش المصرى حتى بلغ ١٨٫٠٠٠ جندى عند بدء حملة

دنقلة وبدأت عملية استرداد السـودان تحت قيادة كتشنر سردار الجيش المصرى ·

كان هجوم البريطانيين على السودان من كينيا واوغندا متعسـذرا فى هذا الوقت الضيق لظروف طبيعية ··· كما ان دخول السـودان بالجيش المصرى كان يعطى للغزو سندا قانونيا امام فرنسا التى كانت قواتهاقـد احتلت (فاشودة) غرب السودان ·

دخل كتشنر (أم درمان) عاصمة المهديين فى سبتمبر ١٨٩٨ مستخدما الرشاشات كسـلاح جـديد ، فأصيب جيش المهدى بخسارة فادحة بلغت ٢٠ الفا واندحر الجيش الى كردفان · وعن هذه المعـركة قال الكولونيـل مساعد كتشنر « كانت تحـركات المهديين دائمـا الى الامام تحت وابل رصاصنا ليلاقوا الموت المحتم وجها لوجه · وبعد المعركة التى سـجلنا فيها انتصارنا كانت جثث قتلاهم بثيابها البيضاء تغطى ساحة القتال كما تغطيهـا الثلوج » ولم يقتفى اثر المهديين ولكنه اتجه الى (فاشـودة) حيث التقت القوات البريطانية وجها لوجه مع القـوات الفرنسية ، وحدثت ازمـة (فاشودة العالمية) المعـروفة والتى قال لينين عنها « كانت انجلترا عـلى شفا الحرب مع فرنسـا » وانتهى الامـر بينهما الى توقيع اتفاق ٨ ابريل ١٩٠٤ تتعهد فيه فرنسا بعدم معارضة النفوذ البريطانى فى مصر او تحـديد موعد لجلاء قواتها عنه · كما تعترف بريطانيا بسيادة فرنسا على المغـرب ·

ولكن صداما لم يحدث اذ حسمت المشكلة على أساس توازن القـوى وبعد مفاوضات طويلة امرت الحكومة الفرنسية (مارشان) بالتراجـع يوم ٤ نوفمبر ١٨٩٨ عن (فاشودة) ، ووقعت فى مارس ١٨٩٩ اتفاقية انجليزية فرنسية لتوزيع مناطق النفوذ فى افريقيا ·

وتم استرداد السودان فى ٢٤ نوفمبر ١٨٩٩ بعد حرب امتدت أكثر من ثلاث سنوات خاضها الجيش المصرى ·

وبعد استرداد السودان واجه الاستعمار البريطاني مرة أخرى مشكلة وجود جيش مصرى ، بدأت تنتشر فى صفوفه افكار الحركة الوطنيـة التى كانت قد انتعشت فى صفوف الجماهير وبين المثقفين فى التسـعينيات من القرن التاسع عشر ·

ولم تجد الحكومة البريطانية مبررا يدفعهـا الى الغاء الجيش المصرى مرة اخرى ·· كما فعلت فى بداية الاحتلال ··· ولكنهـا ابقت معظم الجيش الذى بلغ فى مطلع القرن العشرين عددا يتراوح بين ٢٠ ألفا ، ٢٥ ألفا فى السودان لعدة أسباب أهمها :

١ ـ ابعاد الجيش المصرى الذى اســــترد ثقته بنفسه عن قاعـــدته الجماهيرية ـ على حد تعبير كرومر ٠

٢ ـ اطلاق الامر لجيش الاحتلال فى مصر دون منازع ٠

٣ ـ تثبيت الامن فى السودان ٠

٤ ـ وجود الجيش المصرى فى السودان اعفى الحكومة البريطانية كذلك من تواجد جيش كبير للاحتلال ٠ وقد احتلت وحداتهم مواقع اســـتراتيجية هامة مثل القلعة والعباسية وقصر النيل بالقاهرة ٠ ومصطفى باشـــا ورأس التين بالاسكندرية ٠

وكان استرداد السودان وتوقيع اتفاقية ١٨٩٩للحكم الثنـــائى المصرى البريطانى وهى الاتفاقية التى وقعها بطرس غالى عن مصر ولورد كرومر عـــن بريطانيا ، والتى جاء فى مقدمتها ان الاسباب التى دعت الى الحكم الثنـــائى هى أن مصر حكمت الســودان حكما سيئا مما أدى الى ضـياعه (وموافقة) الحكومة المصرية على السماح لانجلترا بادارة السودانلقاء المعونةالتى قدمتها الى مصر فى السودان ٠

ولا شك ان هذه الاتفاقية التى فرضت على مصر ، كانت (اتفاقية اذعان) اطلق عليها الناس اسم (الاتفاقية المشئومة) ٠

اصبح الحاكم العام البريطانى هو السلطة العليا فى السودان تتجمـــع فى يده جميع الســـلطات المدنية والعسكرية والتنفيذية والتشريعية ، وبدأت الحكومة البريطانية ترسم سياسة جديدة نحو الجيش المصرى ٠

قررت تجريد الضباط والجنود المصريين والسودانيين فى السودان من الاسلحة والذخيرة بواسطة الجنرال مكسويل نائب الحاكم العام ٠٠٠ وكان ان تمردت بعض الوحدات ، فسجن الضباط المتهمون بالتحريض وحوكمـــوا ثم طرد منهم سبعة من خدمة الجيش واحيل واحد الى المعـــاش، وآخـــر للاستيداع ٠

واراد كرومر ان يستغل هذا الحادث لاهانة الخديوى وتحقيره امـــام المتعاطفين معه فى الجيش ، فطلب منه احضـــار المحكوم عليهم وتوبيخهم ، ليضعه فى موقف حرج سواء بالرفض او القبول ٠٠٠ وقد قبـل الخـــديوى ذلك ، وأحضر المحكوم عليهم ووبخهم وأعلن تأييده للسردار ونجت باشا ٠

وقررت الحكومة البريطانية أيضا انقاص الوحدات المصرية البحتة فى الجيش وزيادة الوحدات السودانية ، وألغوا (أورطتين) كتيبتى مشاه ، وسرحوا المدفعية ، وخفض عدد (الأورطة) الكتيبة المصرية الى ٦٠٠جندى بدلا من ٨٠٠ جندى للكتيبة السودانية ، ونقص عـــدد الضباط المصريين فى

الوحدات السودانية الى العشر ٠

ولم يقف الامر عند هذا الحد بل شتت الجيش المصرى فى السودان الى حاميات صغيرة مبعثرة فى المدن البعيدة ، بينما تمركزت الحامية البريطانية فى الخرطوم ٠

وهكذا ضمر الجيش المصرى بعد أن أدى واجبه فى استردادالسودان ٠٠٠ واخذ الاحتلال البريطانى يكلف وحداته بواجبات تعميرية مدنية ٠

ولما كان هناك نقص شديد فى الصناع المهرة بالسودان فقداستصدر اللورد كتشنر امرا خديويا يقضى بتجنيد ابناء القاهرة والاسكندرية ، وكان ذلك موقوفا منذ بدء الاحتلال منعا لتسرب الافكار الحضارية فى المدن الى صفوف الجيش ، وهكذا تضاعف عدد الصناع فى السودان عدة مرات ٠

وقام الجيش المصرى بدور حضارى فى السودان ٠٠٠ انشأ طرق السكك الحديدية فى ظروف بالغة القسوة والصعوبة ٠٠٠ قال اللورد كرومر انهم مدوا ٣٢٥ ميلا من خطوط السكة الحديد خلال ١٤ شهرا ٠٠٠ وقال احد الضباط المصريين (انه توجد تحت كل شبر منها جثة جندى مصرى) ٠

وكثير من منشئات السودان فى المدن المختلفة بنيت بواسطة الوحدات المصرية حتى اصبح ذلك طابعا للجيش ، وهدفا يقصد به صرفه عن التدريب والتماسك ٠٠٠ وعندما فكر الرئيس السابق اللواء محمد نجيب فى دخول المدرسة الحربية ، قال له ابراهيم عرابى بن احمد عرابى وكان مقيما فى السودان ، وهو يحاول يثنيه عن عزمه (يابنى ٠٠٠ ان الضابط فى بلد محتل ليس سوى مقاول عمال او رئيس فعلة ولا يتعدى عمله الحفر والردم) ٠

وكان كلام ابراهيم عرابى صحيحا الى حد ما ٠٠٠ فقط روى لى محمد نجيب ان اول عمل كلف به عقب تخرجه كان تمهيد بعض الطرق فى السودان ٠

بعد ان استقرت الاحوال نوعا ما صدر قانون القرعة العسكرية ـ التجنيد ـ عام ١٩٠٢ بعد ان تلاشت الحاجة لاى قوات مصرية من وجهة نظر المصالح البريطانية ، ولذا فقد تضمن اعفاء كل العناصر ذات الفعالية او التأثير فى الاتجاهات الوطنية لمكافحة الاستعمار ، حتى تظل بعيدة عن الجيش ٠

اعفى ابناء العمد والمشايخ وموظفى الحكومة والعلماء وطلبة الازهر وطلبة الجامعة وأبناء وأخوة ضباط الجيش ٠

انخفض بذلك مستوى المجندين ومستوى الجيش بالتالى ٠

استمر العمل بهذا القانون حتى ١٩٤٧ أى ٤٥ عاما متصلة ٠

وخلال السنوات الاولى للحكم الثنائى فى السودان قامت عدة انتفاضات شعبية لم يذكر السير (الدون جورست) الحاكم العام شيئا عن دور الجيش المصرى فى قمعها ، مشيرا فقط الى القوات البريطانية والسودانية ٠٠٠ واذا صح ذلك فانه يشير الى خشية الاحتلال من تحريك الجيش المصرى حركة عسكرية فى مواجهة انتفاضة شعبية خشية حدوث التحام بينهما ، وخاصة ان ضباط الجيش كانوا ما زالوا يتذكرون انتفاضة عرابى ، ويقرأون سرا كلمات الزعماء والمثقفين فى مصر مثل محمد عبده وعبد الرحمن الكواكبى ومصطفى كامل وغيرهم ٠

وكان الاتجاه السائد فى الرأى العام المصرى هو الاستفادة من التناقضات الدولية ، والنضال ضد قوات الاحتلال البريطانية باعتبار مصر تحت السيادة الشرعية التركية ٠

وقد تعرض الجيش المصرى عام ١٩٠٦ لموقف شديد الحرج عندما ارادت الحكومة العثمانية ان تمد خط سكة حديد الحجاز من معان الى العقبة ثم الى قناة السويس ، وما يستتبعه ذلك من ضرورة اقتطاع جزء من سيناء ٠

وعندما وجدت قوات الاحتلال ان ذلك يهدد قواتها البحرية فى البحر الاحمر ، ارسلت قوة مصرية صغيرة يقودها مصرى هو الاميرالاى سعد رفعت لاحتلال بلدة (كابا) التى تقع على بعد ٨ أميال برا من قلعة العقبة، ولكنها عندما وصلت وجدت ان القوات التركية قد احتلتها ، واصبح الموقف يهدد بمواجهة عسكرية بين القوتين ٠

كان موقف الجيش المصرى غريبا فى هذه الازمة التى تتنازع فيها الارض المصرية دولتان اجنبيتان هما تركيا صاحبة السيادة الشرعية وانجلترا صاحبة قوات الاحتلال ٠

ولكن الرأى العام المصرى انجذب الى السلطان الذى كان اسمه يذكر فى خطب الجمعة بالمساجد ويدعى له بالنصر ٠٠٠ وناقشت الصحف صراحة احتمال تمرد الجيش المصرى وانضمامه للقوات العثمانيه باعتبارها قوات اسلامية لا يجوز معاداتها ٠

ووجدت قوات الاحتلال البريطانى انها فى مأزق يهددها بتمرد الجيش فسارعت بزيادة الحامية البريطانية واستدعت قوات هندية للدفاع عن قناة السويس ، ونشرت الصحف البريطانية مقالات تثير بها الشك فى ولاء

ضباط وجنود الجيش المصرى ، ونشرت جريدة (ديلى اكسبريس) تصف الضباط الشبان بأنهم مصدر خطر لصلتهم بالضباط الاكبر سنا او المتقاعدين وانهم جميعا يعتبرون خطرا فى حالة القلق القائمة فى ذلك الوقت .

وكان في حديث الصحيفة البريطانية اشارة غير مباشرة الى أن قوات الاحتلال كانت تختار صغار الضباط من ذوى الولاء لقبول الاحتلال دون معارضة .

واصبح مؤكدا ان قوات الاحتلال لم تعد تثق فى ولاء الجيش المصرى ، كما انها فطنت الى ان الرأى العام المصرى يلعب على التناقض القائم بينهم وبين الدولة العثمانية ... فكانت النتيجة هي زيادة الحامية البريطانية ، ووقوع حادثة دنشواى بعد شهر واحد من أزمة (طابا) التى انتهت بتفادى القتال .

ورافق هذه الحادثة نشاطعربى في تركيا . اذ كونتالجالية العربية في القسنطنطينية منظمة عربية جماهيرية في ٢ سبتمبر ١٩٠٨ باسم (الاخاء العربى العثمانى) رأسها ضابط سابقلأركان حرب التركى اسمه صادق باشا العظم مرتبطا بجمعية (تركيا الفتاة) .

ولكن انتخابات البرلمان التركي في ذلك العام وبرنامج جمعية (تركيا الفتاة) الذى نشر في اواخر هذا العام ، قد انزل ضربة حاسمة بالاوهام التى كونها القوميون العرب حول جمعية تركيا الفتاة ..

كان تعداد الاتراك ٧٫٥ مليون وتعداد العرب ١٠٫٥ مليون من مجموع ٢٢ مليون نسمة هم مجموع سكان الامبراطورية العثمانية فى ذلك الوقت .
وتكونت جمعية سرية اخرى عام ١٩١١ باسم (الجمعية العربية الفتاة) فى باريس لعبت دورا كبيرا فى تاريخ الحركة الوطنية العربية،حيث اعدت برنامجا يقوم على اساس الاستقلال العربى ومحاولة توحيد الحركات العربية المختلفة .

وفى نفس العام قامتالحرب الايطالية العثمانية (١٩١١ ـ ١٩١٤) حيث بدأت ايطاليا يوم ٣٠ سبتمبر ١٩١١ تستولى على الساحل الليبى فاحتلت طرابلس ودرنة وطبرق وبنغازى .. وفكرت الدولة العثمانية فى مرور جيشها عبر الاراضى المصرية بعد محاصرة الاسطول الايطالى لسواحل ليبيا ، كما فكرت أيضا فى الاستعانة بالجيش المصرى فى الحرب الى جانب الجيش العثمانى .
وقد أيد الرأى العام المصرى هذا الاتجاه وطالبت العناصر الوطنية ان يمر الجيش العثمانى دون استئذان الخارجية البريطانية ، ولكن بريطانيا

اسرعت باعلان حياد مصر فى الحرب تجنبا لاحتمال اشـــــتباكها مع ايطاليا ... ولم تحاول الدولة العثمانية من جهتها ارسال قوات عبر مصر ، وعنـدما اتصل بعض الوطنيين المصريين باللورد كيتشنر مطالبين بارسال قوات مصرية لمساعدة الجيش العثماني ، اجاب بأن ذلك يعني زيادة قوات الاحتــــلال .. وعندما طلب بعض الضباط التطوع وافقهم على شرط أن يجلدوا أنفسهم في الاستيداع بعد العودة .. وعندما طلب اولاد على من الاعراب التطـــوع وافق بشرط الغاء النص الذى يعفيهم من التجنيد .

ولكن ذلك لم يمنع بعض المصريين من التطوع على نفقتهم الخاصة ... وكان على رأس هؤلاء عبد الرحمن عزام امين الجامعة العربية فيما بعـــد ، وصالح حرب الذى رأس جمعية الشبان المسلمين بعد ذلك وتولى منصـــب الوزارة في احدى وزارات على ماهر ... وعزيز المصرى الذى اشــــترك فى العمليات الحربية وعين قائدا لمنطقة بنغازى وغيرهم كثير من المتطوعين .

وبدأت الاسلحة تتدفق عبر الصحـــراء الغربية الى ليبيا ، الامر الذى جعل قوات الاحتلال البريطانية تستبدل مأمورى الحدود المصريين بمأمورين من البريطانيين .

وهكذا منعت قوات الاحتلال الجيش المصرى من المساهمة فى هـــذه الحرب التى كان يدفعه اليها اتجاه الرأى العام المصرى .

وفى ذلك قال يوسف نجيب الضابط فى الجيش المصرى والذى مـات ودفن في السودان لولده محمد نجيب وهو يختار له مهنة المحاماة قبـــل وفاته (ان الجيش قوة اضافية تتلقى اوامرها من الانجليز) .

ولم يكن الجيش المصرى يتلقى اوامره من قوات الاحتلال التى يقـودها ضباطها البريطانيون فقط ولكن قواعــد جــــديدة كانت تطبق عليه ... الوحـدات السـودانية الجديدة أصـــبحت تتلقى أوامرها بالانجليزية .. وبعض الفرق التدريبية كانت تقتصر على الضباط السودانيين والعـــرب دون المصريين مثل مدافع الماكينة في مركز التدريب بملاكال ،وذلك حسب رواية اللواء محمد نجيب الذى تخرج فى المدرســـة الحربية ، وعين مثل والده فى الكتيبة ١٧ مشاة بالسودان ايضا .

وأوقف الاحتـــلال البريطاني الترقية الى رتب الضباط بين ضـــباط الصف ، واغلق بذلك الباب امام الفلاحين والفقراء وحال بينهم وبين الوصـول الى المراتب القيادية كما حدث مع احمد عرابى ... وبدأت الفروق الطبقيـــة تظهر بطريقة حادة فى صفوف الجيش ... الضباط كانوا يختارون امـــا من ابناء الضباط واما من ابناء العائلات الكبيرة الفاشلة فى التعليم دون التقيـــد

بشهادة مدرسية حتى صـــدر قانون ١٩٢٨ الذى يقصر دخـــول المدرسة الحربية على خريجى المدارس الثانوية ... اما الجنـــود فكانوا من افقر عائلات مصر .

وعادت من جديد حـــدود الترقية الى الرتب العليا ... المصريون لا يرقون اكثر من رتبة الاميرالاى ، والسودانيون لا يتجاوزون رتبة الصـــاغ ، بينما البريطانيون يبدأون من رتبة اليوزباشى الى اعلى رتب الجيش .

وحدث خلال هذه الفترة انحسار حقيقى فى حالة الجيش ... تدريبا وتسليحا وعددا .. وارتباطا بالحركة الوطنية . أيضا فقد كان البريطانيون يختارون الضباط خلال ثقوب اختيار ضيقة ، ويحاولون ان يجتـــذبوهم الى نموذج الحياة البريطانية وتقاليدها مما يعزلهم تدريجيا عن مجتمعهم .

وعندما نشـــبت الحرب العالمية الاولى وكانت تركيا ما زالت فى مرحلة الحياد ، ضغطت الحكومة البريطانية على الحكومة المصرية لمنع اتخـــاذها قرارا بالحياد وأصدرت قرارا فى ٥ أغسطس ١٩١٤ يقضى بمنع التعامل مع المانيا ورعاياها ومنع الســـفن المصرية من الوقوف فى أى ثغر المانى ... ولما نشبت الحرب بين انجلترا وتركيا فرضت الحمـــاية البريطانية على مصر واسقطت السيادة العثمانية يوم ١٨ ديسمبر ١٩١٤ .

وفى اليوم التالى مباشرة أى ١٩ ديسمبر خلع الانجليز الخديوى عبـــاس حلمى الثانى الذى كان فى القسطنطينية فى ذلك الوقت ، وعينـــوا الامير حسين كامل منعمين عليه بلقب السلطان .

واقترنت هذه الاجراءات باعلان الاحكام العرفية فى ٢ نوفمبر ١٩١٤ واصبحت السلطة العليا فى يد الجنرال مكســـويل قائد القوات الانجليزية فى مصر ، واعتقل آلاف الوطنيين من المثقفين البرجوازيين ، وعطلت الصـحف الوطنية ووضع الباقى تحت رقابة شديدة .

ولم يعتمد الانجليز فى حربهم ضد الاتراك على قـــوات الجيش المصرى اعتمادا كاملا ، بل كلفوا وحدات قليلة منه بالاشتراك فى خطة الدفاع عـــن قناة السويس ... وحسب ما كتبه الليفتنانت كولونيل كيرزى ، كان يوجد فى مصر فى اواخر عـــام ١٩١٤ ما يقرب من ٢٢ ألفا من القـــوات المصرية والسودانية ، بينما كان يوجد ٧٠ الفا من القوات الهندية والابـــسترالية والنيوزيلندية والبريطانية ثم زادت هذه القوات مع استمرار الحـــرب حتى وصلت ٢٧٥ الف جندى .

ولم يدفع الانجليز بكل قواتهم الى المعركة ... احتفظوا بحامية كبيرة فى القاهرة والاسكندرية خوفا من الانتفاضات الشعبية .

وكانت معاداة البريطانيين هى العامل المحـرك للقوى الوطنية فى ذلك الوقت ، وخاصة بعد دخول الحرب ضد الاتراك ··· وان كانت قد بذرت ونمت ونمت فكرة الاستقلال والتحرر الوطنى بعيدا عن الدولتين ·

وفى الصحراء الغربية كانت القوات المصرية تحت قيـــادة كولونيل بريطانى (سيسل سنو) بينما كان القائد المصرى هو اليوزباشى محمد صـالح حرب ــ باشا فيما بعد ــ والذى انتهز فرصـة انسحاب (سنو) من السلوم الى مرسى مطروح بعد نشوب القتال مع السنوسيين وعدم اهتمامه بمصـير قوات الحدود المصرية فى سيدى برانى وبقبق ، فانضم صالح حرب ومعه حوالى ٨ ضباط واكثر من ١٢٠ جنديا الى السنوسيين ضد البريطانيين ·

ومع ذلك فقد اشتركت وحدات مصرية صغيرة لمساعدة حركة القـوات البريطانية فى الصحراء الغربية بعد ذلك ·

الاشتراك الرئيسى للجيش المصرى فى الحرب العـالمية الاولى كان فى السودان ضد السلطان على دينار فى دار فور بعـد ان نبـذ ولاءه لحكومة السودان فى ١٠ فبراير ١٩١٦ تحت تأثير الاتراك والسنوسيين ، وذلك بعـد أن كانت قد إعترفت به حكومة السودان سـلطانا على دار فور عام ١٩٠٠ بعد استخلاصه لها من يد دراويش المهدية ·

كانت الحملة تحت قيادة ضابط بريطانى اللفتننت كولونيل (كيـلى) ولكن الضباط والجنود المحاربين كانوا من المصريين والسودانيين ··· ولقـد انتهت الحملة بانتصار الجيش المصرى ودخول (الفاشر) عاصـمة دارفور فى مايو ١٩١٦ ، وقتل السلطان فى احدى المعارك غرب دارفـور فى نوفمبر ١٩١٦ ، مما دفع الملك جورج الخامس الى ارسال برقية تهنئة عند احتـلال الجيش المصرى للفاشر ، واشادة الحاكم العام للسودان اثناء احتفاله بعيـد الهجرة (١٣٣٥ ــ ١٩١٦) فى نادى الضـباط المصريين قائلا « انه يذكر بمزيد الفخر والاعجاب الخدمة العظيمة التى قام بها الجيش المصرى وضباطه البواسل فى دارفور فانها ستبقى مسطورة بأحـرف من ذهب فى تاريـخ الجيش » ·

واضح ان الاشتراك المسلح للجيش المصرى كان محدودا ومقتصرا عـلى عمليات صغيرة او قوات مساعدة ··· ولم يحاول البريطانيون ان يجنـدوا وحدات كبيرة تدخل المعارك الحربية ، كما هو الحال بالنسـبة للقـوات الهندية مثلا ، وذلك لادراكهم ان ذلك قد يصبح مكمن خطر عليهم لان الـروح الوطنية فى الشعب كانت ملتهبة لا تخمد ·

خرجت قوات الاحتياط التى استدعيت للخـدمة يوم ٢٩ يناير ١٩١٦

من ثكنات عين شمس وسارت فى مظاهرة جماعيــة حتى سراى عابدين وهم يهتفون ضد الظلم الذى تعرضوا له لاستدعائهم عقب مدة خدمة الزامية امتــدت ست سنين ".

ولما لم يجدوا اذنا صـــاغية خرجوا فى مظاهرة فى اليوم التالى ، حيث تصدت لهم قوات البوليس ، وفرقتهم بعد ان تساقط عدد من الجرحى .

واستبدلت الحكومة البريطانية سير هنرى مكماهون المندوب الســامى البريطانى ، الذى لم يسبق له الخدمة فى مصر بالسير ويجنلد وينجت حاكم عام السودان الذى كانت له صلات متعددة مع عــدد من ضــــباط الجيش المصرى ... وقـــد ابقى السير وينجت لنفسه الاشراف على الجيش المصرى وحكومة السودان وعين سيرلى ستاك نائبا للسردار ونائبا للحاكم العـــام للسودان حتى عين سردارا وحاكما عاما فى ٩ مايو ١٩١٥ .

وقد ابتكر وينجت اسلوبا جديدا لاستغلال القـــوة البشرية المصرية وقدرتها على الصبر والتحمل والتضحية فشكلوا ما سمى (فيلـــق العمــل المصرى) ... وكانوا يحشدون فيه العمال والفلاحين للقيـــام بالاعمـــال العسكرية الشاقة مثل حفر الخنادق والآبار واقامة الاســتحكامات ومـــد السكة الحديد وأنابيب المياه عبر الصحراء ونقل الاثقال وتطهير القاذورات وكان ذلك غالبا ما يتم فى ظروف المعركة تحت نيران العـــدو مما يعـــرض افراد الفيلق لاخطار جسيمة ... الامر الذى جعل الناس يهربـــون مـــن القرى ويختفون من محال اقامتهم حتى لا تلحقهم يد (التطوع) لهذا الفيلق ، والذى أنشىء فى البداية على أساس (التطوع) شكليا ثم لما نفر الناس منه نفورا شديدا ، وعجزت السلطة البريطانية عن اغراء الناس بالاعـــلان عن الاعفاء من الخدمة العسكرية لكل من يقضى سنة واحدة فى جيش اضـــافى (أى جيوش الحلفاء) ـ تحول التجنيد له الى اجبار عام ١٩١٧ .

كان الحشد لفيالق العمل يتم ثلاث او اربع مـــرات فى العام وكل مـــرة يحشد فيها حوالى ١٣٥ الف شخص ... يبقون مدة ســـتة شـــهور ... وجاوز مجموع من دخل هذه الفيالق رقم المليون ... وبلغ عدد الضـــحايا ٣٠ الفا لاقوا حتفهم على حدود مصر او فى فرنسا والدردنيل وفلســـطين حيث امتد نطاق عملهم .

وهكذا جنـــد البريطانيون مئات الآلاف من المصريين وحشـــدوهم فى اعمال خشنة صعبة تحت ظروف شـــديدة الخطر والقسوة ... ولكن بدلا من ان يضعوا فى ايديهم السلاح وضعوا الفؤوس والمعـــاول وادوات الحفر والبناء .

كان (فيلق العمل المصرى) جيشا غير مسلح يتعرض لخطر المعارك وليس فى يده ما يدافع به عن نفسه

وخلال سنوات الحرب كانت اقتصاديات مصر قد تأثرت ، فارتفعت اسعار القطن من ١٤ ريالا عام ١٩١٣ الى ٣٨ ريالا عام ١٩١٧ واثرى كثير من التجار والمضاربين والوسطاء ، وادت الحرب وقطع الصلات التجارية الى تطوير الصناعة المحلية ، وتنشيط رأس المال المصرى وخلق مئات من المشاريع اليدوية والصناعية ... وزاد عدد العمال حتى بلغ حوالى نصف المليون عام ١٩١٧ .

ومع ذلك لم يتحرر رأس المال المصرى المتطور من وصاية السلطات الاستعمارية .. فقد أودع فى الخزينة البريطانية الرصيد الذهبى للبنك الاهلى المصرى ، وانتزعت سلطات الاحتلال العملة الذهبية والفضية واستبدلتها بأوراق نقدية عام ١٩١٦ ، وزادت كمية هذه الاوراق المتداولة حتى حدث تضخم نقدى أدى الى ارتفاع الاسعار كمقارنة مع أسعار ١٩١٤ فوصلت ٢١١٪ عام ١٩١٨ ، ٣١٢٪ عام ١٩٢٠ وخاصة للمواد الاساسية مما ارهق الفلاحين والفقراء ، الذين صادرت سلطات الاحتلال حبوبهم دون ثمن مجز ، الامر الذى أدى الى شعور كامل بالسخط ضاعفه نظام السخرة والعمل الاجبارى .

وقد أدت مشاعر السخط العفوية ، الى نمو سريع فى الاتجاهات القومية وخاصة فى صفوف المثقفين والبرجوازية الصغيرة الذين التفوا حول الحزب الوطنى ... بينما جنحت البرجوازية الكبيرة الى التعاون مع الاحتلال بعد ان تضاعفت ارباحها .

ولكن ظروف الحرب والارهاب أوقفت نمو الحركة الوطنية ودفعت بأقسام منها الى الاعمال الارهابية ... تمت محاولتان لاغتيال السلطان حسين كامل فى ابريل ويوليو ١٩١٥ ومحاولة ثالثة لاغتيال رئيس الوزراء حسين رشدى باشا فى سبتمبر ١٩١٥ .

ولم تثمر المحاولات الارهابيه الا مزيدا من ضغط قوات الاحتلال ... ومزيدا من انطواء الوطنيين على انفسهم .

وضعفت جماهيرية الحزب الوطنى التى كانت قد بلغت القمة بتأثير مصطفى كامل ، ويذكر ان ٣٢ ضابطا من حامية سواكن ارسلوا برقية الى مصطفى كامل عندما قدم عريضته المشهورة الى البرلمان الفرنسى قالوا له فيها « ان قلمك الحق امضى من سيوفنا ، وحججك القوية امضى من رصاصنا » ... وكان اخوه على فهمى كامل احد ضباط الحامية .

ولم يدر فى خاطر مصطفى كامل أن يكون عرابيا آخر • فقد كانت حركته بعيدة عن الارتباط بالجيش بعدا كبيرا ، ولذا فقد ارسل لهم ردا قال فيه « من الحكمة الا نمكن العدو من رقابنا • وانا لا أود ان يدخل ضباط الجيش فى حركتنا السياسية دخولا ظاهرا لان هذا يضر بالمسألة ضررا بليغا حيث يجد الاحتلال مسوغا لخلق التهم الثورية بمصر وغير ذلك مما لا يخفى عليكم » •

هكذا كان مصطفى كامل حريصا على عدم اثارة شبهة اتصاله بقوات الجيش علنا ، وما أظن ان القادة الوطنيين الذين برزوا بعد احمد عرابى كانوا راغبين فى الظهور بهذا المظهر تحت سيطرة قوات الاحتلال البريطانى ••• خشية من ناحية ••• وحذرا من ناحية أخرى •• ورغبة فى عدم تكرار مأساة الثورة العرابية ، وخاصة ان قوات الجيش كانت تشتت وتفنى تبعا لمخططات امبريالية •

على فهمى كامل شقيق مصطفى كامل لم يطل به المقام فى الجيش ، وخاصة بعد نشاطه مع ضباط حامية سواكن اذ حوكم وعزل من رتبته ••• ووقف بجانبه بعض الضباط من جانب الوفاء ولكنهم كانوا أعجز من أن يتحركوا حركة اعتراضية ايجابية ••• وقد مضى بعد ذلك على فهمى كامل فى خضم الحياة السياسية حتى اصبح وكيلا للحزب الوطنى •

وما أن انتهت الحرب ، حتى بادر الشعب المصرى يعبر عن ارادته •• وفى يوم الهدنة ١١ نوفمبر ١٩١٨ تقدم سعد زغلول الوكيل المنتخب للجمعية التشريعية التى توقف عملها مع اشتعال الحرب وعضوا الجمعية على شعراوى باشا وعبد العزيز فهمى بك بطلب مقابلة سير ريجنالد وينجت المندوب السامى البريطانى فتحدد لهما يوم ١٣ نوفمبر للمقابلة وهو اليوم الذى ظلت تحتفل به مصر عيدا للجهاد تعطل فيه الحكومة حتى قيام حركة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ •

ومنذ هذا التاريخ تشكل (الوفد المصرى) برئاسة سعد زغلول بناء على عرائض وقعتها الجماهير فى مختلف المديريات تفوضهم « فى ان يسعوا بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجدوا سبيلا للسعى فى استقلال مصر استقلالا تاما » •

وحينما فكر سعد زغلول ورفاقه فى السفر الى الخارج لعرض قضية مصر على المسئولين فى الحكومة البريطانية ، رفض الجيش البريطانى السماح لهم بالسفر ، وكان هو جهة الاختصاص فى سفر كافة المواطنين •

وانفجرت ثورة ١٩١٩ تحت ضغوط اصرار البريطانيين على فرض

الحماية على مصر ، وحالة الارهاب التي امتدت سنوات الحرب ، والمعاملة الخشنة والسخرة للمصريين من جانب قوات الاحتلال وارتفاع الاسعار وما صاحبها من ضائقة اقتصادية ، والتطلع الى الاستقلال التام (مصر للمصريين) بعد المبادىء التي أعلنها (ويلسن) رئيس الولايات المتحدة الامريكية .

واشتعلت الثورة بين مختلف الفئات ... بدأت بالطلبة ثم العمال والفلاحين واضراب الطوائف وتظاهر السيدات ، واخيرا اضراب الموظفين .

ولم يكن للجيش دور ايجابي في احداث ثورة ١٩١٩ ، كما كان في ثورة عرابي .

الاعوام التي انقضت بين الثورتين نفذت فيها قوات الاحتلال مخططا يقضي بفصل الجيش عن الحركة الوطنية ، وتولية نوعية خاصة من الضباط ذات جذور اجتماعية وفكرية تجعلها في موقع بعيد عن مرجل الثورة .

كان الضباط يدخلون المدرسة الحربية بتعليم محدود لا يتجاوز الابتدائية يمرون خلال مجهر استعماري خاص يفحص أصولهم الطبقية ، وهم كانوا غالبا اما ابناء ضباط معروفين ، واما ابناء اسر اقطاعية أو ثرية فشلوا وعجزوا عن مواصلة التعليم .

وقد أدى توقف النمو الفكري والثقافي للضباط الى خلق هوة واسعة بينهم وبين المثقفين الذين انجذبوا الى حضارة الغرب ، ونقلوا الافكار العصرية مبشرين بمجتمع جديد .

احمد عرابي وضباط الجيش الوطنيين كانوا اقرب ما يكونون الى مثقفي عصرهم جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده واديب اسحق وعبدالله النديم ويعقوب صنوع (ابو نضارة) وسليم نقاش وغيرهم .

اما ضباط الجيش عام ١٩١٩ فكانوا ابعد ما يكونون عن مثقفي ذلك العهد ... محمد فريد ولطفي السيد وطه حسين .

خطب لورد كيرزون الوزير البريطاني يوم ٢٤ مارس ١٩١٩ والثورة في قمة التهابها يثني على « موظفي الحكومة ورجال البوليس والجيش المصري » ويشيد بحسن سلوكهم اثناء الاضطرابات في الوقت الذي اعلن فيه ان الحكومة البريطانية لا تنوي العدول عن الحماية .

وكان رد فعل هذا الخطاب عند الموظفين لقيامهم باضراب طويل شامل بدأ في ٢ ابريل وانتهى بسقوط وزارة حسين رشدي باشا رغم الافراج عن سعد زغلول يوم ٦ ابريل وسفر الوفد بعد ذلك بخمسة ايام الى مالطة

ومنها الى باريس ··· وذلك لشعورهم بالحرج لما انطوى عليه الخطاب من اتهامهم بالانحياز الى صف الاحتلال والحماية والتنكر للحركة الوطنية ·

أما ضباط الجيش فلم يتحركوا حركة ثورية ··· ليس لانهم قد تنكروا لوطنيتهم ··· فان مواقفهم تدل على عكس ذلك ··· فقد ذهب حشد منهم بملابسه الرسمية الى بيت الامة عقب نفي سعد زغلول ، وحملوا صورته أمام مصوري الصحف ، دون أن يعبأوا بأثر ذلك عليهم ، وكان من بينهم اللواء محمد نجيب وهو ما زال في رتبة الملازم ·

والفلاحون والعمال الذين يشكلون الطبقة التي يجند منها الجنود قاموا بأعمال ثورية باهرة خلال الثورة ··· كانت الاقاليم تلتهب بالمظاهرات وقطع المواصلات والسكك الحديدية الى الدرجة التي افزعت قوات الاحتلال من حراس الغفر للسكة الحديد فاستبدلوهم بجنود بريطانيين ·

رفض الجنود ابناء العمال والفلاحين اطاعة الاوامر باطلاق النار على المتظاهرين ، كما حدث في المنيا عندما اصدر لهم البكباشي شاهين امرا بذلك ··· فأطلق هو الرصاص على المتظاهرين وقتل ثمانية منهم ·

بعض ضباط الجيش اندمجوا في خدمة قوات الاحتلال ونفذوا الاوامر بلا تردد حتى اشتهر بعضهم بالقسوة في معاملة الجماهير مثل البكباشي شاهين ، ومحمد حيدر الذى اصبح قائدا عاما للقوات المسلحة فيما بعد ·

والبعض منهم كان متعاطفا مع الثورة ··· بل مساهما فيها ··· مثل عبد الرحمن فهمي الذى كان احد اعمدة التنظيم والتنفيذ والعمل السرى في الثورة ··· وهو ضابط سابق من ضباط الجيش المصرى اشترك في الحملة المصرية بقيادة كتشنر لاعادة فتح السودان ، ثم عين ياورا لوزير الحربية عام ١٨٩٦ ثم انتقل بعد ذلك الى سلك البوليس والادارة ·

كانت القيادات العليا وقيادات الكتائب كلها للضباط البريطانيين · الذين رصدوا عيونا لهم تسجل كل كلمة ثائرة او حركة معادية ··· كما ان قوات الاحتلال تضاعفت خلال سنوات الحرب في الوقت الذى جمد فيه الجيش المصرى ، واستقرت نسبة عالية من وحداته في السودان ·

قال لى محمد نجيب انه كانت هناك (جمعية سرية للضباط الوطنيين) في السودان لا يعرف الضابط منها الا من ضمه اليها ··· وعندما حضرت لجنة ملنر كلفت الجمعية محمد نجيب بالوقوف امام نادى الضباط بالخرطوم

خلف منضدة صغيرة عليها صورة البرقية التي قرر الضباط ارسالها للاحتجاج على لجنة ملنر ، والقول بأنه لا يجوز التفاوض الا مع الوفد المصرى برئاسة سعد باشا زغلول ، حتى يوقع الضباط عليها تضامنا مع الشعب المصرى ٠

ويقول محمد نجيب ان احدا لم يتخلف عن التوقيع ولكنه فوجىء باعتقاله في اليوم التالى واغلاق نادى الضباط بأمر السردار ٠٠٠ وعرف في المعتقل بعض اعضاء الجمعية لاول مرة وكان منهم اليوزباشي احمد الصاوى الذى اصبح وكيلا لوزارة الحربية عام ١٩٣٨ واليوزباشي محمود هاشم الذى أصبح مديرا لسلاح الحدود واليوزباشي عبد الوهاب البهنساوى الذي عين فيما بعد قائدا لقسم القاهرة واليوزباشي أحمد عطية والملازم أول طبيب سليمان أباظة والطبيب البيطرى اليوزباشي سليمان عزت ٠

واحتجز الضباط في المعتقل حتى افرج عنهم بعد اسبوع تحت ضغط الضباط من زملائهم الذين ثاروا لاعتقالهم ولاغلاق النادى الذى فتح بعد اربعة ايام من اغلاقه ٠
كانت قوات الاحتلال تقبل مرغمة مثل هذه التحركات المحدودة ٠٠٠ ولكنها لم تكن تسمح ابدا بما يتجاوز هذه الحدود ٠

وقد استطاعت ثورة ١٩١٩ ان تحقق نتائج ايجابية محدودة ، اذ صدر تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ الذى اعلنت فيه انجلترا انهاء الحماية البريطانية على مصر واعلن استقلالها يوم ١٥ مارس وبذا انتهت مرحلة طويلة من عدم الاستقرار والتشتت السياسى في وضع مصر التى كانت تعتبر لفترة طويلة (ولاية عثمانية تحت الحكم البريطاني) ٠

ولكن الاستقلال الذى ظلت مصر تحتفل به يوم ١٥ مارس وتعطل فيه المصالح كان استقلالا شكليا اذ احتفظت الحكومة البريطانية بتولى الامور التالية بصورة مطلقة :

١ ـ تأمين مواصلات الامبراطورية البريطانية في مصر ٠
٢ ـ الدفاع عن مصر ضد كل اعتداء او تدخل اجنبى بالذات او بالواسطة ٠
٣ ـ حماية المصالح الاجنبية في مصر وحماية الاقليات ٠
٤ ـ السودان ٠

واستطاعت ثورة ١٩١٩ أيضا أن تجبر الاستعمار والسراى على وضع دستور ١٩٢٣ الذى تشبث به الشعب ووجد فى تطبيقه تعبيرا عن ارادته رغم انه كان ناقصا من الوجهة الديموقراطية اذ كان يعطى للملك حق

حل مجلس النواب وتأجيل انعقاده واصدار مراسيم في غيبته ٠

ومع ذلك فان القوى المعادية لانطلاق ثورة ١٩١٩ الى اهدافهـــا بادرت قبل ان تأتى وزارة الثورة الاولى الى اصدار (قانون الاجتمـــاعات العـامة والمظاهرات فى الطرق العمومية وقانون الاحكام العرفية اللذين اصـــدرتهما وزارة يحيى ابراهيم فى مايو ويونيو ١٩٢٣ ٠٠٠) كمـا عينت سفنكس باشا البريطانى مفتشا عاما للجيش ٠

عقب ذلك ظهرت فى السودان حركة وطنية بين الضـــباط المصريين والســودانيين ، وكان أبرز قادتها الملازم أول على عبد اللطيف من الكتيبة التاسعة للمشاة والذى نشر منشورا فى مايو ١٩٢٢ بعنوان (مطالب الامـــة السودانية) يطلب فيه استقلال الســـوان وضمه الى مصر ٠٠ فقبض عليه وحوكم بتهمـة اثارة الشعب والاضـطراب وفصـل من الجيش وسجن لمدة عـــام ٠٠٠ ولكنه بعد خروجه من السجن كون جمعية (اللواء الابيض) فى اجتماع عام لم يحضره مصريون ، واختاروا للجمعية علما ابيض رســـمت عليه خريطة النيل وفى ركن منهـــا المعلم المصرى الاخضر وقد كتبت عــلى أرضيته البيضاء (الى الامام) ، وكانت لهذه الاحداث انعكاســـات فى (البرلمان المصرى) ٠

ووصلت المظاهرات فى الســودان الى ذروتهـــا يوم ٩ اغسطس ١٩٢٤ عندما تظاهر طلبة الكلية الحربية بزيهم العســـكرى وهم يحملون البنادق ، واتجهـــوا الى منزل على عبد اللطيف وهتفوا بسـقوط الانجليز والحاكم العام ، الامر الذى أدى الى محاكمة على عبد اللطيف وسجنه ثلاث سنوات اخـرى ٠

واجتمعت حكومة سعد زغلول فى ١٥ اغسطس لدى الحكومة البريطانيه بخطاب تقول فيه انها تتتبع بمزيد الحزن والاسف الحـوادث التى تتوالى فى السودان ، والتى اعتبرتها نتيجة طبيعية لاسلوب الموظفين البريطانيين ٠

ولكن الحكومة البريطانية ردت بأنها اتخذت العـــدة لتعزيز الحامية البريطانية ،واجازت لحكومة السودان ان تبعد فى الحال أى وحــدة مــن وحدات الجيش المصرى يظهر منها عدم الولاء ٠

وخلال هـذه الفترة التى بدأت فيها ارهاصـات ثورة داخل الجيش وخارجه فى السودان قتل السردار العـام سيرلى ستـاك يوم ٢١ نوفمبر ١٩٢٤ فى أحد شوارع الزمالك بالقاهرة ٠وانتهزت انجلترا الفرصة وقدمت انذارا للحكومة المصرية عن طريق اللورد اللنبى الذى توجه الى سعد زغلول برئاسة الوزارة فى موكب من ٦٠٠ فارس بريطانى مطالبا بسـحب الجيش

المصرى من السودان ، وتحويل الوحدات السودانية التابعة للجيش المصرى الى قوة سودانية تكون خاضعة وموالية للحكومة السودانية وحدها على أن تصدر الحكومة المصرية بيانا بذلك خلال ٢٤ ساعة .

رفض سعد باشا زغلول الانذار وقدم استقالته يوم ٢٣ نوفمبر ١٩٢٤ بعد عشرة شهور فقط من توليه الحكم .

وأسرعت الحكومة البريطانية لتنفيذ مخططها بمحاصرة القوات البريطانية للقوات المصرية فى الخرطوم ... ورفضت الكتيبة الثالثة السفر الا بأمر وزير الحربية المصرى .

وثارت أيضا الكتيبة ١١ السودانية وحاولت الاتحاد مع الجيش المصرى فى الخرطوم بحرى فتعرضت لها قوة بريطانية ونشب قتال لم ينته الا عند منتصف الليل بعد أن نفذت الذخيرة وقتل قائدها الشهيد عبدالفضل ألمظ .

وأعدمت قوات الاحتلال ثلاثة شهداء هم الضباط حسن فضل المولى وسليمان محمد ... وثابت عبد الرحيم .. وكان رابعهم على البنا الذى نجا من الاعدام وعمل فى مصر حتى أصبح كبيرا للياوران بعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

وفصل الاستعمار ١٧ ضابطا رفضوا أن يقسموا يمين الولاء للحاكم العام وفروا الى مصر كما حضر اليها عدد من طلبة المدرسة الحربية الذين سجنوا بسجن كوبر بخرطوم بحرى .. وقد عمل هؤلاء جميعا فى الجيش أو البوليس المصرى .

وهكذا حقق الاحتلال البريطانى خطته بفصل السودان عن مصر وسحب الجيش المصرى من هناك كما حدث عام ١٨٨٥ .
وأدت انتكاسة انتفاضة ١٩٢٤ الى انحسار موجة العمل السياسى داخل صفوف الجيش وذابت الجمعيات السرية أمام المحاكمات والضغوط الارهابية .

ومع ذلك ظلت جذوة الوطنية مشتعلة فى صدور بعض الضباط ، رغم انتهاء التنظيمات الخاصة بهم ، وحدثت بعض تصرفات فردية تدل على ذلك مثل ذهاب محمد نجيب متخفيا الى منزل مصطفى النحاس باشا رئيس الوفد فى عام ١٩٢٩ عقب حل الملك فؤاد للبرلمان ومنع مجلس النواب من الانعقاد ، لوجود أغلبية وفدية ساحقة ليبلغه استعداد الجيش لمقاومة الاجراءات غير الدستورية التى يرتكبها الملك .

حضر هذه المقابلة مصادفة مكرم عبيد باشا سكرتير الوفد ومحمود

فهمي النقراشي أحد أعضائه ... ولكن مصطفى النحاس قال لمحمد نجيب انه يؤثر أن يكون الجيش بعيدا عن السياسة وأن تكون الامة مصدر السلطات ... ولو أنه يتمنى أن يكون ولاء الضباط للوطن والشعب أكثر مما هو لشخص الملك .

واذا تغاضينا عن فردية هذا الحدث فانه يستبين لنا أن الوفد المعبر عن ارادة الشعب كان لايستجيب لدعوة ضباط الجيش للتحرك ... تقديرا منه لخطورة الصدام مع قوات الاحتلال أولا في وقت لم تنضج فيه الظروف لذلك بعد ... كما أن خضوع الجيش سنوات طويلة لسيطرة قوات الاحتلال كما يبعث الحذر في جدية التعاون ... اذ كان معروفا أن اليد العليا في تحريك الجيش هي لقوات الاحتلال ، وقائد الجيش وكبار قادته كانوا من البريطانيين منذ عام ١٨٨٢ ..

عندما فكر البرلمان المصري عام ١٩٢٨ في زيادة وحدات الجيش المصري وتحسين أسلحته ومهماته وترقية التعليم في المدرسة الحربية ليصبح الدخول لها بالثانوية العامة (البكالوريا) والحد من سلطة المفتش العام البريطاني احتجت انجلترا وأرسلت ٣ بوارج من أسطولها الى الاسكندرية فاضطرت الحكومة المصرية الى التراجع ومد خدمة سفنكس باشا المفتش العام للجيش ومنحه رتبة الفريق وتعيين ضباط انجليز جنودا بالجيش .

وهكذا كان الفارق الفكري والثقافي يزداد اتساعا بين الجيش والقوى السياسية أو بين قادة الاحزاب الذين تخرجوا في الجامعات وحصل البعض منهم على شهادات عالية في الخارج .. وبين ضباط الجيش الذين كانوا حتى صدور قانون عام ١٩٢٨ القاضي بقصر دخول المدرسة الحربية على خريجي المدارس الثانوية يتخرجون وهم لايحملون أكثر من الشهادة الابتدائية .

الضباط المتطلعون الى الحياة هم الذين كانوا يواصلون دراستهم لتأكيد شخصيتهم وصقل مواهبهم كما فعل محمد نجيب مثلا عندما درس أثناء خدمته في الجيش حتى حصل على الشهادة الثانوية وليسانس الحقوق ودبلومين بعد ذلك .

واستمرت حالة الجيش على هذا المنوال ... بعدما منذ استرداد السودان عام ١٨٩٩ عن خوض أية معارك حربية ، يتعرض للنقصان وليس للزيادة ، يزداد خضوعه لقوات الاحتلال والسراي ومظهر ذلك تدخل الجيش في الانتخابات بالاقاليم وخاصة في الانتخابات التي أجراها اسماعيل صدقي بعد الغاء دستور ١٩٢٣ وعمل دستور جديد ضد ارادة الشعب عام ١٩٣٠ .

نشرت مجلة روزاليوسف في عددها أول يوليو ١٩٣٠ ان زيارةالنحاس باشا الى الزقازيق مرت بسلام ، فأحيل قائد قوة الجيش الصاغ محمد أمين الى الاستيداع دون تحقيق .

ونشرت أيضا خبر تعيين اللواء عبد العظيم باشا على قائدا لحصار البرلمان وكان قبل ذلك قائدا لقوة المنصورة حيث جرت اضطرابات شديدة وسقط فيها بعض الجرحى ، ثم عين لحراسة النادى السعدى وقد صرح بأنه يكون سعيدا يوم يفرغ رصاص مسدسه فى رأس مصطفى النحاس باشا .

وهكذا كانت حالة العسكريين فى مصر ، عندما عقدت معاهدة ١٩٣٦ ... لم يكن الجيش قوة سياسية ولم يكن خاضعا لقيادة وطنية ... وكان الاستعمار يسعى جاهدا لتغطية دوره الحربى التاريخى ،ونضاله مع جماهير الشعب ، تحت ستار من النسيان .

وكانت معاهدة ١٩٣٦ بذلك نقطة تحول فى تاريخ مصر الحديث .. ونقطة تغيير فى واقع العسكريين المصريين وفى تفكيرهم .

الباب الثانى
الجيش والحركة السياسية فى مصر قبل الثورة

الفصل الرابع   نضال الشعب ... وموقف الجيش .. بعد معاهدة ١٩٣٦

(لن نطلق الرصاص على مظاهرات الطلبة والعمال)

قسم بعض ضباط الجيش اثناء وزارة اسماعيل صدقى
عام ١٩٤٦

الفصل الخامس   حرب فلسطين

(اننى متفائل ونحن نعرف قوة اليهود ، وانا احب اطمئنك الى ان الانجليز هم الذين شجعونى على ذلك)

محمود فهمى النقراشى لفؤاد سراج الدين
فى مجلس الشيوخ يوم ٢٢ مايو ١٩٤٨

الفصل السادس   الضباط الاحرار

(الشعب والجيش يقفان اليوم بالمرصاد لكل حركة ترجع بنا الى الوراء ... ان الشعب والجيش سيحطمان أى محاولة لضرب الحركة الوطنية ... لقد أيدنا الحكومة الوفدية فى خطواتها التى اتخذتها بالغاء المعاهدة الاستعمارية)

منشور للضباط الاحرار

الفصـــل الرابع

نضال الشعب وموقف الجيش بعد معاهدة ١٩٣٦

(لن نطلق الرصاص على مظاهرات الطلبة والعمال) •

قسم بعض ضباط الجيش

أثناء وزارة اسماعيل صدقى عام ١٩٤٦

الضمور الذى عانى منه الجيش المصرى ، والعـزلة عن المجتمـع التى فرضت عليه ، والخضوع المطلق لسلطات الاحتلال والسراى ، تغـيرت مـع عقد معاهدة ١٩٣٦ الى حد كبير ، ولم يعد الجيش محدودا بعدد ١٥ر٠٠٠ جندى فقط •

وقد عقدت معاهدة ١٩٣٦ فى ظروف كان الاحتلال البريطانى يجـــابه فيها موقفا لم يتعرض له من قبل ••• تناقضات الامبريالية العالمية تشـــتد وتقترب من حرب عالمية ••• ايطاليا تغزو الحبشة وتنتصر عليها والامبراطـور هيلاسلاسى يهاجر الى انجلترا •• والنازية تصل الى الحكم فى المانيا •• الحركة الوطنية تشتعل من جديد ضد دستور صدقى ، وتعم المظـــاهرات مصر ، ويسقط عدد من الشهداء •

ووصف النحاس باشا هذه المعاهدة بأنها (وثيقة الشرف والاستقلال)

ولكنها لم تكن كذلك ... فقد كان فى بنودها سلبيات وايجابيات .

أمنت المعاهدة نوعا من التحالف المشترك مثل الذى تم بين بريطانيا والعراق عقب انتهاء الانتداب فى اكتوبر ١٩٣٢ ، وبينما اعترفت المعاهدة بسيادة مصر على أراضيها وحرية التصرف فى الشئون الداخلية الا انها نصت على ضرورة التزام مصر بعدم انتهاج سياسة خارجية تتناقض مع التحالف ، كما نصت على وضع مميز للسفير البريطانى يتقدم به سائر الدبلوماسيين الاجانب .

واحتفظت بريطانيا بقواعد بحرية فى مصر ، مع حقها فى استخدام التسهيلات لقواتها التى تنسحب الى منطقة قناة السويس بعد ٨ سنوات، وقد اعترفت بريطانيا بسيادة مصر على القناة ، كما اعترفت مصر بأن القناة وسيلة دولية للمواصلات ، وانها وسيلة مواصلات حيوية بين الاطراف المختلفة للامبراطورية البريطانية ، وان من حق بريطانيا ان تبقى قواتها فى منطقة القناة الى الوقت الذى تصبح فيه مصر قادرة عسكريا على حماية القناة ، كما أن للجيش البريطانى حق العودة فى حالة الحروب أو خطر الحرب .

واعطت المعاهدة بريطانيا حق المطالبة بفرض الطوارىء واعلان الاحكام العرفية فى حالة قيام الحرب .

قال مستر ايدن امام مجلس العموم البريطانى يوم ٢٤ نوفمبر ١٩٣٦ ان السبب الذى دعا حكومة انجلترا الى التنازل عن احتلال القاهرة والاسكندرية والاقتصار على منطقة قناة السويس ، هو أن قوات انجلترا أصبحت ميكانيكية تستطيع الحركة فى سهولة على الطرق المعبدة .ولذا نصت المعاهدة فى ملاحقها على أن تقوم الحكومة المصرية ببناء تكنات القوات البريطانية فى الاماكن التى تحددها ، مع انشاء شبكة طرق بمواصفات خاصة عرفت باسم (طرق المعاهدة) بين القاهرة والاسكندرية وبور سعيد والاسماعيلية والسويس وغيرها .

والطريف ان المعاهدة قد أعطت للقوات الجوية المصرية حق الطيران فى اجواء بريطانيا ، لانها اعطت للقوات الجوية البريطانية حق الطيران فى الاجواء المصرية كلها .

معاهدة ١٩٣٦ لم تحقق اهداف ثورة ١٩١٩ .
ومع ذلك لم تكن المعاهدة قيودا كلها ... كانت هناك ايجابيات حققت جانبا من اهداف الجماهير ..

ألغيت الامتيازات والمحاكم المختلطة ، وأصبحت مصر عضوا فى عصبة

الامم فى مايو ١٩٣٧ ، واقترب الاستقلال الشكلى الذى ورد فى تصريح فبراير ليكون اكثر واقعية رغم بقاء نفوذ وسلطة قوات الاحتلال ٠

وعادت القوات المصرية الى السودان بعد سحبها عام ١٩٢٤ ، واستقبلتها الجماهير هناك بترحيب كبير ٠

وحددت المعاهدة مدة عشرين عاما لبقاء القوات البريطانية فى مصر واقترن ذلك حسب نص المعاهدة بقدرة مصر على حماية القناة ٠

وكان ذلك حافزا على تطوير الجيش المصرى وانقاذه من جموده وعزلته وتشكل مجلس الدفاع الاعلى ،وعين اللواء محمود شكري باشا قائدا للجيش المصرى بعد سفنكس باشا الذى خرج من قوة الجيش المصرى هو وجميع الضباط البريطانيين ٠

وكانت المعاهدة قد نصت ايضا على ان تقوم بريطانيا بتدريب الجيش المصرى وتزويده بالسلاح ٠٠٠ ونشكلت البعثة البريطانية من ضباط بريطانيين انتشروا فى مختلف اسلحة الجيش ، وكان لهم نفوذ كبير فى التوجيه والتدريب ٠٠٠ بعض هؤلاء الضباط كانوا صف ضباط فى الجيش البريطاني وحصلوا على الترقيه عند الالتحاق بالجيش المصرى ولم يعينوا فى رتبة اقل من يوزباشى ٠٠٠ واتخذت البعثة البريطانية مقرا لها مبنى فى كوبرى القبه مجاورا للمستشفى العسكرى العام ٠

وبدأ مجلس الدفاع الاعلى برسم سياسة جديدة لزيادة الجيش ٠٠٠ ففتح أبواب المدرسه الحربيه التى تحولت الى كلية بعد المعاهدة لدفعات وصلت الى عدة مئات وخاصة عند اقتراب الحرب العالمية الثانية بعد ان كانت الدفعة لا تتجاوز العشرين او الثلاثين طالبا ٠

فتح ابواب الكلية الحربية لهذا العدد الكبير نسبيا فى وقت كانت المدارس الثانوية فيه محدودة ولا توجد الا جامعة القاهرة وحدها ، ضيق من امكانية تحديد نوعية معينة من المقبولين ، وجعل عناصر جديدة من الطبقة الوسطى النامية تتسرب الى صفوف الجيش ، رغم وجود لجنة تكشف على المتقدمين (كشف هيئة) تفرز فيه أصولهم العائلية والاجتماعية ٠

ولكن المقبولين عموما كانوا فى حدود القادرين على دفع مصروفات الكلية التى كانت ستين جنيها فى العام وهو مبلغ كبير اذا قدربمتوسط الدخل العام ومرتب خريج الجامعة الذى لم يكن يتجاوز ثمانية جنيهات فى الشهر عدلت فيمابعدلتصبح ١٢ جنيها ٠ ولكن قدرةالدولة علىاستيعاب

الخريجين بهذا المرتب كانت محدودة ، الامر الذى خلق بطـالة بين المتعلمين أو اضطرارهم للعمل بمرتبات أقل ٣٠٠ وأغرى فى نفس الوقت عددا كبيرا من حملة الثانوية العامة على الالتحاق بالكلية الحربية لضمان الوظيفة والمرتب الكبير نسبيا .

واعد المجلس الاعلى للدفـاع خطة لتطوير الجيش وتسليحه عام ١٩٣٨ فى حدود مبلغ ٣٠٠ مليون دولار ، ولكن ذلك لم يتحقق لان شروط المعاهـدة كانت تنص على ضرورة التسلح من بريطانيا فى وقت كانت تحتاج هى فيـه لكل قطعة سلاح لما كان يبدو فى الافق من اخطـار حرب عالمية ثانية لم تلبث أن اندلعت عام ١٩٣٩ واستغرقت جهد بريطانيا مما ترك الجيش المصرى دون تسليح يتناسب مع الرغبة فى الوصول به الى مسـتوى معقـول بعد عشرات السنين من الضمور .٠

ولم تكد وزارة الوفد التى أتت بها الانتخابات تبدأ تنفيذ سياستهـا حتى اقيلت فى ٢٩ ديسمبر ١٩٣٧ وكان الملك فاروق قد تولى سـلطاته الدستورية فى ٢٩ يوليو من ذلك العام وهو فى الثامنة عشرة من عمره .

وهكذا عصف الملك بارادة الشعب وبروح الدستور وعين محمـد محمود رئيس حزب الاحرار الدستوريين رئيسـا للوزراء وتولت الحكم وزارات احزاب الاقلية ، وكان قد انضم اليها حزب جديد هو الحزب السـعدى الذى انشق على الوفـد وتشكل برئاسة احمد ماهر باشا ومعه محمـود فهمى النقراشى باشا ، ولعب دورا كبيرا فى خدمة الرأسماليين المصريين ، فأصبـح احمد ماهر رئيسا لمصانع نسيج القاهرة بعد ان كان من تقاليد اعضاء الوفـد عدم تولى مناصب الادارة فى الشركات .

ولعب الجيش دورا سافرا فى تزييف ارادة الشعب أثنـاء الانتخابات التى اعقبت اقالة الحكومة الوفدية ، لان الوفد رغم كل شيء كان يمثـل القوة السياسية الشعبية القادرة على نيل اغلبية الاصوات ومقاعد البرلمان فى انتخابات ديمقراطية حرة .

وزعت وحدات الجيش على الاقاليم ووضـعت تحت تصرف رجـال الادارة يستعينون بها وقت الحاجة كما حدث فى سمنود مثـلا وهى بلد مصطفى النحاس باشا التى رشح نفسه فيها ، عندما فتحوا الكوبرى لتعطيـل المرور وانتقال الناخبين .

يروى اللواء صلاح الحديدى قائد المخابرات الحربية فيمـا بعـد ان العمدة دعا الضباط من رتبة البكباشى فما فوق الى مأدبة عشـاء ليلـة الانتخابات تأييدا للمرشح المضاد للنحاس وكان اسـمه على النزلاوى ...

وفى الصباح عندما ظهر التدخل سافرا ابلغ المرشحون النيابة التى قامت باستجواب الضباط ... ولم يتردد صغار الضباط فى القول بأنه حدث تدخل فعلا لمصلحة المرشحين المعادين للوفد ... ولكن التحقيق لم ينته مع ذلك الى قرار .

وخرج الوفد من الحكم بعد ان أدى الدور الذى رسمه الاحتلال له فى تكوين جبهه وطنيه تقر معاهدة تتيح حدا أدنى من الاستقرار فى ظروف اقتراب خطر حرب عالميه ... وانبت ذلك أن معاهدة ١٩٣٦ لم تحقق المضمون الحقيقى للاستقلال الوطنى ، ولم ترسخ القواعد الديمقراطيسة فى المجتمع .

وكان ابعاد الوفد عن الحكم ... ابعادا له عن النفوذ الى الجيش ايضا ... حيث كان الدخول الى الكليه الحربيه يتم خلال لجنه تشكل من بعض كبار القدة الخاضعين خضوعا كاملا لنفوذ السراى مما لم يتح للوفد فرصه تسريب عناصر كثيرة من أبناء أنصاره الموالين له فى العاصمه والاقاليم الى صفوف الجيش ، علاوة على بث روح من الجفاء بين الجيش والوفد باعتباره تنظيما يضم جماهير الشارع التى تتنافر فى حركتها مع النظام والانضباط الذى يسود الجيش ، والذى كان كبار الضباط الذين دخلوا الجيش من تقوب الاحتلال يتشبثون به باعتباره المظهر الوحيد لقدرتهم وسلطتهم .

وكان الركود الذى اصاب الجيش خلال السنوات الماضية قد انعكس عليه ، عزله عن الجماهير وعن الحركه الوطنية ... وخاصة فى مناصب القيادة العليا ، بينما كان صغار الضباط المتخرجين فى الكلية الحربية ، والمتدفقين اليها فى دفعات متتالية بلغت ثلاث دفعات فى كل من أعوام ١٩٣٧ ، ١٩٣٨ ، ١٩٣٩ يحمل البعض منهم معه الى الكليه افكار الطلبة الذين تظاهر معهم من أجل عودة دستور ١٩٢٣ ، وسقوط الاستعمار .

وعندما نشبت الحرب العالمية الثانية فى سبتمبر ١٩٣٩ بادر على ماهر الذى كان قد تولى الوزارة بعد اقالة محمد محمود باشا فى شهر اغسطس الى اعلان الاحكام العرفية تنفيذا لمعاهدة ١٩٣٦ ، والتى قضت بتوقيع عقوبات شديدة لا على كل من يرتكب الجرائم الضارة بأمن الدولة فقط ، وانما على كل من يرتكب أضرارا ببلد حليف أو شريك لمصر فى العمل ضد عدو مشترك ... وكان الغرض هو حماية انجلترا حماية كاملة .

والغريب ان على ماهر الذى تولى الوزارة بعد رئاسته للديوان الملكى لم يكن له حزب ولا عضو واحد فى البرلمان .

كان العبث بالدستور واقالة حكومة الوفد فاتحة لمزيد من العبث ومزيد من الاقالات ٠٠٠ حتى على ماهر نفسه لم ينج منها عندما تلكأت وزارته في موقفها ازاء رعايا ايطاليا التى أعلنت الحرب فى ١٠ يونيو ١٩٤٠ فاجبر على الاستقالة فى ٢٨ يونيو وخلفه حسن باشا صبرى على رأس وزارة من الدستوريين والسعديين والحزب الوطنى الذى اشترك فى الحكم لاول مرة لانه كان يرفض دائما الاشتراك فى الحكم قبل اتمام الجلاء ٠

الجيش والحرب العالمية الثانية

لم تعلن مصر الحرب على المحور ، ولم يدخل الجيش المصرى فى اطار جيوش الحلفاء ، ولم تستعن به بريطانيا فى عمليات حربية خارج حدودمصر، كما استعانت بجيوش الهند والسودان وليبيا وغيرها من الدول الافريقية ٠

بلغ عدد الجنود السودانيين فى صفوف الحلفاء ما يقارب سبعين الف جندى ،اشترك منهم حوالى ستين الفا فى معارك ليبيا والصحراء الغربية ٠٠٠

ومع ذلك كان الجيش المصرى رغم تواضعه عددا وعدة محل اهتمام القوات البريطانية التى حاولت فى البداية ان تحتويه وتستعين به فى عملياتها الحربية ، ثم تراجعت عن ذلك لما لمسته من خطورة تحريك الجيش فى ظروف لايحمل فيها الشعب أى ارتياح لقوات الاحتلال ٠

ورفض عزيز المصرى رئيس اركان حرب الجيش فى ذلك الوقت اشراك المقاتلات المصرية فى خطه الدفاع البريطانية بدعوى ان مصر لم تعلن الحرب على ألمانيا ، كما رفض تحريك قوات مصرية الى سيوة ضمن خطة الدفاع عن الصحراء الغربية ٠

وكان الجنرال سير هنرى ميتلاند ويلسون قد عثر اثناء فحص الاوراق الايطالية التى وجدها فى مقر رئاسة القوات على الخطة الدفاعية البريطانية عن الصحراء الغربية وهى الخطة التى كان قد ارسلها الى عزيز المصرى منذ شهور ٠

وطلب الانجليز اخراج عزيز المصرى وأذعن على ماهر لهم فمنحه أجازة لأجل غير مسمى ٠

ويقول قائد الجناح عبد اللطيف البغدادى عضو مجلس قيادة الثورة فيما بعد ان الطيارين المصريين قد اشتركوا بعد ذلك فى خطة الدفاع عن القاهرة مع اسراب الطائرات البريطانية ، من مطار حلوان ، وخاصة بعد

ان دمرت الغارات الالمانية ۲۰ مقاتلة بريطانية ۰۰۰ ولكن ذلك لم يستمر سوى شهور معدودة تغيرت بعدها الظروف ، وانعـدمت ثقة البريطانيين في امكانية التعاون مع الجيش المصرى ٠

وكان خروج عزيز المصرى من الجيش بداية لاتصالات سرية قام بها مع عدد من الضباط الذين وجدوا في الاتصال بالالمان فرصة لتحرير مصر من القوات البريطانية دون تقدير سليم لابعاد الفكر النازى القائم اساسا على التعصب والتفرقة العنصرية ٠

وقد بدأت محاولات الاتصال بالالمان في مجال سلاح الطيران حيث امكانية الحركة متوافرة ۰۰۰ وكانت قد تكونت عام ۱۹۳۹ مجموعة من قادة الاسراب والطيارين عبد اللطيف البغدادى وحسن ابراهيم وحسين ذو الفقار صبرى وعبد المنعم عبد الرؤوف ووجيه أباظة واحمد سعودى وحسن عزت وانضم لهم فيما بعد ضابط الاشارة أنور السادات ٠

وكان محور تفكير هـذه الجماعة هو ضرورة خلق دور للشعب المصرى في المعركة الدائرة على ارضه بين الحلفاء من جهة والقوات الفاشية والنازية من جهة اخرى ٠
وكانت هذه المجموعة منبهرة بالدعاية والنظم النازية ، تتطلع الى الانتصارات الاولى لالمانيا وترى خلالها النتيجة الوحيدة المحتملة للحرب العالمية الثانية ٠

وعندما تقدم رومل في هجومه السريع نحو الاسكندرية قررت هـذه المجموعة ارسال قائد السرب احمد سعودى مندوبا عنهم الى رومل لشرح وجهة نظرهم في التعاون ضد بريطانيا ۰۰۰ واعدوا له حقيبة من المستندات بها مفجر يفجرها عند الخطر ۰۰۰ وكلف حسن ابراهيم عضو مجلس قيادة الثورة فيما بعد بحمل الحقيبة الى سعودى حتى الطائرة بعد اختفائه في احد الخنادق ، كما كلف وجيه اباظة باعداد خط سير الرحلة ٠

لم يصل احمد سعودى الى الالمان ، سقطت طائرته واذاعت الاذاعة الالمانية خبر اسقاط طائرة قتال بريطانية اقتربت من مرسى مطروح ۰۰۰ وحوكم حسن ابراهيم باعتباره ضابطا مناوبا وتأخرت اقدميته ليصبح آخر دفعته ونقل الى المهمات ٠

ولم تتوقف محاولة الاتصال بالالمان بعد اختفاء طائرة سعودى ۰۰۰ سلك نفس السبيل الصول الطيار محمد رضوان الذى كان وجيه أباظه قد استعان به في وضع الخطة ٠ ووصل رضوان فعلا الى القوات الالمانية حيث تعاون معها تعاونا كاملا الى ان اعتقل في برلين عندما دخل الحلفاء

وحوكم بمجلس عسكرى بعد انتهاء الحرب وحكم عليه بالسجن ١٥ عامـــا ، ٨٠٠٠ جنيه غرامة حتى أفرج عنه بعد الثـورة ، وعمل بعـد ذلك فى ادارة الشئون العامة للقوات المسلحة ٠

ولم تكن هذه هي المحاولات الوحيـــدة للاتصال بالالمان ٠٠٠ عـــزيز المصرى ايضا قام بهذه المحاولة عقب اشتعـال ثورة رشـيد عالى الكيـلانى فى العراق ، وكان عزيز المصرى على اتصال بالالمان ، الذين اعدوا معـه خطـة للهرب بهبوط طائرة المانية فى منطقة (جبل رزه) على طـــريق الواحـات البحرية ٠

وكان مفروضا أن يقود قائد الجناح عبد المنعم عبد الرؤوف سـيارة عزيز المصرى الى المنطقة المحددة ليستقـل الطائرة ولـكن الحـظ لعب دوره وتعطلت السيارة قرب منطقة الاهرام ٠٠٠ وفشلت خطة الهرب ٠

ولكن عزيز المصرى لم يقنع بذلك ٠٠٠ أصر على الهـــرب مرة اخرى بطائرة مصرية كان يقودها له حسين ذوالفقار صبرى وعبد المنعم عبد الرؤوف٠

ولكن الطائرة لم تحقق هدفها لان الميكانيكى اخطأ فقفل مفتـاح الزيت بدلا من فتحه ٠٠ ولم تكد تحلق الطائرة حتى هبطت فى قليوب فى احدى الحدائق ٠٠٠ ولجأ عزيز المصرى الى مأمور المركز الذى كان تلميذا له فى كلية البوليس فأعطاه عربته دون أن يعرف سر رحلته الفاشلة ، أوصلته الى ميدان الاوبرا ثم لجأوا الى مدرس فى امبابه كان عضوا بجماعة مصر الفتاة ٠

وكان هذا المدرس مراقبا من البوليس بحثا عن احمـــد حسين رئيس حزب مصر الفتاة الذى كان هاربا وقتهـــا فى طنطا كـدرويش من دراويش السيد البدوى ٠٠٠واعتقل عزيزالمصرى وحسين ذو الفقار صبرى وعبدالمنعم عبد الرؤوف لمـــدة تزيد عن عام ونصـــف الى أن أفـــرجت عنهم وزارة الوفد فى مارس ١٩٤٢ واعادتهم للجيش مع نقـــل حســين ذو الفقار الى السودان وعبد المنعم عبد الرؤوف الى المهمـــات ، حيث لم يعد بعدها للطيران أبدا ٠٠ وكان قد نقل مع اعتقالهم ٢٣ ضابطا من الطيران الى أسـلحة الجيش المختلفة ٠
وانتهى عمل مجموعة الطيران مـــع فشل رحلة عزيز المصرى وانتهت صلاتهم التى لم تكن تنظيمية بالمعنى المعروف للتنظيم ، وانما كانت تضـمهم رابطة صداقة ووحدة هدف وطنى ٠

وكان هناك اتصال آخر بالالمان وضباط الجيش المصرى عن طـريق انور السادات وحسن عزت اللذين قدم لهما عبد الغنى سـعيد اثنين من رجـال

المخابرات الالمانية هما (هانز ابلر) الذى تزوجت والدته الالمانية من مستشار مصرى (صالح جعفر) فى المانيا ، ثم حضرت الى مصر ومعها ابنها الالمانى الصغير ، واراد الزوج المصرى أن يوفر لابن زوجته حياة مطمئنة . فأعطاه لقب اسرته وعرف باسم (حسين جعفر) ، ولكنه انحرف عن حياة المجتمع المصرى وهاجر الى وطنه المانيا ليعود بعد ذلك عميلا لمخابراتها هو وزميل آخر اسمه (ساندى) .

وقد انتهى اتصال انور السادات وحسن عزت بهما الى اعتقال الجميع فى اغسطس ١٩٤٢ بعد افتضاح أمر الجواسيس الالمان الذين اقاموا فى عوامة مع الراقصة حكمت فهمى .

وجرت محاولة لمحاكمة انور السادات وحسن عزت امام مجلس عسكرى يضم بعض الضباط الانجليز بتهمة التجسس ، ولكن محمد نجيب مساعد نائب احكام الجيش فى ذلك الوقت اعترض على تكييف التهمة ، وانتهى الامر بطردهم من الجيش فى ٨ اكتوبر ١٩٤٢ ثم اعتقالهم حتى نهاية الحرب .

وكان الضباط المصريون قد اخذوا موقف المقاومة عندما ظهرت بوادر تنفيذ الخطة البريطانية لنزع سلاح الجيش المصرى اذا حاول مقاومة البريطانيين ... وقد ظهر ذلك فى محاولة سحب الدبابات المصرية بدعوى شرائها بعد معركة (دنكرك) ورفض ضباط الوحدات المصرية تسليم اسلحتها كما حدث فى حامية منقباد ، وفى الصحراء الغربية حيث رفضت الوحدات المصرية تسليم اسلحتها للقوات البريطانية التى ستحتل مواقعها وعادوا بها الى القاهرة كاملة .

وكانت الصحراء الغربية فى ذلك الوقت هى المنفى الذى ينقل اليه الضباط الذين تظهر عليهم أية ميول سياسية ... نقل اليها انور السادات بعد الاشتباه فى تحركاته ، وتشكلت هناك مجموعة كان فيها مجدى حسنين احد الضباط الاحرار ومؤسس مديرية التحرير فيما بعد ، وكان هدف هذه المجموعة تدمير مهمات ومعدات الجيش الانجليزى ... وقاموا فى سبيل ذلك بالاتصال مع ضباط الفرقة الرابعة الهندية لاثارتهم ضد القوات البريطانية ، وقد حوكم أربعة من الهنود فعلا فى (فوكة) ونفذ فيهم حكم الاعدام لانهم رفضوا الخروج للحرب .

ومن مصادفات هذه الفترة ان قافلة عسكرية مصرية من ٦٨ عربة كانت متجهة الى سيوه تحمل تموينا لها وللتأكد مما اذا كانت محررة أو سقطت فى يد القوات النازية .. وعند العودة عثر مجدى حسنين قائد

هذه القافلة على ٦ عربات مهجورة للفرنسيين الاحرار وكان بها ٦ صناديق قنابل يدوية (٧٢ قنبلة) حملها الى الطيار حسن عزت ٠

وكانت هذه هى القنابل التى استخدمت فى الاعمال الارهابية بالقاهرة فيما بعد انتهاء الحرب العالمية .

زاد الشعور المعادى لبريطانيا مع استمرار الحرب ، وفشلت أحزاب الاقلية فى قيادة الدولة ، حتى بلغت ازمة التموين حدا اشاع القلق والسخط ، واطلق المظاهرات فى شوارع القاهرة ، واجبر بريطانيا على الاقتناع بضرورة رفع الحظر الذى فرضته على السراى ضد حكم الوفد ٠
كان الاستعمار البريطانى على حذر شديد من قيام ثورة شعبية فى مصر ضد صفوفه الخلفية ، ولذا فانه عندما ظهر فى الافق خطر الهجوم النازى رأوا ان يعيدوا الوفد الى الحكم ضمانا لسيطرته على الشعب فى هذه المرحلة الحاسمة ، وخاصة بعد ان كان الملك وبعض المحيطين به على استعداد كامل للتعاون مع الغزاة الفاشيين والنازيين ٠
ولما تلكأ الملك فاروق فى الاستجابة لارادة الحكومة البريطانية لاستمرائه الحكم فى ظل حكومات ضعيفة تابعة ، ولأمله فى ان يتغير مسار الحرب لصالح المحور ، قدم السفير البريطانى انذارا للملك يوم ٤ فبراير ١٩٤٢ بعد ان كانت وزارة حسين سرى قد استقالت يوم ٢ فبراير ٠٠٠ وحاول رئيس الديوان احمد حسنين المراوغة لتشكيل وزارة قومية رغم مقابلة السفير له يوم ٣ فبراير ، وطلبه أن يعهد الى النحاس بتشكيل الوزارة ، وهو تدخل كان يعتبر حتى هذه اللحظة طبيعيا فى مجال السياسة المصرية ٠٠ ولكن مراوغة الملك استمرت حتى يوم ٤ فبراير فقدم السفير انذارا هذا نصه « اذا لم اعلم اقبل السادسة مساء ان النحاس باشا قد دعى لتاليف الوزارة فان الملك فاروق يجب ان يتحمل تبعات ما يحدث » ٠٠ ولما لم تتم استجابة فورية لذلك حاصرت الدبابات قصر عابدين فى الساعة التاسعة مساء ، ودخل السفير وقائد القوات البريطانية وامامهم ثمانية ضباط يحملون المسدسات ، ودخل السفير على الملك فى مكتبه وكان بجواره احمد حسنين فخيره بين التنازل او تشكيل وزارة وفدية فقبل الحل الثانى فورا (٢٩) ٠
أدت مظاهرة السفير العسكرية ، ودعايات احزاب الاقلية الى الاساءة للوفد ، واصبح ٤ فبراير مطعنا يطعنه منه كل معاد له او كل من لم يكتشف حقيقة دور السراى المتعاونة مع السلطة الإجنبية فى الجذور ، او الذين جرفتهم الوطنية الى قبول الافكار الفاشية دون بحث او تمحيص ٠

---

(٢٩) من اسرار الساسة والسياسة محمد التابعى ٠

ولذا ترك حادث ٤ فبراير في الجيش تأثيرات بعيدة المدى ... قدم اللواء محمد نجيب استقالته ، ولكن الياور عبد الله النجومي السوداني الاصل اقنعه بسحبها ، واجتمع ضباط سلاح الطيران وقرروا تسجيل اسمائهم في سجل التشريفات ، وذهب عبد اللطيف البغدادي وعبد الحميد الدغيدى الى احمد حسنين رئيس الديوان ليحصلوا منه على تقييم لموقف مصطفى النحاس (حتى اذا كان خائنا يقتل) على حد تعبيرهم ، ولكن احمد حسنين ابلغهم انه سيرفع الامر الى مولاه ليتصرف بحكمته ، واوقف مجدى حسنين حفلا في نادى الضباط بالاسكندرية اقيم بمناسبة عيد ميلاد الملك فاروق في ١١ فبراير أى بعد الحادث بأسبوع وكانت تشترك فيه الراقصة ببا عز الدين والمطرب جلال حرب ، وقام البكباشي محمد كامل الرحماني بحركة نشطة في الجيش تأييدا للملك وانتهت بتشكيل مجموعة متعاطفة معه كنت واحدا من اعضائها هدفها منع البريطانيين عند انسحابهم امام الالمان من تدمير المنشئات المصرية مثل الكبارى والجسور وانتهى به الامر الى اعتقاله هو والقائمقام فؤاد صادق الذى أصبح قائدا للقوات المصرية المقاتلة في حرب فلسطين بعد ذلك .

لم تكن هذه هي حوادث الاعتراض والاحتجاج الوحيدة ، فقد كان معظم ضباط الجيش قد تأثروا بهذا الحادث من الوجهة الوطنية ... وأثر ذلك على اتجاهاتهم السياسية وابعدهم عن الوفد ... وقد تأثرت حقيقة عندما قال لى كمال الدين حسين عضو مجلس الثورة فيما بعد قراءته لمذكرات كليرن ووثائق الخارجية البريطانية من اكتشافه ان النحاس كان بريئا في ٤ فبراير ...

البراءة بعد ٣٠ عاما تصبح كلمة في التاريخ ولكن ادراك حقيقتها في حينها كان كفيلا بتغيير كثير من الامور .

وانتهز الملك هذه الفرصة ، فأكثر من زيارته لنادى الضباط بالزمالك ... وكانت هذه الفترة هي بداية ظهور حركات سرية بين ضباط الجيش بعد ركود طويل اعقب حادث السودان عام ١٩٢٤ وسحب الجيش المصرى من السودان .

وقد بلغت الاثارة بين الضباط حدا جعل ضابطا في مصلحة خفر السواحل اسمه شبانة يلقى حذاءه على رئيس الوزراء مصطفى النحاس عند خروجه من مسجد الرفاعى بعد الصلاة فيصيب عربة عبد الحميد عبد الحق احد الوزراء الوفديين ، وتطوع عدد من الضباط للشهادة معه رغم عدم وجودهم في مكان الحادث كان منهم اليوزباشي عز الدين ذو الفقار

المخرج السينمائى فيما بعد والملازم مجدى حسنين .

وحتى هذه اللحظة كان المحرك الرئيسى لاتجاهات الضباط هو الامل فى انتصار الالمان وهزيمة البريطانيين .. ولذا كانت هزيمة رومل فى معركة العلمين امام الفيلد مارشال مونتجومرى نقطة تحول هامة فى تفكير الضباط الذين استبدت ببعضهم الحيرة وهو يرقب الهزائم المتتالية تلحق بالجيوش النازية التى صورتها الدعاية فى صورة القوات التى لاتقهر .

ولم يكن الضباط يتحركون وحدهم فى عزلة او فى فراغ ... كانت لهم صلات بالقوى السياسية خارج الجيش .

ومع ذلك لم تحل ارهاصات العمل السياسى والوطنى داخل الجيش المصرى بينه وبين تنفيذ واجبات محددة ضمن خطة الدفاع البريطانية ... كان ابرزها ولا شك دور المدفعية المضادة للطائرات والانوار الكاشفة فى القاهرة والاسكندرية ومنطقة القنال ، رغم أن دخول سيناء كان محظورا الا بتصريح حتى لضباط الجيش ، وكانت السلطة فيها لقوات الاحتلال والمحافظ البريطانى .

قال تشرشل « ان مصر قامت بدور مشرف مهم له قيمته لا فى دفاعها عن نفسها فحسب ولكن فى الصراع العالمى » وقال الجنرال اوكنلك قائد القوات البريطانية « ان المساعدة التى قدمها لنا الجيش المصرى عظيمة فقد حرس المرافق الداخلية ، وتولى اعمال المراقبة ، والانوار الكاشفة والبطاريات المضادة للطائرات وخفف بذلك الضغط على قواتنا الى حد كبير » .

وعندما انفرجت ازمة العلمين سمحت القوات البريطانية لعدد من الضباط المصريين بالحصول على فرق تدريبية فى مدارس الجيش البريطانى بالشرق الاوسط بفلسطين مثل مدرسة المدفعية المضادة للطائرات فى حيفا ومدرسة مدفعية السواحل فى عكا ومدرسة المشاة فى صرفند وغيرها .

وفى هذه المرحلة كانت حكومة الوفد تواصل مسارها ، بعد ان انجذب مكرم عبيد سكرتير الوفد الى السراى ونشر فى الاهرام مقالا يقول فيه عقب مقابلته للملك يوم ١٣ مارس ١٩٤٢ « لم البث طويلا حتى ادركت ان ملكنا الشاب قد ملك زمام الامور بفضل ما اوتى من رجولة مبكرة وخبرة منوعة نادرة قلما أتيحت لملك من الملوك فكان يتنقل من موضوع الى آخر ومن نصح الى نصح فى عطف ووداعة وصراحة اخاذة ونفاذة » وشكل حزب (الكتلة الوفدية) التى اصبحت حزبا من احزاب الاقلية المنفرطة اساسا من مسبحة الوفد ، وتعرض الوفد خلال هذه الفترة الى حملات شديدة ضد سياسة المحسوبية والاستثناءات التى انتهجها لخدمة انصاره بعد ان أقصى

عن الحكم اكثر من خمس سنوات •

ولكن الوزارة الوفدية استطاعت خلال حكمها ان تقدم انجازات ذات تأثير اجتماعي هام مثل اصدار قانون مجانية التعليم الابتدائي ، وانشاء جامعة الاسكندرية ، وديوان المحاسبة ، واستخدام اللغة العربية في مكاتبات الشركات ودفاترها ، واصدار قانون استقلال القضاء ، وخفض الضريبة المربوطة على صغار المزارعين ، ووضع مشروع المجموعات الصحية ، واصدار قانون عقد العمل الفردي ونقابات العمال •

وبعدما أدت وزارة الوفد دورها في تهدئة الجماهير تخلى الاستعمار عنها واسرع الملك يصدر قرارا باقالتها يوم ٨ اكتوبر ١٩٤٤ ، بعد ان وقعت بروتوكول الاسكندرية الخاص بانشاء جامعة الدول العربية في اليوم السابق مباشرة •• وكأنما انتظر منها ان تختم دورها بتكوين الجامعة التي بارك انطوني ايدن انشاءها •

وكان خطاب الاقالة مهينا مثل خطاب الاقالة السابق اذ قال فيه الملك وهو يقيل وزارة الاغلبية الشعبية انه يقيل الوزارة بدافع الحرص على ان تحكم البلاد « وزارة ديموقراطية تعمل للوطن وتطبق احكام الدستور نصا وروحا » وهكذا انتصرت حاشية السراي على ارادة الاغلبية الشعبية •

المد الثوري في مصر

واعقب اقالة الوزارة الوفدية عودة أحزاب الاقلية الى الحكم ومعها الحزب الجديد (الكتلة الوفدية) في وزارة برئاسة أحمد ماهر رئيس حزب السعديين الذي حل البرلمان لاجراء انتخابات جديدة لم يشترك فيها الوفد ، واجتمع البرلمان الجديد في ١٨ يناير ١٩٤٥ ولكن لم تمض الا ايام حتى اغتيل احمد ماهر يوم ٢٤ فبراير اعتراضا على اعلانه اشتراك مصر في الحرب اغتاله المحامي محمود العيسوي الذي كان يعمل محاميا في مكتب الكاتب المؤرخ عضو الحزب الوطني عبد الرحمن الرافعي •

وتألفت بعد ذلك وزارة محمود فهمي النقراشي •

كان انتهاء الحرب وانهاء الرقابة على الصحف في ٩ يونيو ، والغاء الاحكام العرفية في ١٤ اكتوبر بداية مرحلة جديدة من مراحل النضال الوطني ضد الاستعمار •

وتحت ضغط الشعور الشعبي العام الذي الهبته الصحافة الوفدية وخاصة بعد المذكرة التي ارسلها مصطفى النحاس الى السفير البريطاني

يطالب فيها بالجلاء الكامل عن مصر ووحدة مصر والسودان ، ارسل محمود فهمي النقراشي مذكرة الى الحكومة البريطانية في ٢٠ ديسمبر ١٩٤٥ يطالب فيها بسحب القوات البريطانية وقت السلم ، مشيرا الى ان علاقات مصر وبريطانيا ستكون مستمرة على اساس من التحالف •

ومع ذلك جاء رد الحكومة البريطانية بعد شهر كامل ، ليقول ان المبادىء الاساسية التي قامت عليها معاهدة ١٩٣٦ سليمة في جوهرها « وان سياسة حكومة جلالة الملك هي ان تدعم بروح من الصراحة والود التعاون الوثيق الذى حققته مصر ومجموعة الامم البريطانية والامبراطورية في اثناء الحرب »

وكان لهذا الرد الذى ربط بين مصر ومجموعة الامم البريطانية لاول مرة رد فعل شعبي مضاد ، تحركت معه جماهير الطلبة ، فأصدرت اللجنة التنفيذية العليا للطلبة ، واتحاد خريجي الجامعة بيانات احتجاج ••• وتقرر عقد مؤتمرات عامة في المعاهد والجامعة لمناقشة الحالة •

وعقد مؤتمر في الجامعة يوم السبت ٩ فبراير ١٩٤٦ ضم بضعة آلاف تحركوا بعده في مظاهرة كبيرة نحو قصر عابدين تحت شعار (لا مفاوضة الا بعد الجلاء) •

وعندما وصلت المظاهرة في طريقها الى كوبرى عباس وجدته مفتوحا فاصر الطلبة على عبوره وحاصرهم البوليس وانهال عليهم ضربا في قسوة شديدة ، ثم اطلقت بعض طلقات الرصاص مما دفع بعدد من الطلبة الى القاء أنفسهم في النيل ، وعرفت هذه الحادثة يومئذ باسم (مذبحة كوبرى عباس) ، التي قدر عدد المصابين فيها بستين طالبا واعتقل ١٥٠ متظاهرا •

وعمت المظاهرات انحاء مصر احتجاجا على المذبحة وامتلأت الصحافة ببيانات الاحتجاج وصادرت الحكومة بعض الصحف التي نشرت صور المظاهرات يوم ١١ فبراير (عيد ميلاد الملك فاروق) وحطم الطلبة ترتيبات الحكومة التي اقامتها احتفالا بالعيد وداسوا صور الملك بالاقدام وأشعلوا فيها النار وهتفوا ضد الاستعمار والسراى ، وخرجت في اليوم التالى ١٢ فبراير جنازة صامتة واقام طلبة الازهر صلاة الغائب •

ولم تجد الوزارة امامها بعد عجزها الفاضح عن مجابهة الانجليز بعد حديث متكرر عن (الصمت) و (الوقت المناسب) ، وبعد قسوتها في مجابهة مظاهرات الطلبة ،وامام تصاعد المقاومة الشعبية حيث لم تعد المظاهرات قاصرة على الطلبة بل امتدت الى طوائف الشعب الاخرى ـ لم تجد الوزارة الا ان تقدماستقالتها يوم ١٥ فبراير، ليتولى الوزارة بعد ذلك اسماعيل

صدقي رئيس حزب الشعب السابق الرجل الذي كان قد شكل دستور ١٩٣٠ وعضو مجلس ادارة شركة قناة السويس ، ورئيس اتحاد الصناعات ·

وقد مهد اسماعيل صدقي لوزارته بحديث كان قد نشره في الاهرام يوم ٧ فبراير يدعو فيه الى المفاوضة بدلا من المباحثات التمهيدية مع السفير البريطاني وهي الخطة التي كانت وزارة النقراشي قد انتهجتها ، وهو في مقاله يعتبر بريطانيا صديقا وحليفا ويعلن ان الرغبة في التحالف معهم لا تحتاج الى تدليل ·

وسهل الانجليز ايضا مهمة اسماعيل صدقي بسحب لورد كيلرن السفير البريطاني الذي يرتبط اسمه بحادث ٤ فبراير وعينوا بدلا منه سير رونالد كامبل ···

واقد بدأ صدقي وزارته باسلوب ناعم ··· اقنع السعديين الاحرار بخطر عودة الوفد فضمن تأييد البرلمان له ·· وصرح بقيام المظاهرت لايام محدودة ، وصرح للطلبة باستعداده ورغبته في التعاون مع مصطفى النحاس ، ولكن النحاس باشا صرح بأنه لا يقبل أي نوع من انواع التعاون الا على أساس انتخابات برلمانيه جديدة وهو الامر الذي يعني انتهاء التحالف القائم بين احزاب الاقلية التي ارتضت الاشتراك في الوزارة عندا حزب الكتلة الوفدية ·

لم تتوقف المظاهرات الشعبية لوعيها بطبيعة وتاريخ اسماعيل صدقي ، وتشككها وحذرها من تصريحاته عن التحالف مع بريطانيا ، واصدرت لجنة الطلبة التنفيذية بيانا قالت فيه ان الاسباب التي دعت الى الجهاد ما زالت قائمة ··· وفي ١٨ فبراير تجمع بميدان عابدين نحو ٤٠ الف متظاهر ، كما تجمع نحو ١٥ الفا بفناء الجامعة بالجيزة ·

وخلال هذه الايام العامرة بالنضال التقى مندوبو الطلبة والعمال وانبثقت (اللجنة الوطنية للعمال والطلبة) لتؤدي دورا تاريخيا بدأته باعلانها ان نقابات العمال وطلبة الجامعات والازهر والمعاهد العليا والمدارس الخصوصية والثانوية قررت ان يكون يوم الخميس ٢١ فبراير ١٩٤٦ يوم الجلاء ويوم الاضراب العام لجميع هيئات الشعب وطوائفه ، ونادت ايضا بتعطيل المرافق العامة ووسائل النقل والمحلات العامة والتجارية ·

ووصلت المظاهرات قمة النجاح وتعطلت الحياة العامة في القاهرة ، وعقد مؤتمر شعبي في ميدان الاوبرا قرر مقاطعة المفاوضات والغاء معاهدة ١٩٣٦ والغاء اتفاقية ١٨٩٩ وعرض القضية على مجلس الامن ، ثم تحركت المظاهرات الى ميدان قصر النيل (التحرير بعد ذلك) حيث ظهرت عربات

بريطانية مسلحة اخترقت الجموع ودهمتهم فالقى المتظاهرون الحجارة على الثكنات ، فردت القوات البريطانية باطلاق الرصاص من خلف الاسوار ... وتساقط عدد من الشهداء قدروا بعشرين شهيدا وثارت ثائرة الجماهير فانتضوا على بعض المحلات الاجنبية ومعسكر للجنود الافريقيين خلف المحكمة المختلطة ونادى الطيران البريطاني واعتدوا عليهم واستمرت المظاهرات تطوف شوارع القاهرة وتلوح بالمناديل المخضبة بدماء القتلى أمام قصر عابدين حتى منتصف الليل .

ولم تقتصر المظاهرات على القاهرة وحدها ... انتشرت في مختلف المدن ، ولم تنفع بيانات صدقي في التفرقة بين الطلبة والعمال ، وتقرر يوم ٤ مارس يوما للحداد العام على ارواح الشهداء ، فاضربت الصحف عن الصدور ، واغلقت المصانع والمدارس ، وفي الاسكندرية تحركت مظاهرة شعبية ضخمة من محرم بك الى محطة الرمل ، وحاول بعض المتظاهرين انزال علم بريطاني يرتفع على فندق يقيم فيه بعض رجال البحرية البريطانية فأطلق عليهم جنود البوليس الحربي البريطاني الرصاص من كشك في ميدان محطة الرمل ... وحدث صدام انتهى الى قتل ٢٨ متظاهرا ، ٢ من الجنود البريطانيين وجرح ٣٤٢ .

وكانت الحكومة البريطانية رغم تأييدها لاسماعيل صدقي قد اخذت عليه تهاونه في قمع المظاهرات الامر الذي يمهد لقيام ثورة شعبية تهدد قوات الاحتلال ، فارسلت بيان احتجاج للملك مباشرة ، وقبل صدقي الاحتجاج دون ان يعلن ذلك ، ولكن وزير الدومنيون البريطاني اعلن الخبر في مجلس اللوردات واطيرته وكالة رويتر للصحف المصرية مما اوقع صدقي في دائرة الحرج ، وكشف تماما عن دوره المخادع عندما اصدر قرارا بمنع المظاهرات .

وسرعان ما ألف في ٧ مارس ١٩٤٦ وفدا رسميا للمفاوضة مع الانجليز يضم الى جانبه محمد شريف صبرى وعلي ماهر ومحمد حسين هيكل وعبد الفتاح يحيى وحسين سرى ومحمود فهمي النقراشي واحمد لطفي السيد وعلي الشمسي ومكرم عبيد وحافظ عفيفي وابراهيم عبد الهادى ، وهي مجموعة من الاسماء المعروفة فيالسياسة المصرية ، يؤمن معظمهم بان التحالف مع بريطانيا امر تقتضيه الضرورة والمصلحة ... اما الوفد فقد أبى الاشتراك في هذه الهيئة مادام لا يملك رئاستها او الاغلبية فيها .

وكان رفض الوفد للاشتراك في وفد المفاوضة دافعا الى تساؤلات ظهرت في الصحافة البريطانية تشكك في سلامة تمثيل هيئة المفاوضة للواقع

المصرى ... وأدى هذا الموقف الى تدهور سريع فى علاقات صـــدقى مـــع الوفد تمثل فى مصادرة الحكومة لصحف الوفد ومحاضرة الجنود لدورها ، واوضح ذلك صبرى ابو علم زعيم المعارضة الوفدية بمجلس الشـــيوخ فى ٩ مارس ، واصدر صدقى بيانا فى ٢ ابريل هـــدد فيه الوفد بعنف واتهمـه بأنه يضع العراقيل امام المفاوضات ، ويدفع الطلبة والعمـــال الى الاضراب والتظاهر .

وعندما اطمأنت الحكومة البريطانية الى موقفه المتشدد شـــكلت حكومة العمال البريطانية وفدا للمفاوضة برئاسة بيفن وزير الخارجية ولـــورد ستاتسجيت وزير الطيران ، واصدرت فى ٧ مايو بيانا حددت فيه سياستها على أساس سحب كافة قواتها من مصر على أسس ثلاثة هى :

اولا : توطيد التحالف مع مصر على اساس المساواة بين امتين تجمـــع بينهما مصالح مشتركة .

ثانيا : ان يتقرر بالمفاوضات تحـــديد مراحل الجـــلاء والمواعيد التى يتم فيها .

ثالثا : الاتفاق على ما يتخـــــذ بين الحكومتين من التدابير لتحقيـــق التعاون فى حالة الحرب او خطر حرب وشيكة الوقوع .

وقد قوبل هذا البيان بهجوم متعدد الاطراف ... حمل تشرشـــل على البيان فى مجلس العموم من ناحية ان القواعد العسكرية فى برقـــة وفلسطين لن تكون كافية لحماية قناة السويس ، وقال ايدن ان عدم تمثيـــل الوفد فى وفد المفاوضة يجعل العرض البريطانى بالجلاء عرضا مقدما بغير ضـــمان استيفاء الثمن من مصر .

وفى يوم صدور البيان نقلت وكالة رويتر عن الدوائر الرســـمية القول بأن الجلاء لا ينتظر ان يتم بالسرعة التى تم بها عن ســـوريا ولبنان وذلك بســـبب ضـــخامة حجم القوات البريطانية أولا وبســـبب ما يحتاجه الجيش المصرى من استعدادات تؤهله لحمل التبعات ثانيا .

هذا ما حدث فى بريطانيا ... اما فى مصر فقد اهاجت فكرة التحـالف شعور المصريين وخرجت المظاهرات الى الشوارع . وفى ١١ مايو اصـــطدم البوليس بمظاهرة خرجت من الازهر وجرح فيها ثلاثون متظاهرا وعشرة مـــن رجال البوليس ، واصدر الوفد والحزب الوطنى بيانات هاجموا فيهـــا البيان البريطانى

واستمرت المفاوضات حتى قبل الجانب المصرى فكرة تكوين (لجنة الدفاع المشترك) من عسكريين مصريين وبريطانيين ، وما ان عرفت موافقة الحكومة على انشاء هذه اللجنة حتى تحركت المنظمات الشعبية تعقد المؤتمرات وترتب المظاهرات ، واصدرت اللجنة الوطنية للعمال والطلبة بيانا حددوا فيه يوم ١١ يوليو ١٩٤٦ (ذكرى ضرب الانجليز للاسكندرية عام ١٨٨٢) يوما للحداد العام وبدء الجهاد الوطنى .

وهنا اسفر صدقى عن وجهه الحقيقى وقام فى اليوم السابق على الاضراب باعتقال حوالى مائتين من الكتاب والصحفيين وزعماء اللجنة الوطنية ونقابات العمال والطلبة ، واغلق كثيرا من دور النشر والجمعيات الجديدة ذات الطابع التقدمى مثل دار الابحاث العلمية ولجنة نشر الثقافة الحديثة ودار القرن العشرين والجامعة الشعبية الاهلية واتحاد خريجى الجامعة وجامعة ام درمان ومؤتمر نقابات عمال القطر المصرى ونادى الشرقية ورابطة بعثات الجامعة والمعاهد ، كما اغلق نهائيا صحف الفجر الجديد والجبهة وام درمان والعراق واليراع والضمير والوفد المصرى وصادر لعدة ايام جرائد المصرى والكتلة ومصر الفتاة ، ومنع الاحتفال بيوم ١١ يوليو .

واطلق على هذه الحمله (قضية المبادىء الهدامه) وألصق بالمعتقلين تهمة الشيوعية ، وكان منهم سلامة موسى والدكتور محمد مندور ومحمد زكى عبد القادر وغيرهم ، ورغم الغاء تصريح جريدة (الوفد المصرى) فان معارضة الوفد لهذه الاجراءات لم تكن قوية بالدرجة الكافية ، وضحى الوفد بجريدته مطالبا بصدور جريدة أخرى بدلا منها (صوت الامة) .

وبقدر ما قوبلت حملة صدقى باشا بالارتياح فى الدوائر الاستعمارية ودوائر السراى والرجعية المصرية ، بقدر ما قوبلت بالرفض من جانب المثقفين والعمال والطلبة ، فما لبث ان اضرب عمال شركة الغزل الاهلية بالاسكندرية يوم ١٥ يوليو ، والقيت خمس قنابل يوم ١٧ يوليو على احد الاندية البريطانية .

وكانت هذه الحملة نقطة تحول فى اسلوب السلطة التنفيذية اذ جعلت تهمة (الشيوعية) سيفا مصلتا على رقاب كل الوطنيين الذين يقفون موقف المعارضة لربط مصر بعجلة الاستعمار .

وحاول صدقى جاهدا ان يصل الى عقد اتفاقية مع الانجليز بعد حملته الصليبية ، وسافر فعلا الى لندن فى ١٥ أكتوبر بعد ان كان قد قدم استقالته فى ٢٨ سبتمبر وكلف الملك خاله شريف صبرى بتشكيل وزارة تضم الوفد اليها ولكنه عجز عن تحقيق ذلك لرفض الوفد واصراره على اجراء انتخابات

جديدة ، وادى ذلك الى ذهاب مصطفى النحاس لتوقيع اسمه في سجل التشريفات بمناسبة عيد الاضحى لاول مرة بعد اقالته ٠

وقع صدقى اتفاقية بالحروف الاولى مع بيفن ، وعاد يعلن ان الوحدة بين مصر والسودان قد تقررت نهائيا ، ولكن رئيس الوزراء البريطانى مستر اتلى كذب هذا التصريح مما اضعف من موقف صدقى ، الذى كان يعانى فى الداخل معارضة شديدة ، وخاصة من جانب الطلبة الذين عقدوا مؤتمرا يوم سفره الى لندن حضره ممثلو الطلبة الوفديين والحزب والوطنى والتنظيمات الماركسية والكتلة ورابطة الطلبة المصريين وقرروا الغاء معاهدة ١٩٣٦ وقطع المفاوضات فورا والالتجاء الى مجلس الامن ، وكان صدقى قد اجل الدراسة الى ١٧ نوفمبر ٠

وما كادت الجامعة تفتح ابوابها حتى بدأت المظاهرات ، دون توقف ، تزداد انتشارا وقوة فى مختلف المدارس والمعاهد والكليات ، وتصطدم بالبوليس يوميا ويتساقط الجرحى من المتظاهرين ، وخطب مصطفى النحاس فى ذكرى عيد الجهاد (١٣ نوفمبر) مهاجما مشروع صدقى بيفن ومحاولة فرض بريطانيا معاهدة التحالف على مصر متهما صدقى بأنه المسئول عما يراق فى الشوارع من دماء ٠

وتحت هذا الضغط الشعبى اصدر سبعة من اعضاء وفد المفاوضة بيانا اعلنوا فيه معارضتهم للمشروع الذى انتهى اليه صدقى مما اجبره على حل وفد المفاوضة فى ٢٦ نوفمبر ٠٠٠ وتعمد الانجليز احراجه ايضا بعد ان وجدوا انه لم يستطع التعبير عن ارادة الشعب المصرى ، فجعلوا الحاكم العام للسودان يصدر تصريحات تتنافى مع بيانات اسماعيل صدقى ٠

وفشلت دعاية الصحفى مصطفى امين لمشروع صدقى فى مقالاته التى كتبها فى مجلة آخر ساعة تحت عنوان (اوقعها والفها) واضطر صدقى لتقديم استقالته يوم ٦ ديسمبر ١٩٤٦ تحت ضغط النضال الشعبى العام والموقف الموحد للجماهير والتنظيمات السياسية والمهنية ٠

وهكذا انتصرت الارادة الشعبية ، وسقط مشروع صدقى بيفن ٠ وسقط حكم صدقى بعد عشرة شهور فقط ٠

وعاد محمود فهمى النقراشى رئيسا للوزراء يوم ٨ ديسمبر ١٩٤٦ ٠

وتعتبر الفترة التى مضت بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وهزيمة النازى حتى سقوط مشروع صدقى بيفن من أكثر فترات النشاط السياسى خصبا وتوهجا وتأثيرا فى المجتمع ٠

ولم يكن الجيش خلال هذه الفترة بعيدا عن الاحداث ٠٠٠ ولم تكن

هزيمة النازى التى حطمت احلام كثير من الضباط هى كلمـــة (النهـــاية) فى نضالهم ٠

تحول النشاط عند مجموعات الضباط التى اسقطتها هزيمــــة النازى فى حيرة شديدة الى البحث عن موقع جـــديد يواصـــــلون منه نضـــــالهم الوطنى ٠

وكان الجيش خلال الفترة التى عمت فيها المظاهـــرات مصر يؤدى دورا بوليسيا ٠٠ لم تســحبه اليه وزارة محمـــود فهمى النقراشي الاولى ، ولكن سحبته له وزارة اسماعيل صدقى التى اعلنت نظام الطوارىء ، وحشــــدت قوات الجيش فى مناطق مختلفة ٠٠٠ حديقة الاورمان المجاورة لجـــــامعة القاهرة ، وفى منطقة شبرا الخيمة وفى المحلة الكبرى والاسكندرية وغيرها ٠

وطبق نظام الطوارىء ٠٠٠ كان الجندى يحصل على علاوة طـــــوارىء عشرة قروش يوميا فى الوقت الذى كان مرتبه الشهرى فيه ٥٤ قرشـــــا ، ويحصل الضابط من الرتب الصغيرة على اربعين قرشا يوميا بينمـــا مرتب الملازم ١٢ جنيها شهريا ، وترتفع هذه القيمة حتى تصل الى جنيهين فى اليوم لرتبة اللواء ٠

كان خروج الجيش علنا لمقاومة المظاهرات ، واجتماع الضباط والجنـود قريبا من مناطق تجمع الطلبة والعمال دافعا لهم على مناقشـــة الموقـــــف السياسي ومحاولة التعرف على ابعاده ، وخاصة بعـــــد حرص كثير من الطلبة على الاجتماع بالضباط فى زيارات ودية اثناء وجودهم فى حديقة الاورمان ٠

واستقر رأى صغار الضباط من مختلف الاتجاهات السياســية اخوانا او شيوعيين او غير منتمين لتنظيمات سياسيه فى عـــدد من الوحدات على عدم اطلاق النار مطلقا على مظاهرات الطلبة او العمال مهما كانت الظروف ٠

حرص اسماعيل صدقى على استخدام الجيش كوســيلته الرئيســـية للارهاب والتهديد لم يكن مسايرا للتطور الذى احدثته معاهـــدة ١٩٣٦ فى صـــفوف الجيش ٠٠٠ اذ لم يعد الجيش محدود العدد او خاضعا تمـــام الخضوع لنوعية خاصة من الضباط تمتد من اعـــلى الرتب الى اصـــغرها ، وبالتالى لم يعد اداة طيعة فى يد السلطة كما كان فى عهد وزارة صـــدقى فى بداية الثلاثينيات عندما استخدمه لتزييف الانتخابات ٠

تطورات كثيرة كانت قد حدثت فى مصر وفى الجيش لم يدركهـــا ذكاء اسماعيل صدقى المعروف ٠٠٠ وظهر رفض ضباط الجيش لاداء هـــذه المهمة البوليسية التى اوكلت اليهم ـ الى جانب التقارب وتوحيـــــد آرائهم ـ فى صورة منشورات كثيرة وزعت خلال هذه الفترة من الضباط المنضــــمين للاخوان ، او التنظيمات اليسارية ٠

وتولد شعور طبقي ناشيء وغير منظـــور عند صغار ضباط الجيش وعند عدد من صف الضباط الواعين ··· بأنهم يعملـــون في خدمة طبقـــة اقطاعية لا ينتمون اليها ··· ومن هنا كان اقتناعهم بألا يكونوا أدوات تطلـق النار على جماهير الطلبة والعمال ·

ورغم هذا الموقف فان الضباط لم ينجذبوا الى الوفد العـــــدو المعارض لاحزاب الاقلية ، والذى لم يطلق خلال تاريخه رصاصـــة واحـــــدة على المتظاهرين ، والذى كانت صحفه في ذلك الوقت تلتهب بمقالات الاثارة بأقلام الدكتور محمد مندور والدكتور عزيز فهمي وغيرهما من شباب الوفد ·

يرجع ذلك اساسا الى الاسباب الآتية :

اولا : كانت فرص الوفد في التسلل الى صفوف الجيش عن طـــريق دفع مؤيديه الى صفوفه محدودة جـــدا لقلة الوقت الذى بقى الوفـــــد فيه متوليا الحكم مقارنا بحكم أحزاب الاقلية ·

ثانيا : تشبث القيادة الوفدية دائما بمبـــدأ فصل الســـلطات وابعاد الجيش عن السياسة وحرصهم على تنفيـــــذ ذلـك لادراكهم ان الجيش كان في هذه المرحلة يتحرك بأوامر السراى الخاضعة لنفوذ الاســـتعمار البريطانى ، وهى العدو التقليدى للوفد ·· ولذا لم تكن هناك صـــلات أو محاولة عقد صلات بين الوفد ورجال الجيش ·

ثالثا : كانت الدعاية المضاده التى صاحبت حادث ٤ فبراير قـــوية الى الدرجة التى أثرت فعلا فى سمعة الوفد داخل صفوف الجيش ، واظهـــــرته بمظهر الحزب المتعاون مع البريطانيين في وقت كان فيه الارتباط بالنازيين هو الصورة البراقة للوطنية ·

رابعا : ظهور تنظيمات سياســـية جـديدة ذات اتجاهات فكـــريه واجتماعية مختلفة (مصر الفتاة ـ الاخوان المســلمين ـ الحـــزب الوطنى الجديد ـ التنظيمات الشيوعية) قادتهـــا أقرب من ناحية الســـن والتكوين الاجتماعى لصغار ضباط الجيش ··· وحركتهـــا التنظيمية اكثـــر انضباطا من الوفد الذى كان يعتمد على رصيد زعامته وجماهيرية اهدافه وقـــدراته المالية ، وبالتالى كانوا أكثر جاذبية للضباط الذين اعتادوا الانضباط والضبط والربط ـ على حد التعبير العسكرى ـ في حياتهم اليومية ·

خامســـا : كان تكوين القيادة الوفـــدية متنافرا الى حد بعيد مـــع طبيعة الجماهير المؤيدة له ··· فمعظم القيـــادة كانت من الاقطاعيين ، ومعظم الجماهير كانت من العمال والفلاحين والمثقفين ··· ولذا فان الضـــباط لـم يجدوا فى تكوين القيادة الوفدية ما يجذبهم اليهـــا باعتبـــارهم ابناء للطبقة

الوسطى ، تولدت في صفوفهم افكار وطنية وثورية ، اكسبتها الروح العسكرية طابعا حادا يميل الى التغيير السريع ٠

انجذب الضباط بعد هزيمة النازى وفى مواجهة الموقف الذى انسحبوا اليه لمواجهة جماهير الشعب بطلقات الرصاص الى احزاب وتنظيمات اخرى ٠

تعددت الاتجاهات ٠٠٠ وتنوعت قوى الجذب المختلفة ٠
ويمكن بلورة الاتجاهات داخل الجيش فى ذلك الوقت فى ثلاثة اتجاهات رئيسية :

١ ـ اتجاه جذبه الارهاب واغتيال جنود الاحتلال وامتد حتى وصل الى بعض السياسيين المصريين ٠

٢ ـ الاخوان المسلمون كقوة سياسية جديدة تظهر على المسرح مصحوبة بدعاية هائلة وتأييد صريح من حكومة اسماعيل صدقى ٠

٣ ـ التنظيمات اليسارية التى كانت تنمو فى سرية مطلقة مستفيدة من المد الثورى ، ووضوح موقف الدول والقوى الاشتراكية فى تأييد قضيتنا ٠

اما بقية القوى والاحزاب السياسية فان فرصتها للعمل والنشاط داخل الجيش كانت محدودة ٠٠ بل معدومة تقريبا ٠

ومصر الفتاة لم تتح لها الحرب العالمية الثانية فرصة النشاط مع الضباط وخاصة الذين تأثروا بمبادئها خلال الدراسة الثانوية ، لانها كانت مطاردة من السلطات لاتجاهاتها الفاشية فى هذه المرحله ٠

ـــ اما احزاب الاقلية فان قدراتها كانت أضعف من التأثير على شباب الضباط لاتجاهاتها الرجعية المحافظة ٠

ـــ وهكذا انفردت هذه الاتجاهات الثلاثة لتنمو داخل صفوف الجيش ٠

اولا ـ الارهاب :

كان الاتجاه الارهابى أقدم فى وجوده من الحركة الشعبية التى انطلقت عام ١٩٤٦ ، وهو يمتد بجذوره الى افكار (الحزب الوطنى) الذى بدأ اعضاؤه يعتنقون الفكر الارهابى خلال ثورة ١٩١٩ وما بعدها ، بعد ان طغى الوفد عليهم بجماهيريته وشعبيته ٠

كان ضباط الطيران فعلا على اتصال ببعض الذين ناضلوا ضد

البريطانيين في جماعة (عصابة اليد السوداء) خلال ثورة ١٩١٩ وما بعدها مثل عبد العزيز علي الذي اصبح وزيرا في وزارة محمد نجيب وكان عضوا في الحزب الوطني ·

وكان اعضاء الحزب الوطني يعتبرون الاغتيال وسيلة من وسائل النضال ، ومحمود العيسوي الذي قتل احمد ماهر كان محاميا تحت التمرين في مكتب عبد الرحمن الرافعي الذي اعتقل هو وفتحي رضوان عقب حادث الاغتيال ثم افرج عنهما بعد ان ثبت عدم وجود صلة لهما بعملية الاغتيال نفسها ·

وحدثم التقاء بين بعض الضباط وبين شباب من اعضاء الحزب الوطني ، كونوا مجموعة للاغتيالات ··· وكانت المحاولة الاولى اغتيال مصطفى النحاس الذي اجتمع عليه رأيهم لما تركه حادث ٤ فبراير في نفوسهم ، وقد قام بهذه العملية التي لم تنجح انور السادات ، وحسين توفيق الذي اغتال امين عثمان بعد ذلك ، وسعد كامل ابن اخت فتحي رضوان وعضو اللجنة التنفيذية العليا للحزب الوطني الجديد فيما بعد ، ومحمد كامل السفير بعد ثورة ١٩٥٢ ·

وتشكلت داخل الجيش مجموعة اخرى اتصلت بسعد كامل وضمت الضباط مصطفى كامل صدقي وحسن فهمي عبد المجيد وعبد الرؤوف نور الدين ، والقوا قنبلتين على منزل عبد الفتاح عمرو سفيرنا في لندن بالدقي ، وقنبلة اخرى على الاتحاد المصري الانجليزي مكان نادي ضباط القوات المسلحة بالزمالك الآن ، وقنابل دخان على دار اخبار اليوم ·

وقامت المجموعة التي فشلت في محاولة اغتيال النحاس باشا باغتيال امين عثمان بعد ذلك ، ولكنها اعتقلت وحوكمت وحكم على القاتل حسين توفيق بالاشغال الشاقة المؤبدة ، وكان والده وكيلا لوزارة المواصلات ·

وامكن لهذه المجموعة تهريب حسين توفيق واخفاؤه فترة طويلة ·

ولم يكن هذا النشاط خارج حدود الجيش ·· بل تبلورت في الداخل حركة مضادة لرئيس اركان حرب الجيش اللواء ابراهيم عطاالله الذي ابتدت قيادته للجيش عن كل معاني الجدية والتطور ··· ذهب مع بعثة من كبار الضباط لزيارة الولايات المتحدة وبعد عدة اسابيع عاد ليصدر قرارا وحيدا يقضي بأن تلبس كل الرتب عدا رتبة اللواء بنطلونات قصيرة اثناء التواجد بالمعسكرات الامر الذي اثار الضحك على بعضهم لكروشهم البارزة ··· ونفاقا للسراي اصدر قرارا بأن يلبس ضباط الجيش ربطات عنق سوداء يوم ٢٨ ابريل ذكرى وفاة الملك فؤاد ، ولكن عددا ملحوظا من

صغار الضباط رفضوا تنفيذ الامر .. كما أنه أوحى لضباط سلاح المدفعية بأن يجمعوا نقودا لشراء (عصا الماريشالية) لتقدم هدية للملك فاروق عند زيارته للسلاح ، وقد رفض ايضا عدد من الضباط ان يسهموا في ذلك ... وكانت زيارة فاروق لميس المدفعية بالماظة هى زيارته الاولى والاخيرة ، اذ اثارت مشاعر الضباط لما حوته من بذخ فى الطعام والترفيه ... اذ اقاموا مسرحا خارجيا استضافوا فيه فرقة الريحاني واحدى فرق الباليه الاجنبية التى حضرت من الطائرة الى المدفعية مباشرة قبل ان تظهر في كباريه الاوبرج ، واعدوا بيست للرقص لم يشارك فيه الا عدد محدود من زوجات الضباط اللاتى قبلن الحضور ، فقد رفض اغلبية الضباط احضار زوجاتهم فى حفلة يحضرها الملك .... ويذكر خلال هذه الليلة ان الصاغ عبد المنعم رياض ـ الفريق الشهيد بعد عدوان ١٩٦٧ ـ كان خالعا طربوشه ، فاقترب منه كبير التشريفاتية وابلغه بان ذلك ممنوع في حضرة الملك ، وحدثت بينهما مناقشة انتهت الى استدعائه فى اليوم التالى للسراى وتصفية الامر بعد ما لمسوه من غضب الضباط واحتجاجهم على هذا الاسلوب فى مخاطبة أحد المدنيين لضابط مرموق .

وقررت مجموعة من الضباط اغتيال ابراهيم عطاالله ، واصدرت منشورات أعدها مصطفى كمال صدقى الذى كان ضابطا للمخابرات فى مكتب ادارته ، الامر الذى كشف مجموعته وأدى الى اعتقاله مع ٢٣ ضابطا وصولا من بينهم البكباشي رشاد مهنا واليوزباشية عبد الرؤوف نور الدين وحسن فهمى عبد المجيد وممدوح جبه والبكباشي احمد يوسف حبيب والصاغ عثمان نورى واليوزباشية عاطف سعد ومحمد احمد حسن والملازم عبد القادر طه واحمد فؤاد .

وسبب اعتقال افراد هذه الجماعة هو تبليغ احد صولات ادارة المخابرات (جمال الدين جلال) الذى استعانوا به فى عملية تهريب سلاح للفلسطينيين عن طريق بور سعيد ، وذلك بعد اتصالهم بالحاج امين الحسينى فى القاهرة .

ولم ينته اعتقال هذه المجموعة الى محاكمة عسكرية ، وانما انتهى الامر الى الافراج عنهم وعودتهم الى اعمالهم ، واعفاء ابراهيم عطاالله من منصبه وتعيين اللواء عثمان المهدى بدلا منه ، كما عين محمد حيدر وزيرا للحربية .

وكان هذا التعيين مفاجأة للجيش ... اذ المعروف ان محمد حيدر ضابط من السجون ، وكان له تاريخ مشهور اثناء ثورة ١٩١٩ فى ضرب المتظاهرين ، وقد استاء من ذلك عدد ملحوظ من الضباط اذ وجدوا في

ذلك امتهانا لهم ، واتهاما بعدم كفاءة احد منهم لقيادة الجيش .

وكان تعيين محمد حيدر ربيب السراى وياور الملك خطوة لمزيد من السيطرة على الجيش ، التقت فى خطوة اخرى تمثلت فى احتواء عدد - وليس كل - الضباط الذين اعتقلوا فى حادث ابراهيم عطاالله وتشكيل تنظيم خاص لهم للدفاع عن الملك والسراى عرف باسم (الحرس الحديدى) .

ولم يكن هذا التنظيم خاضعا للحرس الملكى او للجيش ، وانما كان تنظيما سريا خاصا يرتبط بالسراى عن طريق يوسف رشاد الطبيب البحرى وياور الملك ويضم من الجيش أحمد يوسف حبيب ومصطفى كمال صدقى وسيد جاد وعبد الرؤوف نور الدين وخالد فوزى وحسن فهمى عبد المجيد .

وينفى خالد فوزى انه كانت له صلة بالحرس الحديدى .. ولاشك أنه كان الوحيد بين هؤلاء الذى انضم الى تنظيم الضباط الاحرار ، وكان له دور ايجابى معهم فى التحضير لحركة الجيش .

وقد بدأ (الحرس الحديدى) فور تكوينه يمارس عملياته الارهابية ... اطلق عبد الرؤوف نور الدين الرصاص ومعه انور السادات على مصطفى النحاس يوم ٥ ابريل ١٩٤٨ من عربة من عربات القصر الملكى احضرها اليوزباشى عبد الله صادق من مطافىء القصر كان يقودها حسن فهمى عبد المجيد فاخطأه رغم قرب المسافة ثم شرع مصطفى كمال صدقى وعبد الرؤوف نور الدين فى نسف منزله بسيارة حملت كمية كبيرة من المفرقعات يوم ٢٥ ابريل . وكان ذلك نتيجة موقف النحاس باشا المتشدد فى المسألة الوطنية ، ورفضه لكافة محاولات التقرب من الوفد على غير اساس اجراء انتخابات جديدة ...

واستمر هذا التنظيم يواصل عملياته الارهابية السرية ، ويتعرف على اخبار الضباط ليبلغها للسراى ويحاول ان يحيط الملك بهالة مضللة تقنع الناس بأنه يمكن تحقيق الاصلاح عن طريقه .

وكان يساند هذا (الحرس الحديدى) محمد حيدر وزير الحربية واسماعيل شيرين مدير ادارة شئون فلسطين وزوج الاميرة فوزية .

وهكذا انتهى الارهاب الذى اندفع اليه بعض الضباط ومعهم عدد من المثقفين بعد هزيمة النازية لاغتيال جنود الاحتلال الى ان اصبح اداة فى يد السراى للتخلص من اعدائها واعداء الاستعمار فى نفس الوقت .

لم يستطع الارهاب ان يفرض نفسه داخل الجيش بعد ان وصل نشاط الحركة السياسية فى المجتمع الى ذروته وانعكس ذلك داخل الجيش ايضا ... وعندما تنمو الافكار يذبل الارهاب ... ومع ذلك فان آثار الارهاب والاغتيال لم تنته تماما ، ولكنها حوصرت فى دائرة الحرس الحديدى والضباط الموالين للسراى .

ومع ذلك فانه فى لحظات اليأس من الموقف والرغبة الجارفة فى

التغيير ، وضعف الثقة فى التنظيم ٠٠٠ كان الفكر الارهابى عند الضباط الوطنيين يعاود الظهور ، بل ويتحرك للتنفيذ احيانا ٠٠ ولكنه لم يستطع أن يفرض نفسه سيدا للموقف كما سيأتي تفصيلا فيما بعد ٠

ثانيا ـ الاخوان المسلمون :

صلة الضباط بالاخوان تعود الى الحرب العالمية الثانية ، ولكنها لم تظهر كتيار رئيسى فى مجال الحركة السياسية بالجيش الا بعد انتهاء الحرب ٠

ولم تكن اتصالات الاخوان المسلمين مقتصرة على فرد او افراد محدودين ٠٠٠ وانما كانت منتشرة مع اكبر عدد متاح لهم من الضباط ٠

ونظرة تاريخية الى حركة الجماعة قد تفيد ٠

تحول النشاط عند مجموعات الضباط التى اسقطتها هزيمة النازى فى حيرة شديدة الى البحث عن موقع جديد يواصلون منه نضالهم الوطنى ٠

طوال حكم الوفد خلال فترة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٧ لم تتجاوز الجماعة حدود دعوتها الدينية ، ولم تظهر على المسرح السياسى بصورة سافرة الا بعد خروج الوفد عندما اصدرت مجلتها النذير السياسية عام ١٩٣٨ وقال أحمد حسين رئيس مصر الفتاة اثناء مرافعته فى قضية اغتيال محمود فهمى النقراشى بعد ذلك عام ١٩٤٩ ان حسن البنا وقادة الاخوان كانوا قد اعتقلوا فى بداية الحرب العالمية ، الى ان حضر حامد جودة الوزير السعدى وقابل حسن البنا منفردا ثم تم الافراج عنه بعدها بأيام ٠٠٠ وقال كذلك ان عبد الرحمن عمار مدير الامن العام كان عضوا فى الجماعة ٠

وكان حسن البنا مرشد الاخوان ذا شخصية نفاذة يجيد الخطابة ويحيط نفسه بهالة من الغموض تتيح له حسب لائحة الجماعة زعامة فردية مطلقة لا منازع له فيها ٠

يقول انور السادات فى كتابه (اسرار الثورة المصرية) ان حسن البنا كان حريصا على ان يظل ما بينهما سرا خافيا (حتى على كبار الاخوان انفسهم) ٠

وعقب اقالة الحكومة الوفدية فى ٨ اكتوبر ١٩٤٤ نشط (الاخوان المسلمون) نشاطا شديدا وصرحت لهم وزارة محمود فهمى النقراشى بعقد الاجتماعات والمؤتمرات الشعبية فى اواخر عام ١٩٤٥ بينما حرمتها على كافة الهيئات الاخرى ٠

وكان حسن البنا طموحا يبغي الاتصال بالملك ليخلق بين الاخوان والسراي نوعا من التعاون الوثيق ٠٠ ولجأ في ذلك الى انور السادات يوسطه ـ حسب روايته ـ ليطرق باب صديقه الدكتور يوسف رشاد ليمهد له مقابلة مع الملك ٠

وقد وجد عدد ملحوظ من الضباط في هذه الجماعة مركز جاذبية لهم يختلف عن الاحزاب السياسية التي تعتمد على التنظيمات الجماهيرية المفتوحة ، حيث انه كان لهم تنظيم هرمي يقف المرشد على قمته ، ولهم تنظيم عسكري خاص لا يخلط بين المدنيين والعسكريين كان يساعد المرشد في الاشراف عليه ضابط مصري سابق كان قد هاجر الى المانيا ثم عاد منها هو الصاغ محمود لبيب الذي اتصل بمعظم الضباط الذين جندوا في الجماعة ، هذا الى جانب تنظيم الجهاز السري الذي كان يصل اليه الموثوق فيهم وكان تحت اشراف عبد الرحمن السندي ٠

وفي الايام الاخيرة لوزارة الوفد عام ١٩٤٤ استدعى فؤاد سراج الدين وزير الداخلية حسن البنا ، وابلغه بأن الوزارة لاتسمع بخروج جوالة الاخوان لاستقباله على المحطات او القيام بطوابير استعراضية له ٠٠٠ وكان فؤاد سراج الدين قد زار المركز العام للاخوان خلال الحرب عندما كانت جمعية معانة مثل الشبان المسلمين يحرصون على الظهور في مظهر ديني ـ وكانت شعب الاخوان قد بلغت ما يزيد عن ٥٠٠ شعبة تقوم بمشروعات اجتماعية تحصل بها على اعانات من الدولة ٠

واستدعى مصطفى النحاس حسن البنا اثناء الحرب العالمية لمقابلته في مينا هاوس حيث أقام فترة وحذره من الانغماس في العمل السياسي وطلب منه الا يتجاوز حدود دعوته الدينية ٠

ولكن اقالة حكومة الوفد كانت نقطة بدء لتحرك الاخوان المسلمين ليس ضده فقط ٠٠٠ ولكن ضد كافة التنظيمات الشيوعية والديموقراطية والاتجاهات الاشتراكية ٠
ووصلت ذروة المساندة لجماعة الإخوان المسلمين عندما تولى اسماعيل صدقي الوزارة بعد مذبحة كوبرى عباس ، ووجد في الوفد كتلة صلبة لا تلين في عدائها التقليدي التاريخي له منذ مطلع الثلاثينات ٠٠ هرع اسماعيل صدقي عقب توليه الوزارة الى زيارة مركز الارشاد لجماعة الاخوان المسلمين في الحلمية الجديدة ، ونسق سياسته معهم ، حتى اصبحوا من مروجي الدعاية له والمدافعين عن سياسته ٠

عندما كانت الجامعة في عنفوان اشتعالها الوطني وقف مصطفى مؤمن

زعيم الاخوان في الجامعة يعلق على وعود اسماعيل صدقي المعسولة بآية من القرآن « واذكر في الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا » .

وعندما شكلت (اللجنة التنفيذية العامة للطلبة) شكل الاخوان (لجنة الطلبة التنفيذية العليا) وعندما تكونت اللجنة الوطنية للعمال والطلبة) التي قادت مظاهرات ٢١ فبراير ، اسرع الاخوان الى تشكيل (اللجنة القومية) وفيها ممثلون ايضا لمصر الفتاة والحزب الوطني وحزب الفلاح الاشتراكي وجبهة مصر .. والتنظيمان الاخيران من التنظيمات الشكلية التي تعتبر لافتات بلا جماهير . وقد ساندت الحكومة هذه اللجنة واتفق على ان يكون محمد حسن العشماوي وزير المعارف ممثلاً للحكومة في هذه اللجنة .

ومع ذلك لم يستمر الاخوان طويلا في عضوية (اللجنة القومية) التي شكلت في مركز الاخوان ، بل اعلنوا عقب يوم ٤ مارس ١٩٤٦ ـ يوم الحداد العام ـ انهم يعتبرون ان اللجنة قد شكلت لاظهار شعور الامة ، وان مهمتها تعتبر قد انتهت بذلك ... ولكن بقية اعضاء اللجنة اصروا على بقائها حتى تتحقق المطالب الوطنية بالجلاء والوحدة .

ورغم هذه المواقف السياسية الناشزة من الاخوان المسلمين فان اتصالهم بالضباط كان عريضا ومنتشرا لم يقتصر على افراد محدودين ... ضباط الطيران كانوا على اتصال بهم ... وانور السادات كان على صلة شخصية بحسن البنا الذى كان أول من اتاح له فرصة التعرف بعزيز المصري كما ورد في كتابه (اسرار الثورة المصرية) ... وقد لعب عبد المنعم عبد الرؤوف قائد السرب الذى حاول الهرب مع عزيز المصرى دورا نشيطا في هذا المجال استمر الى مابعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ... وخالد محيي الدين عضو مجلس قيادة الثورة فيما بعد قال انه كان عضوا في الاخوان ومجموعته التي وصلت الى مستوى الانضمام للجهاز السرى العسكرى لهم كانت تضم البكباشي جمال عبد الناصر والصاغ كمال الدين حسين ... ولم يكن الانضمام لهذا الجهاز السرى مفتوحا الا للخلصاء موضع الثقة ... وكانوا يقسمون يمين الاخلاص للدعوة في غرفة مظلمة خالية بمنزل عتيق في حى الصليبة ويد الضباط على مصحف ومسدس معا .

الظاهرة التي تستلفت النظر هي قيام هذه المجموعة المنضمة للاخوان بعقد جلسات لتحضير الارواح ... يقول ثروت عكاشة وزير الثقافة فيما بعد أن مجموعة كانت تضمه هو وجمال عبد الناصر

وعبد الحكيم عامر وخالد محيى الدين كانت تعقد جلسات لتحضير الارواح كل أسبوع بحضور الشيخ عبد الرحيم القناوى ، ويقول مجدى حسنين ان مجموعة اخرى كانت تضمه ايضا مع جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر واللواء طبيب حسين رياض كانت تحضر الارواح مع وسيط آخر هو الدكتور عزت خيرى الذى اصبح عميدا لكلية علوم جامعة القاهرة .

هكذا كانت الاخوان تضم اعدادا من الضباط ينتظمون فى جماعات تنتشر بينهم الافكار الآتية :

١ - معاداة الحزبية بأشكالها القائمة على اختلاف اتجاهاتها وأفكارها الاجتماعية ، مما رسب فى نفوسهم روحا معادية للديموقراطية ... وكان الاخوان يعتمدون على شعار (الرسول زعيمنا) بمعنى الرفض الكامل للزعامات الشعبية القائمة .

٢ - التمسك بالغيبيات التى تنشر الضباب الفكرى وتحول دون انطلاق الرؤية الى آفاق جديدة كما يتضح من تركيزهم على عقد جلسات لتحضير الارواح يحضرها الضباط .

٣ - الانضباط التام للتنظيم والخضوع المطلق لشخصية المرشد الذى كان يقف وحده بصلاحيات مطلقة على قمة التنظيم الشعبى والعسكرى السري معا .

٤ - تبنى مفاهيم عنصرية خاطئة لا ترتبط بالواقع بل تحرف الانظار عما يدور فى المجتمع مثل قول المرشد « ان الدور عليكم فى قيادة الامم وسيادة الشعوب ، وتلك الأيام نداولها بين الناس » وهى ترديد بصورة اخرى لبعض الافكار النازية العنصرية .

وكانت فرصة تجنيد الضباط لجماعة الاخوان متاحة اكثر من غيرها ... فالارهاب يحتاج الى جرأة وشجاعة وسرية وتعرض الذات للخطر ... كما ان التجنيد للتنظيمات اليسارية كان يتم فى سرية مطلقة فى وقت كانت كلمة (الاشتراكية) وحدها تكفى لالقاء الشبهات على الناطق بها ، وفتح ابواب المعتقلات له فى اول فرصة مناسبة .

ومع تدفق الضباط على تنظيم الاخوان وكثرة عدد الذين ارتبطوا به ، فان كثيرا منهم لم يجدوا فى الاخوان ما يرضى نزعاتهم الوطنية الايجابية ، ولم يجدوا اجابة وافية مقنعة على اسئلتهم واستفساراتهم ، كما سيتضح فى مسار الحركة السياسية بعد ذلك .

ثالثا ـ التنظيمات اليسارية :

التنظيمات اليسارية لم تعاود نشاطها فى مصر بعد ضرب الحزب الشيوعى المصرى عام ١٩٢٤ ، وحل تنظيماته ومطاردة وسجن اعضائه الا خلال الحرب العالمية الثانية بعد الانفراجة السياسية التى صبحت تحالف الاتحاد السوفييتى مع بريطانيا والولايات المتحدة فى حربهم المشتركة ضد محور النازية والفاشية .

وتشكلت عدة تنظيمات جديدة ...

(اسكرا) وهى كلمة روسية تعنى (الشرارة) بالعربية وكانت واجهتها العلنية دار الابحاث العلمية .

(طليعة العمال) هى تنظيم سرى اصدر مجلة (الفجر الجديد) وعمل فى اوساط الطلبة والعمال .. كانت له داران للنشر هما دار القرن العشرين ولجنة نشر الثقافة الحديثة ... وكانوا على صلة وثيقة بالشباب الوفدى .

(الحركة المصرية للتحرر الوطنى) كانت أكثر الحركات الشيوعية ارتباطا بالواقع وانتشارا بين التجمعات الجماهيرية ، وكانت لها صحيفة (ام درمان) العلنية .

وقد حدث اندماج عام ١٩٤٧ بين (اسكرا) والحركة المصرية للتحرر الوطنى فى تنظيم سرى باسم (الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى) او حدتو .

وكانت الافكار اليسارية التى حرصت هذه التنظيمات على نشرها فى صفوف العمال والطلبة والمثقفين ، قد بدأت تمثل مركز جاذبية ملحوظة حتى لعدد من الضباط الذين بهرتهم الافكار والتنظيمات النازية فى المرحلة السابقة لهزيمة المحور .

اتصل عبد اللطيف بغدادى ومجموعة الطيران ضمن اتصالاتهم المتعددة مع (جمعية الرياضة وأوقات الفراغ) التى اسسها حسنى العراقى أحد الاعضاء السابقين فى الحزب الشيوعى المصرى القديم ، ولكنهم لم يستقروا بها لانها لم تشبع رغبتهم فى العمل والحركة .

كما حدث اتصال بين هذه المجموعة وبين ميكانيكية الطيران الذين بدأ انتشار الافكار الماركسية فى الجيش بينهم .. ولكن لم يحدث اندماج تنظيمى نتيجة فروق الرتبة والاتجاهات الطبقية والميول الفكرية المتنافرة بين الضباط وصف الضباط .

كانت الصلة قد بدأت بين (الحـــركة المصرية للتحرر الوطني) وبين صف الضباط المتخرجين من مدرسة ميكانيكا الطيران ، والتى كانت قـــد فتحت ابوابها كمدرسة جديدة بعد المعاهدة عام ١٩٣٧ ودخلهـــافى الدفعـــة الاولى ٩٠ طالبا حاصلين على شهادات الكفاءة او البكالوريا او الفنـــــون والصنايع نظام الخمس سنوات ٠

تم اجتذاب الطلبة والخريجين خـــلال مطالب اقتصادية بدأت بالمطالبة بان تتاح فرصة الترقي لرتبة طيار من ضباط الصـــف ، وقد عـــارض ذلك معارضة شديدة الطيارون القدامى ٠٠٠ ولكن تحقق ذلك بالنســـبة للدفعـة الخامسة مما اثار خريجي الدفع السابقة مطالبين بمساواتهم بنظـــام الدفعة الخامســـــة التي كانت دراستها تمتد خمس سنين ، مـــع المطالبة بتغيير اللبـــاس ٠

كان قادة هذا النشاط من المنضمين سرا الى الحركة المصرية للتحـــرر الوطني وبدأوا حركتهم بعمل برنامج يحقق المطالب الوطنية والاقتصـــادية ، وكونوا تنظيما سريا من ٤٢ شـــخصا بحيث يمثل كل سرب او قسم اثنـــان من المندوبين ، وتكونت لجنة تنفيذية غليا من ١١ شخصا كان النفوذ الرئيسى فيها للشيوعيين ٠

ولم يقتصر نشـــاط هذه المجموعة على سلاح الطيران وانما امتد ايضا الى ميكانيكية ســـلاح الصيانة ثم الطيران المدنى ٠٠٠ وعنـــدما تحققت مطالب ميكانيكية سلاح الطيران فيما يتعلق باللباس والمســـاواة ، ارتفعت معنويات زملائهم فى سلاح الصيانة ، وتحـــرك ٦٠٠٠ طالب وخـــريج منهم متوجهين الى قصر عابدين ٠٠ ولكنهم صرفوهم على وعد بتحقيق مطالبهم ، ثم اعتقلوا بعضهم ٠

وانتشر هذا النشاط حتى وصل الى خريجي مدرســـــة الكتـــاب العسكريين والموسيقيين ٠٠٠ ووجدت الافكار اليســـارية مجالا للانتشار بعـد هزيمة رومل فى العلمين وظهور الاتحاد السوفييتي كقـــوة حربية وسياسية هائلة ٠

والملاحظ ان نشاط الاخوان كان مركزا على صغار الضباط ، ونشـــاط الشيوعيين كان مركزا على الميكانيكية وضباط الصـــف ولم يكونوا قـــد وصلوا بعد فى هذه المرحلة الى صفوف الضباط ، كمـــا ان السراى كانت تواصل اعتمادها على كبار الضباط الذين خمدت عندهم طاقة الحماســـة الوطنية وارتضوا التبعية للسراى والاستعمار ٠٠٠

وكان موازيا لهذه الحركات في صـفوف الجيش المصرى ، حـركات

أخرى في صفوف الجيش اليوناني المعسكر في مصر ... وكانت اليونان تحت دكتاتوريه الجنرال ميتكساس منذ عام ١٩٣٦ .. ، ولذا كان الحزب الشيوعي اليوناني هو الذى يتولى قيادة الكفاح السرى المسلح في اليونان ... وتشكلت جبهة التحرير الوطني (ايام FAM) في خريف ١٩٤١ ، وتشكل جيش التحرير الشعبى (ايلاس) في ربيع ١٩٤٢ .

وكانت اليونان بالنسبة للحلفاء نعجة من النعاج السوداء لديكتاتوريتها السابقه ، ولكن الملك ورئيس وزرائه في المنفي ايمانويل سودوروس اعلنا أن اليونان حكومة ديموقراطيه تحكمها ملكية دستورية ..

ومع ذلك ظلت (ايام وايلاس) تهاجمان الملك باعتباره عدوا للشعب اليوناني ، وممثلا لعصبة فاشيه ، وامتلأت جدران الشوارع في القاهرة والاسكندرية بكتابات يونانية وعربية تعلن شعارات المنظمتين ، واخذت احدى المجلات اليونانيه هذا الاتجاه الذى عارضته القوات البريطانية في مصر لما استشعرته فيه من خطر ، وخاصة بعد ان حدثت اتصالات سياسية بين القوى اليسارية الناشئة في مصر « الحركة المصرية للتحرر الوطني » والقوى اليسارية اليونانية في مصر .

وفي الوقت الذى كان البريطانيون يقدمون فيه أقصى مساعدة لايام وايلاس في اليونان ، بدأوا هجوما على فروعهما في مصر .. وحدثت في مصر عدة تمردات في صفوف الجيش اليوناني .

حدث تمرد في معسكرهم بمينا هاوس واحتل الكولونيل نيكولاميدس مقر قيادتهم في شارع قصر العيني .. وتمرد اللواء الذى كان معدا للحركة في ايطاليا ، وأعلنت خمس مراكب بحرية ولاءها للجمهورية ، وكذا بعض وحدات الطيران ...

وتمرد البحارة التجاريون لمدة ثلاثة اسابيع في الاسكندرية .... ولكن القوات البريطانية استطاعت قمع هذه التمردات ومحاكمة المسئولين عنها ... وكانت الحرب الاهلية قد ظهرت بوادرها في اليونان عندما اصدر تشرشل يوم ٢٩ سبتمبر ١٩٤٣ قرارا بتجهيز ٥٠٠٠ عسكرى بريطاني لتولية الملك جورج على عرشه .

وكان اليساريون في صفوف الجيش المصرى على صلة بهذه الحركات يقدمون لها المساعدة ويتخذون منها مادة للاثارة والهجوم على البريطانيين دون ان يتورطوا في تأييد النازيين .

وخلال هذه الحركات السرية النشطة داخل الجيش ، التقطت التنظيمات السرية عددا من الضباط في الفترة التى اعقبت الحرب مباشرة

وكنت اول ضابط مصرى تتاح له فرصــــــة الانضمام لهــذه التنظيمـــات ، والعمل في مجموعة واحدة مع صف ضباط الطيران وغيرهم ، وانفتح بذلك مجال لتجنيد عدد من الضباط ليصبحوا ماركسيين ·

وكان التجنيد للتنظيمـــات اليسارية داخـل الجيش عملا شـــــديد الصعوبة بالغ التعقيد معرضا في ذاته لاخطار العصف به من القـــوى الرجعية المتربصة بأى نشاط تقدمي وخاصة في صفوف الجيش ·

ومع ذلك فان حيرة الضباط الوطنيين بعد هزيمة النازية ، وعجـــز الاخوان المسلمين عن ارضاء نفوســــهم بالاجـابة الوافية على اسئلتهم واستفساراتهم ، وحـــركة المد الثورى التى انطلقت فى المجامع وتمثلت فى حركة المظـــاهرات والاضرابات المتزايدة ، وادانة الارهـاب من اصـحاب الضمائر الوطنية والافكار السليمة ، الى جانب السمعة الطيبة ألتى احوزتهـــا الحركات المسلحة السوفيتية خلال الحرب والتأييد الواضح المعلن منجانب الدول الاشتراكية لقضيتنا فى هيئة الامم وخارجها ··· معتوافر التصور الفكرى الواضح لمشاكل المجتمع ووجـــود اجابة وافيه عميقة على تســـاؤلات الضباط ، الى جانب الثقافه الملحـــوظة التى يتميز بها اليســـاريون الذين يعتمدون فى حركتهم على عقولهم وأفكارهم ··· دون الاعتماد علىالعضلات او الغيبيات ·

كل هــذه العوامل مجتمعة كانت تجعل من التجنيد للتنظيمات اليسارية امرا ممكنا رغم خطورة ذلك فى صفوف الجيش ، الا انـــه لا يمكن مقـــارنة نسبة التجنيد لهذه التنظيمات بنسبة التجنيد للاخوان المسلمين مثلا ··

الامر عند الاخوان لم يكن يحتاج الى تغيير الافكـــــار والمعتقــدات القديمة ، والقسم على مصحف ومسدس كان كافيا لضم العضـــو الجديـد ··· اما فى التنظيمات اليسارية فان الامر كان يحتاج الى مباراة فكرية تهتـز فيها الافكار القديمة الثابتة لتشرق الافكار الجديدة النامية ···

والانضمام للاخوان لم يكن يعرض الضابط لخطر الارهاب البوليسى ، بينما الانضمام للتنظيمات السرية اليسارية كان يضع الضابط فى مركز خطر شديد لا يملك سلاحا لحماية نفسه به الا السرية والامان ·

وخلال هذه الفترة امكن خلق نواة من صــــف الضباط والضـــباط اليساريين في صفـــوف الجيش ، يصدرون منشورات تلاحق الاحــداث وتفسرها وتنقد ما فيها من اخطاء ··· وكانت تصـــدر بتوقيع (رجـــــال الجيش) ·

ولم يحدث أن تعرضت هذه التنظيمات لكشف السلطة لها ومحاولة

العصف بها الا فى سلاح الطيران عندما اشتدت موجة المطالبات الاقتصادية وما كشفته من اتجاهات سياسيـــة أدت الى نفى ٤٠ صف ضـــابط الى ســـــيوة .

وكانت الاحداث السياسية قد بدأت تأخذ اتجاها جـــديدا مؤثرا ... كانت له انعكاسات هامة ايضا فى صفوف القوى العاملة داخل الجيش .

استقال اسماعيل صدقى وتولى محمود فهمى النقراشى رئاســة الوزارة بعد توقف المفاوضات .

واستغلت الحكومة قرار البريطانيين بالانســحاب الى منطقة القنـــاة لتهدئة الخواطر ومنع الاحتكاك مع المصريين ، فأقامت احتفالات لرفـــع العلم المصرى على القلعة وثكنات قصر النيل وغيرها ، ولكن المظاهرات والاضرابات لم تتوقف للكشف عن طريقة (الجلاء الجزئى) والضغط على الحكومة لالغـــاء معاهدة ١٩٣٦ واتفاقية ١٨٩٩ واللجوء الى مجلس الامن .

وقدمت الحكومة عريضة المسائل المصرية الى مجلس الامن يوم ١٣ يوليو بعد ثمانية شهور من توليها الحكم وبعد يوم واحد من فض الدورة البرلمانية تفاديا لمواجهة المعارضة .

وسافر النقراشى الى نيويورك يوم ٢٢ يوليو ١٩٤٧ وعرض القضـــية المصرية بطريقة عبرت عنها صحيفة التايمز البريطـــانية « النقراشى يسير سفينته بشراع المعارضة » وركزت الدعاية على قوله « ايهـــا القراصنة اخرجوا من بلادنا » .

أيد مصر فى مجلس الامن ثلاثة مندوبين ، المندوب الســـورى فارس الخورى والمندوب السوفييتى اندريه جروميكو والمندوب البولندى اوســكار لانج ، ووقفت فرنسا ضد مصر خوفا من اشتعال الحركة الوطنية فى شـــمال افريقيا ضد فرنســـا ، بينما وقفت الحكومة الامريكية موقفا عبرت عنــه صحيفة نيويورك تايمز بقولها انها « ليست مستعدة لتأييد مطـــالب مصر أو جلاء الانجليز عنها ولا الى التصويت ضدها وان مصلحتهـــا تأجيل البت فى النزاع » .

وقد كشف عرض القضية المصرية على مجلس الامن حقيقـــة اتجـاهات الدول الكبرى بطريقة عملية ... ارتفعت اصوات فى مصر تطالب بصداقـــة الاتحاد السوفيتى الذى وقف معنا ، ومثال ذلك مصر الفتـــاة التى غيـرت موقفها بعد ان كان احمد حسين قد سافر الى الولايات المتحـــدة فى بداية ١٩٤٠ والقى تصريحات تؤيد الســـياسة الامريكية وتؤيد مبدأ ترومان :الذى

كان يقضي بالتدخل في شئون ايران واليونان وتركيا ، وهي الدول المجاورة للاتحاد السوفيتي .

وارسل برقية الى ترومان من الف كلمة يهنئه فيها بقرار مساعدة تركيا واليونان ، ويرحب فيها باهتمامه بالشرق الاوسط ويقول له « ان السياسة الامريكية لمقاومة الشيوعية يجب ان تشمل مصر وهي لا تطلب مالا بل تطلب الحرية فانها اذا حصلت على استقلالها ووحدتها مع السودان ستكون سدا منيعا ضد الشيوعية » .

ولكن موقف مجلس الامن كان تجربة بددت اوهام احمد حسين في صداقة الولايات المتحدة لمصر مما جعله يخفف حملته ضد الدول الشيوعية ويذهب بنفسه الى السفارة السوفيتية والبولندية ضمن الوفود التى توافدت عليهما للشكر ... وكذلك حافظ رمضان زعيم الحزب الوطنى المعروف بمواقفه المحافظة اصدر بيانا يطلب فيه ان توثق مصر علاقاتها مع الدول التي ساندتنا في مجلس الامن .

وكان محمود فهمي النقراشي قد طلب من الولايات المتحدة وهو بنيويورك ان تمنحه قرضا ومساعدات اقتصادية فلم تجبه ، وطلب اليها ان تمد الجيش المصرى بخبراء عسكريين فكان الجواب انه ليست لديهم خطة حول هذا الموضوع .

وامام غموض الموقف السياسي انفجرت المظاهرات الشعبية في ٢٢ اغسطس ونادى الوفد بالحياد ، وظهرت الدعوة الى الكفاح المسلح برفع شعار (الجلاء بالدماء) وزادت اضرابات العمال زيادة ملحوظة من سبتمبر ١٩٤٧ ، وصلت الى ذروتها عندما أضرب عمال شركة الغزل والنسيج بالمحلة الكبرى البالغ عددهم ٢٦٫٠٠٠ عامل واطلق البوليس عليهم الرصاص فقتل اربعة عمال وأصاب ٢٠٠ وشبت بعض الحرائق قدرت الصحف خسائرها بنحو ٢٠٫٠٠٠ جنيه .

واستدعي الجيش للتدخل فحاصرت قواته المصنع ورابطت عرباته المصفحة بجوار المرافق العامة ، ولكنه كما حدث عام ١٩٤٦ لم يشتبك مع العمال باطلاق الرصاص ... او لم يطلب منه الدخول في هذا الاختبار .

وفي ٢٦ سبتمبر اضرب عمال الشركة الاهلية للغزل بالاسكندرية واعتصموا بمصنعي الشركة ، وارسلت اليهم قوات من الجيش ايضا ، واعلنت حالة الطوارىء في الاسكندرية .

واضرب عمال شبرا الخيمة تضامنا مع زملائهم وخرجوا في مظاهرة كبيرة منعتها قوات البوليس من دخول القاهرة .

توالت حركات الاضراب حتى أصبحت ابرز ظواهر هـــذا العام وبداية عام ١٩٤٨ فقد أضرب مدرسو التعليم الحر ، وموظفو التلغراف وامتنع نظار ومعاونو السكة الحديد عن العمل ، واضرب المدرسون عن تصحيح اوراق الامتحانات ، واضرب خريجو المدارس الثانوية الصناعية في مسابك السكة الحديد ببولاق وورش ابو زعبل ، والممرضون بالقصر العيني حيث قتل سليم زكي حكمدار العاصمة .

وتعددت اضرابات الطوائف وتصاعدت موجتها حتى وصلت الى غايتها عندما اضرب رجال البوليس انفسهم مطالبين بمساواة العسكريين منهم برجال الجيش ومساواة الاداريين منهم برجال القضاء ، وقدموا بذلك عدة مذكرات لم يحصلوا منها على جواب فاجتمعوا بناديهم في حديقة الازبكية يوم ١٣ أكتوبر ١٩٤٧ وقرروا الامتناع عن العمل يوم ١٥ اكتوبر حتى تجاب مطالبهم وقرروا تسجيل أسمائهم في قصر عابدين حتى لايتهمون بالتمرد السياسى .

وفى صباح ذلك اليوم اعلنت الحكومة حالة الطوارىء كمحاولة منها لمنع الاضراب ولكن ضباط القاهرة تركوا مكاتبهم وغادروا أقسام البوليس واجتمع ٥٠٠ منهم بالنادى ووصلتهم براقيات تأييد من ١٧٧٢ ضابطا بالاقاليم ... وقرر ضباط الاسكندرية النوم فى ناديهم .

وبعد مقابلة الملك لعدد من مندوبى الضباط عدل الضباط عن الاضراب ، ولكن الحكومة شتتت قادتهم ونقلتهم الى الاقاليم واحالت بعضهم

الى الاستيداع .

ولم يؤثر ذلك فى استمرار حركة ضباط البوليس اذ اجتمعوا بناديهم في مارس ١٩٤٨ وقرروا ان يكون ١٥ ابريل موعدا لنهاية مدة الانتظار لاجابة مطاليهم مع المطالبة باعادة المنقولين والمحالين الى الاستيداع .

وفى اليوم المحدد للاضراب احتشد ضباط البوليس فى ناديهم يحاصرهم ضباط الجيش الذين كان مجلس الوزراء قد قرر ان يحتلوا اقسام البوليس ويقوموا بحفظ النظام .

تضامن الصولات والكونستبلات وعساكر البوليس مع ضباطهم ، وعندما حاول رجال الحرس الجمركى فى الاسكندرية الخروج فى شبه مظاهرة اصطدمت بهم قوات الجيش وقتل ثلاثة منهم واصيب ٢٧ .

وحدث صدام آخر اطلق فيه الجيش الرصاص على المظاهرات التى خرجت في الاسكندرية تضم العمال والطلبة وجنود البوليس وقد رفع بعضهم ارغفة الخبز فوق بنادقهم ، وعندما امتلأ بهم ميدان المنشية اطلق

الجيش عليهم الرصاص ، وجاء رد الفعل في صورة حرائق صغيرة بقسمي الجمرك والميناء واحترقت ١٥ عربة ترام وبعض المحال ودور السينما وقتل ٢٧ شخصا منهم ٧ من جنود البوليس ...

واصدرت الحكومة قرارا بمنع التجول في الاسكندرية من السابعة مساء ، وسافر النقراشي الى الاسكندرية بعد ان اتخذ مجلس الوزراء قرارا بفصل كل من لا يعود الى عمله في اليوم التالي مع تقديم المحرضين الى المحاكمة العسكرية ومنع النشر عن اخبار هذا اليوم وصودرت الصحف .

وكان هذا الاضراب في صورته التي تم بها تعبيرا عن التفسخ الذي وصلت إليه الحاله ، وعجز الحكومة عن مجابهة الامور .

وكانت الطلقات التي خرجت من بنادق الجيش ضد جنود البوليس أو مظاهرات الشعب دليلا على أن الخطر قد وصل فعلا الى حد تهديد النظام نفسه اجتماعيا وسياسيا .

ولم يكن الجيش نفسه بعيدا عن التأثر بهذه الحركات السياسية ـ مشروع صدقي بيفن ـ فشل القضية في مجلس الأمن ـ عجز الحكومة عن مجابهة الموقف ـ تصاعد الاضرابات والمظاهرات .

وكان أمرا خطيرا أن يصل انفعال الجيش بحركات الجماهير الى الذروة ، لانه يعني في مضمونه احتمال انفجار ثورة شعبية لا تخمدها قوة مسلحة خاضعة للسلطة الحاكمة .

كانت هذه الفترة من امجد فترات نضال الشعب المصري في حركة سياسية واجتماعية مشتركة .. وفي تناسق ناشئ بين الشعب والجيش .

ولم يكن منتظرا ان تصاب السلطة الحاكمة ومن ورائها الاستعمار بشلل مفاجئ ... بل كان امرا منتظرا وطبيعيا ان يحدث تدبير ما يجهض هذه الانتفاضات الشعبية ، ينهي رد فعلها في صفوف الوطنيين بالجيش ؟

وكانت قضية فلسطين .

حرب فلسطين ١٩٤٨

(انني متفائل ونحن نعرف قوة اليهود ، وانا احب اطمئنك الى ان الانجليز هم الذين شجعونى على ذلك) ٠

محمود فهمى النقراشى لفؤاد سراج الدين
فى مجلس الشيوخ يوم ١٢ مايو ١٩٤٨

طلب ترومان رئيس الولايات المتحدة من الحكومة البريطانية فى أكتوبر ١٩٤٥ فتح أبواب فلسطين فى الحال لدخول مائة ألف مهاجر يهودى ٠٠٠ وقد أذعنت الحكومة البريطانية لذلك نتيجة أزمتها الاقتصادية ، واعتمادها على الولايات المتحدة لإعادة بناء ما خلفته الحرب العالمية الثانية ، ولكنها رأت اشراك الامريكيين معها فى تنفيذ سياسة التوسع فى تهجير اليهود وذلك حتى لا تتحمل وحدها مسئولية ذلك امام جماهير الامة العربية ، فى الوقت الذى ستفيد منه الولايات المتحدة حيث زاد نفوذ اليهود الامريكيين داخل الحركة الصهيونية حسب ما ورد فى مذكرات وايزمان ٠

وكان من أهم جوانب هجوم تشرشل زعيم حزب المحافظين البريطانى على سياسة بيفن فى تصريحه بالجلاء عن مصر سنة ١٩٤٦ أن هذا الجلاء يقضى بالبقاء فى فلسطين الامر الذى يبعد امكانيات الاتفاق بين بريطانيا وامريكا ، ومع فشل مشروع صدقى بيفن فى اواخر ١٩٤٧ وضح ان اتفاقا

قد تم على أن تترك فلسطين للولايات المتحدة من خلال تمكين الصهيونية فيها على ان يستمر بقاء الانجليز فى مصر .

وفى خريف ١٩٤٧ اعلنت بريطانيا عزمها على انهاء الانتداب عن فلسطين فى ١٤ مايو ١٩٤٨ وعرضت الامر على الامم المتحدة التى أصدرت قرارها بتقسيم فلسطين فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ .

وقد صدر هذا القرار فى وقت كانت الحركة الوطنية فيه ملتهبة فى مصر ، واضرابات الطوائف ومظاهرات الطلبة والعمال تتزايد ، وحركات الارهاب ضد البريطانيين وعملائهم تتجسد .

وكانت قضية فلسطين تشغل بال الرأى العام المصرى ، ولكنها كانت تأتى بالتأكيد بعد قضية الجلاء والوحدة مع السودان والديموقراطية .

ولكن بعض التنظيمات السياسية مثل الاخوان المسلمين ومصر الفتاة دفعت بهذه القضية الى المقدمة وجعلت منها موضوعها الرئيسى ودعت الى الكفاح المسلح ضد الصهيونية ، ونظرت الى فلسطين كمجال لحرب مقدسة وطنية ودينية ... واخذت جماهير هذه التنظيمات تتظاهر وتعتدى على بعض اليهود المقيمين فى مصر ... وارتفعت دعوة التطوع للقتال وسافر احمد حسين رئيس مصر الفتاة الى سوريا ، والف الاخوان المسلمون كتائب الجهاد .

وكان حسن البنا قد وجد فى قضية فلسطين فرصة لمضاعفة نشاط جماعته خارج مصر ، فاكتسب تأييد امين الحسينى مفتى فلسطين ، واتصل بحكام البلاد العربية وملوكها ، وشجعه على ذلك أمين الجامعة العربية عبد الرحمن عزام .

وعندما رفضت وزارة النقراشى السماح لهم بادخال افواج المتطوعين الى صحراء النقب تسللوا عبر سيناء وانضم البعض منهم للجامعة العربية التى شكلت منهم ثلاث كتائب ، وقد بدأ قتالهم الفعلى فى فبراير ١٩٤٨ فى وقت كانت الاضرابات والمظاهرات الوطنية فى مصر من اجل الجلاء قد بلغت الذروة .

اما سياسة الوفد فكانت حسب تصريح لمصطفى النحاس الى جريدة الايام السورية تؤيد ان تكون فلسطين لاهلها مسلمين او نصارى او يهودا ولكنه لا يقبل ان تكون وطنا قوميا للصهيونية ، وقال انه اعلن ذلك فى بروتوكول الاسكندرية الذى صدر عام ١٩٤٤ بانشاء الجامعة العربية .. وقد عارض الوفد بوضوح تقسيم فلسطين ولكنه لم يدع الى الكفاح المسلح

او انشاء الكتائب او دخول الجيش المصرى للحرب واكتفى باسلوبه التقليدى فى النضال الجماهيرى .

اما الحركات الماركسية وهى (الحركة الديموقراطية للتحرر الوطنى) (طليعة العمال والفلاحين) فقد اتخذت موقف العداء للصهيونية ودعت الى مقاومتها وكشف ارتباطها بالاستعمار الامريكي ، وشجعت اليهود المعادين للصهيونية الذين انتظمتهم (رابطة الاسرائيليين لمكافحة الصهيونية) و (الحركة المضادة للصهيونية) والتى نادت بالقضاء على الحركة الصهيونية والوقوف ضد هجرة اليهود من مصر وتأكيد ارتباطهم بمصالح الشعب المصرى وكفاحه الوطنى .

وعندما صدر قرار التقسيم عارضته (طليعة العمال والفلاحين) وأيدته (الحركة الديموقراطية للتحرر الوطنى) مبررة ذلك بقولها « اننا لا نريد ان ننزع فلسطين من العرب ونعطيها لليهود بل ننزعها من الاستعمار ونعطيها للعرب واليهود ، ولا نوافق على التقسيم الا مضطرين كاساس لاستقلال فلسطين ثم يبدأ كفاح طويل للتقريب بين وجهات النظر فى الدولتين العربية واليهودية » .

وقد عارضت (حدتو) الدعوة المحمومة لدخول حرب دينية موضحة انه لن يفيد منها سوى المستعمر منادية كما جاء فى مجلتها الجماهير (لتوجه السلاح الى الاستعمار فى فايد وقنال السويس والسودان فلن يمكن تحرير فلسطين وظهورنا مكشوفة للعدو » وجاء فى بيان للحركة الديموقراطية للتحرر الوطنى « ان الضمان الوحيد لوحدة فلسطين هو العمل على ايجاد جو من الالفة والثقة المتبادلة بين الجماهير الكادحة العربية واليهودية ، وانه اذا كان قد اتخذ قرار التقسيم فان طريق توحيد الدولتين هو طرد الاستعمار » وعلق البيان على موقف الحكومات العربية قائلا انها تهدف الى « وقف تيار الحركات الوطنية الصاعدة وتحويل حربنا المقدسة ضد الاستعمار الى حرب عنصرية دينية تدعم مركز الاستعمار وانه يرمى الى صرف أنظار الجماهير الكادحة عن الكفاح فى سبيل مستوى معيشتها الى امر خارجى ينسيها هذا الكفاح » . ولكن هذا الموقف لم يجد استجابة لدى الجماهير امام تيار الدعاية التى شنته تنظيمات الاخوان المسلمين ومصر الفتاة وساندتهم فيه الجامعة العربية ، وموقف الوفد المتحفظ من القضية وخاصة بعد القرار الامم المتحدة لمشروع التقسيم .

وكان تيار التطوع يزداد تدفقا ... كتائب الجامعة العربية تسللت الى فلسطين تحت قيادة القائمقام احمد عبد العزيز ومعه كتائب الذين

حسين عضو مجلس الثورة فيما بعد وعدد من الضباط كانوا جميعـــا من المنتمين الى الاخوان المسلمين •

وقد كان لجمال عبد الناصر رأى في التطوع أوضحه لوجيه خليل أحد الضباط الوطنيين الذين سعوا الى العمل التنظيمي خلال الحـــرب العالميـــة ثم استشهد في فلسطين اذ طلب منه تأجيـــــل ذلك حتى يدرس الامر على مستوى الدولة كلها •

وأما مجموعـة الطيران فقـد اتصلت بفوزى القاوقجي قائد جيـش التحرير السورى عن طريق عبد اللطيف بغدادى الذى ابدى اســـــتعداده للتعاون معه بعد ان رفضت الحكومة المصرية تطوع الطيارين عـــن طريـق الهرب الى سوريا بطائرات مقاتلة ••• ولم يكن فى سوريا وقتئذ ســـلاح للطيران ، ولا مطار سرى يصلح للهبوط •

وقال فوزى القاوقجي انه سوف يحتـــاج لهم فى المعركة الفاصلة • وسافر حسن ابراهيم عضو مجلس الثورة فيما بعـد وزكريا سليمان وهو فنى تسليح حيث قابلا وزير الدفاع السـورى وانشىء مطـار سرى شرق دمشق بستين كيلو ••• وانتدب القاوقجي شابا كان قد تدرب فى المانيـــا ليكون ضابط اتصال مع الطيارين المصريين • ولقـد حضر الى مصر مع جهاز لاسلكى وشفرة خاصة •

وطال انتظار الطيارين المصريين طويلا فلم يتصل بهم فوزى القاوقجي حتى قامت الحرب فعلا ، بعد ان جندوا ١٥ طـــائرة سبتفير صـــالحة للقتال •

وكانت فكرة التطوع تجد لها انصـــارا كثيرين فى الجيش من بينهم محمد نجيب الذى آمن بأن الوسيلة المثلى للقتال فى فلسطين لا تكـــون الا باستخدام حرب العصابات ••• وفى هذه الفترة اصـــدرت كتابا كان الاول من نوعه فى العربية عن (حرب العصابات) •

ولم يكن لجوء النقراشى للقوة المسلحة ودخول الحرب أمرا واردا حتى يوم ١١ مايو ١٩٤٨ عندما تغير رأيه فجـأة (بين عشـية وضحاها) عـلى حسب تعبير الدكتور محمد حسين هيكل رئيس مجلس الشـــيوخ فى كتابه (مذكرات فى السياسة المصرية) وطلب فى ١٢ مايو عقد البرلمان فى جلســة سريعة لطلب دخول القوات المسلحة أرض فلسطين •

كان هذا التغيير المفاجىء فى موقف النقراشى مثيرا للانتباه والدهشة ••• وقد سأله فؤاد سراج الدين زعيم المعارضة الوفدية فى مجلس الشــيوخ عما اذا كان قد قدر موقف الانجليز ووعـــد بلفور وعن احتمـــالات طعنهم

لجيشنا من الخلف ... فكان جواب النقراشي له « اننى متفائل ونحن نعرف قوة اليهود تماما ، وأنا أحب أطمئنك الى أن الانجليز آيضا هم الذين شجعونى على ذلك » .

واعترض ايضا اسماعيل صدقي على دخول الجيش لانه غير مستعد من الناحية العسكرية ولكن النقراشي أكد انها نزهة للجيش .

ولم يكن الملك اقل تحمسا للقتال من غيره ... بل انه بادر بتحريك الجيش قبل موافقة البرلمان عن طريق اعطاء الاوامر لمحمد حيدر وزير الدفاع دون علم رئيس الوزراء ... وأدلى الملك فى اليوم السابق لعرض الامر على البرلمان بحديث الى مراسل اليونايتدبرس تجاوز به حدود اختصاصاته الدستورية وقال انه سيمد العرب بكل مساعدة عسكرية ومالية واقتصادية وانه لن يقبل قيام دولة صهيونية على حدود مصر ولذا فلابد من استعمال القوة .

اتخذ القرار فى لهفة وعجلة ودون دراسة متروية في وقت كان الجيش المصرى فيه ما زال يعانى من نقص التسليح فلم تكن بريطانيا قد امدته بالاسلحة التى طلبها بعد عقد معاهدة ١٩٣٦ ، وكانت بريطانيا قد امتنعت عن تصدير الاسلحة اللازمة نتيجة الوضع الدولى واندلاع الحرب العالمية الثانية ولم تستأنف المفاوضات حول هذا الموضوع الا عام ١٩٤٦ حيث قطعت مرة آخرى بسبب الموقف الداخلى .

كان الجيش المصرى حتى هذه الفترة بعيدا عن تنظيم المعركة ... فلم يكن قد عرف نظام التشكيلات بعد . أى كان اسلحة منفصلة لا تنسيق فيها ولا تجميع للقتال ... وكان التدريب قاصرا ومتخلفا عن مناورات المعركة .

ولم تكن طوابير الجيش تشاهد الا في المحمل والجنازات ... وكانت هذه الحقيقة يدركها كل ضباط الجيش ، ولكن الدعاية الجارفة اشعلت الحماس للقتال ، وجعلت رجال الجيش يقبلون على المعركة فى البداية بروح معنوية عالية .

حدث فى سلاح الطيران ان جمع اللواء شعراوى قائد السلاح ميكانيكية السلاح الجوى ليمهد لهم دخول الحرب ... وتساءل بعضهم عما اذا كانت المناقشة حرة فلما اجاب بالايجاب ، وقال له بعض الحاضرين ان سلاح الطيران تحت يد رجال البعثة البريطانية بطريقة عملية وانه لن تتوافر للمصريين حرية الحركة ، كما ان هناك تناقضا بين وجود القوات المصرية

في سيناء ومن خلفهم القوات البريطانية ... ووجد هذا الرأى موافقة شبه جماعية ...

ولكن ذلك لم يحل دون دخول الجيش ارض فلسطين يوم ١٥ مايو ١٩٤٨ .

وكان فى هذا الموقف انقاذ لنظام الحكم الذى كان يجابه المشاكل الآتية : ــ

١ ــ القضية الوطنية معلقة بعد فشل المفاوضات وفشل اللجوء لمجلس الامن والسياسة الاستعمارية تعمل على فصل السودان ، والجماهير لاتغفل لحظة عن مطالبها الجماعية .

٢ ــ التهاب الموقف الداخلى بالمظاهرات واضرابات الطوائف والهيئات المهنية والعمالية فى مطالبة جماعية بتحسين الاوضاع الاجتماعية ، وصلت الى ذروتها باضراب رجال البوليس .

٣ ــ ضيق الشعب بحكم احزاب الاقلية التى لا تمثل ارادته مطلقا .

٤ ــ استحكام الغلاء الى حد جعل الحياة شديدة الصعوبة بالنسبة للاغلبية الساحقة من الناس .

هذه هى الحالة التى كانت تسود مصر قبل حرب فلسطين مباشرة ، وهى مليئة بعوامل التفجر التى تهدد قواعد النظام الذى كان يستند الى ملكية فاحت رائحة تصرفات رجالها الى الحد الذى أضعف تماما من مركز الملك ، واحزاب الاقلية عاجزة عن مجابهة المستعمرين ، الامر الذى كان يحمل بذور ثورة شعبية .

وهكذا وجدت حكومة النقراشى فى دخول الحرب انقاذا لها مما عجزت عن مجابهته ، ووجد فيها الملك والاستعمار طوق نجاة يتعلقان به لانقاذهما من غضب المجتمع المتزايد يوما بعد يوم .

وصحب دخول المعركة عدة اجراءات أنهت فترة المد الثورى التى بدأت مع انتهاء الحرب العالمية الثانية ، استصدرت الحكومة فى ١٣ مايو قرارا يخولها حق اعلان الاحكام العرفية وبدأت عمليات الاعتقال فى ١٦ مايو لعدد كبير من المناضلين اليساريين واليهود المصريين بلغ عدة مئات فى معسكر هاكستب .. وفرضت الرقابة على الصحف ، وقيدت الاجتماعات العامة ، وضربت الحريات الشعبية .

وهكذا تراجعت المسألة الوطنية والصراع الاجتماعى ... وبرزت هستيريا الدعاية الحزبية ..

بدأت قوات الجيش المصرى معاركها الاولى فوق أرض فلسطين ...
بعد فترة لم يشترك فيها الجيش فى حرب منذ عاد من السودان عام ١٨٩٩ .

خمسون عاما والجيش تحت الاحتلال البريطانى بلا قتال .
كان الجيش المصرى غير مهيأ للقتال تسليحا او تدريبا ... ولم يكن قد قام بمناورات قتال ضد وحدات عصابات متحركة .
قانون التجنيد الذى صدر عام ١٩٠٢ لم يتغير الا عام ١٩٤٧ بعد عشر سنوات من معاهدة ١٩٣٦ وقبل عام واحد من حرب فلسطين .

كان القانون الجديد خطوة الى الامام نحو تطوير الجيش المصرى .. اذ الغى البدل النقدى وخفض مدة الخدمة العسكرية الالزامية من خمس الى ثلاث سنوات ، وسنة واحدة لذوى المؤهلات ، وسمح بتأجيل تجنيد الطلبة حتى سن ٢٧ .

كان غريبا ان يتاخر صدور هذا القانون بعد معاهدة ٣٦ عشر سنتين يظل الجيش خلالها تحت ظروف شديدة التخلف مما أدى بالتالى الى دخوله حرب فلسطين وهو غير مهيأ من ناحية المهارة والقدرة الفنية على القتال الحديث .

ومع ذلك صور له القادة المعركة وكأنها امر يسير لن يحتاج لتضحيات او جهد كبير ... قال اللواء عثمان المهدى رئيس أركان حرب الجيش فى ذلك الوقت لاجتماع من الضباط (أنتم ذاهبون الى فسحة) .
ولم تكن الدولة قد عبأت نفسها للحرب ... بل لم تكن هناك ادارة للتعبئة ... اول كتيبة دخلت ارض فلسطين كانت تحملها عربات اوتوبيس أحضرها أحد المقاولين .
وبعد الهدنه الاولى التى فرضت يوم ١١ يونيو ١٩٤٨ قدم فؤاد سراج الدين استجوابا للنقراشى باشا فى جلسة سرية بمجلس الشيوخ قال له فيه انه قد تبين منذ اليوم الخامس للقتال ان الحكومة تستولى على وسائل النقل المدنية لحساب الجيش .
ولم تكن هناك قيادة مشتركة للجيوش العربية السبعة التى دخلت ارض فلسطين : جيوش مصر وشرق الاردن ولبنان وسوريا والعراق والسعودية وفلسطين والسودان .. وقال النقراشى فى الجلسة السرية ايضا ان نورى السعيد قد عرض عليه تكوين قيادة مشتركة ، ولكنه رفض لانه «لايستطيع أن يتحمل متاعبهم ، ولا يود أن يضع رقبته فى أيديهم» .

وجهات نظر مختلفة للقضية الفلسطينية

عاد القتال فتجدد مرة اخرى يوم ٩ يوليو حيث توقف مرة ثانية يوم ١٨ يوليو .

وكانت قيادة اللواء أحمد المواوى للقوات المصرية محل شكوى كثير من الضباط ، وخاصة محمد نجيب الذى جرح فى هذه الحرب ثلاث مرات ، وحدثت بينه وبين المواوى مشادة انتهت الى نقله مديرا لمدرسة الضباط العظام بالقاهرة ، حتى عين اللواء احمد فؤاد صادق بدلا من المواوى .

وقد تغير الموقف قليلا بعد تعيين اللواء احمد فؤاد صادق لانه كان يجيد الخطابة وأحاط نفسه بعناصر محبوبة من الجيش ... أعاد محمد نجيب الى ميدان القتال قائدا للواء الضارب ، وعين البكباشي محمد كامل الرحمانى الذى قاد حملة الاحتجاج على حادث ٤ فبراير واعتقل نتيجة ذلك ، اركان حرب له .

وقد فكر الضباط الذين كان قد فاض بهم من تصرفات كبار الضباط فى تعيين اللواء أحمد فؤاد صادق رئيسا لأركان حرب الجيش بطريقة مسرحية خلال حفل توديعه بعد انتهاء الحرب ، ولكنه عندما أحس بذلك خرج من القاعة بعد خطبته مباشرة ، وقبل ان يلقى الضابط المكلف باعلان هذا الخبر كلمته .

والحقيقة ان أحمد فؤاد صادق كان على صلة بعضو الحرس الحديدى مصطفى كمال صدقى الذى كان يهيىء له ألامر ليكون رئيسا لأركان الحرب فعلا بارادة الملك والسراى،وليس بارادة الضباط الوطنيين. ومنذ هذه اللحظة تبين لصغار الضباط أن اللواء أحمد فؤاد صادق ليس اهلا لتحمل مسئولية ثورية ، وقد اعترف هو بذلك فى خطاب كتبه الى محمد نجيب بعد الثورة قائلا له : انه كان اشجع منه يوم قبل المهمة التى كلفه بها الضباط الاحرار .

وقد حفلت حرب فلسطين ببطولات نادرة للضباط والجنود المصريين، الذين حاربوا ببسالة فى ظروف شديدة الصعوبة ، واستشهد منهم ٩٧ من خيرة الضباط .

ولم تستمر الهدنة الثانية أكثر من شهرين وتجدد القتال بهجوم صهيونى فى اكتوبر انتهى الى حصار الفالوجا فى ١٦ أكتوبر واستمرت محاصرة لمدة ١٣٠ يوما حتى بدأت مفاوضات رودس ووقعت بها اتفاقية الهدنه يوم ٢٤ فبراير ١٩٤٩ بعد ان توقف القتال يوم ٧ يناير .

كان احد قادة الفالوجا قد أعد خطة لفك الحصار عنها مع التضحية بنسبة كبيرة من حاميتها ، ولكن جمال عبد الناصر احد ضباط حرب الحامية المحاصرة عارض ذلك حتى تكون القوة المصرية بالفالوجا عامل ضغط

سياسي للمفاوض المصرى في رودس ... وهذا يوضح بصيرته السياسية النافذة المبكرة .

وضعت اتفاقية الهدنة بسحب القوات المصرية من الفالوجا ، وتبادل الاسرى خلال عشرة ايام ، ومنع الفريقين من القيام بأى حركات عسكرية او زيادة للذخائر او المهمات الحربية ، وعدم انشاء مطارات في فلسطين .

والمقارنة بين بنود اتفاقية الهدنة التى أقرت الاوضاع القائمة واعطت الفرصة لاسرائيل بالاستيلاء على صحراء النقب والوصول الى ايلات وبين قرار الامم المتحدة الخاص بالتقسيم يوضح ان العرب قد فقدوا فرصة اقامة دولة عربية مستندة الى قرار الامم المتحدة وفقدوا جانبا كبيرا من الارض التى كان قد منحها لهم قرار التقسيم .

صحيح ان التقسيم كان قد منح اليهود ٥٠٪ تقريبا من مساحة فلسطين بينما حجم الممتلكات اليهودية الفعلية لم يكن يتجاوز ٧٪ من هذه المساحة ... ولكنه صحيح أيضا ان العرب فى القسم العربى كانوا اغلبية كبيرة (٦٨٣ الف عربى ، و ٨٠ الف يهودى) وانهم فى القسم اليهودى كانوا ٥٨٤ الف مقابل ٥٨٣ الف يهودى (دراسة الكاتب الفلسطينى خيرى حماد). وان فرصة النضال لتكوين دولة موحدة في ظل السلام ، كانت أكبر من فرصة فرضها بالقتال .

كانت الدلائل توحي بذلك بعد ان تحولت الهاجاناه الى الهجوم بعد رفض العرب قرار التقسيم . وفي الواقع كانت اعمال المقاومة العربية تقتصر فى ذلك الوقت على قطع بعض الطرق أساسا ومحاولة حصار المناطق اليهودية لاحباط الاهداف التوسعية المتبقية ، فخلال الشهور التى اعقبت قرار التقسيم والى ان تدخلت جيوش الدول العربية فى منتصف مايو ١٩٤٨ لم تهجر او تدمر أى مستمرة يهودية ، بينما اقتحمت القوات الصهيونية الكثير من القرى العربية « التى تبعد اميالا كثيرة عن المستعمرات اليهودية بحجة مهاجمة العصابات العربية » .

ويمكن القول ان الفترة مابين اول ابريل ومنتصف مايو ١٩٤٨ تعتبر من اخطر مراحل المخطط الصهيوني وأعظمها أثرا رغم كونها لم تزد عن ستة اسابيع ، فقبل هذه الفترة كان العرب يسيطرون على معظم اراضى فلسطين الا انه خلال هذه الفترة كانت قوات الهاجاناه قد استولت على مدن طبريه وحيفا (عدا الميناء لوجود قوات بريطانيا) وصفد ويافا والاحياء الهامة من القدس كما حاصرت عكا واستولت على الجليل الغربى والشرقى (علما بان الجليل الغربى بما فيه مدينة عكا وكذلك مدينة يافا كانت خارج نطاق

الدولة اليهودية) وتولت العصابات الارهابية (الارجون وشترن) اعمال الارهاب والعنف الرامية الى اجبار السكان المدنيين على ترك مدنهم وقراهم فهاجمت القرى الآمنة وارتكبت مجازروحشية ضد العرب دون تمييز بين الرجال والنساء والاطفال ومن اكثرها بشاعة مذبحة دير ياسين التي جرت يوم ٩ ابريل ١٩٤٨ وانتهت بقتل اكثر من ٢٥٠ عربيا ٠٠٠ وقد بلغ عدد القرى العربية التى تعرضت للهجوم حوالى مائة قريه عربية ٠

هكذا التقى رفض العرب لمشروع التقسيم ونقص قدراتهم العسكرية مع المخطط الصهيونى التوسعي القائم على استخدام القوة ، وانتهى الامر باعلان بن جوريون لدولة اسرائيل مساء ١٤ مايو ١٩٤٨ واعترفت حكومة الولايات المتحدة بها بعد دقائق من اعلانها ووجه ترومان الدعوة لحاييم وايزمان رئيس دولة اسرائيل فى اليوم التالى لتعيينه مباشرة ٠

وقد ساعد على تثبيت دعائم اسرائيل رغم دخول الجيوش العربية ساحة القتال وعرض القضية امام مجلس الامن ، الظروف التى سبق شرحها لحالة الجيوش العربية ، واستفادة الصهيونيين من الهدنة الاولى لاعادة تنظيم وحشد قواتهم واستيراد الاسلحة الثقيلة كالمدافع والدبابات واستخدام الطائرات لاول مرة ، مع ان قرار الهدنة كان يحظر استيراد الاسلحة ٠

وخلال الهدنة وصل الكونت فولك برنادوت مبعوثا لهيئة الامم المتحدة واعد مشروعا يدعو فيه الى توحيد فلسطين وشرق الاردن فى وحدة مكونة من جزاين احدهما عربى والآخر يهودى مع تخصيص النقب كله او معظمه للقسم العربى والجليل كله او معظمه للقسم اليهودى ، اما القدس فتبقى ضمن القسم العربى مع توفير حكم ذاتى للجالية اليهودية فيها ٠٠٠ وكانت نتيجة تفكيره فى هذا المشروع اغتيال الصهيونيين له يوم ١٧ سبتمبر ١٩٤٨ وتعيين رالف بانش بدلا منه ٠

وعندما استؤنف القتال فى ٩ يوليو تمكنت اسرائيل من متابعة هجومها ضد مناطق سبق تخصيصها للدولة العربية والسيطرة على ١٤ مدينة و ٢٠٠ قرية عربية ، واستمر القتال عشرة ايام بدأ خلالها الموقف العسكرى العربى يتعرض للاهتزاز خاصة بعد اخلاء الجيش الاردنى لمدينتى اللد والرملة واستيلاء الصهيونيين عليهما ٠٠٠ وكان الجنرال جلوب البريطاني هو قائد قوات شرق الاردن ٠

ورغم اغتيال برنادوت فان مشروعه عرض على هيئة الامم المتحدة فى أواخر سبتمبر وقبلته بريطانيا وأمريكا ولكن رفضه كل من العرب

والصهيونيين ... العرب رغم وضوح دقة موقفهم وبوادر هزيمتهم والصهيونيين بحجة (تسهيل الدفاع عن حدود اسرائيل) .

ولم يحافظ الاسرائيليون على الهدنة الثانية واستمروا يضيفون مزيدا من الارض حتى تجدد القتال في اكتوبر وسقطت بئر سبع في ٢١ اكتوبر ليتوقف القتال بعد ذلك يوم ٢٢ ، وتدخل الامور في دائرة المفاوضات التي انتهت بالهدنة .

وبينما كان الوفد الاردني يجرى محادثاته في رودس اصدر جلوب اوامره بسحب القوات الاردنية من مناطق رأس النقب وام شرش على خليج العقبة ، حيث احتلتها القوات الاسرائيلية واقيم ميناء ايلات .

ــ ترتب على الهزيمة رد فعل قوى لخارج الجيش وداخل الجيش ... وكانت الحرب قد استغلت اسوأ استغلال وامتلأت المعتقلات والسجون بعدد كبير ، وتوقفت قسرا رحلة المقاومة الثورية ضد الاستعمار والنضال الشعبي ضد الظلم الاجتماعي .

وكانت جماعة الاخوان المسلمين قد انتهزت فرصة حرب فلسطين لتقوية جهازها السرى المسلح وامداده بالاسلحة والذخيرة في الوقت الذى سهم فيه بعض اعضائها بالقتال في فلسطين واستشهدوا هناك في أرضها .

وانتهزت الجماعة فرصة حرب فلسطين فقامت بعمليات ارهابية القت فيها القنابل والمتفجرات على المحال الكبيرة التى يمتلكها اليهود في مصر كاريكو وشيكوريل في يوليو ١٩٤٨ وبنزايون وجاتينيو في اغسطس وشركة لاعلانات الشرقية في نوفمبر ... وكان قد سبق لهم اغتيال احمد الخازندار رئيس محكمة جنايات مصر في مارس ١٩٤٨ ، واغتالوا ايضا سليم زكى حكمدار بوليس القاهرة في ٤ ديسمبر بقنبلة القيت عليه أمام كلية الطب ، وكان هذا مما دفع الحكومة الى حل جماعة الاخوان .

وردت على ذلك جماعة الاخوان باغتيال رئيس الوزراء محمود فهمى النقراشي باشا يوم ٢٨ ديسمبر في بهو وزارة الداخلية ، ومحاولة نسف دار محكمة الاستئناف في ١٣ يناير ١٩٤٩ .

وهنا تصاعدت موجة العنف من جانب الحكومة عقب تولى ابراهيم عبد الهادى رئاسة الوزارة ، وبدأت عمليات الارهاب والتعذيب تطفو فوق سطح الحياة المصرية ... واغتيل الشيخ حسن البنا مرشد الاخوان بتدبير من الحكومة والسراى يوم ١٢ فبراير ١٩٤٩ .

واعتقل في موجة الاعتقالات عدد من ضباط الجيش ، وكان قاتل النقراشي عبد المجيد احمد حسن شقيقا لاحد ضباط سلاح المدفعية ...

واستدعى ابراهيم عبد الهادى البكباشي جمال عبد الناصر لمقابلته ، وحضر المقابلة اللواء عثمان المهدى رئيس هيئة اركان حـــــرب الجيش ، حيث حذره من أي نشاط او ارتباط بالاخوان المسلمين .

وخلال فترة حرب فلسطين وما بعدها كانت صـــلة الاخوان التنظيمية بضباط الجيش قد ضعفت نتيجه عدة عوامل منهـــا حركة الوحــدات الى فلسطين وما يصحبها من تنقلات تضعف الانصالات او انصراف البعض عـن تنظيم الاخوان لما لصق به من تهمة الارهاب ، كما ان عـــددا من الضـــباط كانت عقولهم قد بدأت تتفتح على افكار جديدة ويطلب اجابات لتســاؤلات يعجز الاخوان عن الاجابة عليها ، كما ان القتال في المعركة فتح عيون الضباط على حقائق الحياة وجعلهم يرفضون الخضوع المطلق للتبعيات . ومثال ذلك عندما طلب الشيخ سيد سابق القائد الروحى للاخوان من المتطـــوعين ان يهجموا متراصين مستندا في ذلك الى آية قرآنية ، وقد ناقشه في ذلك ورفض الموافقة على رأيه بعض ضباط المدفعية .

وقد نمت هذه التناقضات فى نفوس الضباط الى الدرجة التى طلبـوا فيها مسئولا كبيرا من الاخوان يجيب لهم على هذا السؤال (ماذا ستعملون فى البلد لو انتصرنا ؟) وكان الجواب غامضا على عادة الاخوان ، خاليا مـــن البرنامج المقنع المدروس .

ولم تضعف صلة الاخوان التنظيمية بالضباط فقط ، ولكن ضـــعفت أيضا صلة الضباط بالتنظيمات اليسارية لعوامل أخرى الى جانب حركة القوات المفاجئة وما أثرت به على استقرار التنظيم ... منها ان عددا من الضبـــاط لم يقتنع بموقف التأييد لمشروع التقسيم وجرفته حماســـة الشـــعور التى ألهبتها الدعاية المكثفة للقتال ، كما ان فتح المعتقلات واحتجـــاز المئات من الشيوعيين قد أضعف الصلة التنظيمية للحركة بصفة عامة . الامــــر الذى ادى الى كتابة المنشورات بخط اليد وبورق الكربون . (كنت اقوم بذلك مع البكباشي يوسف صديق في منزله بثكنات العباسية) .

وأدت حرب فلسطين ومواجهة الخطر المشـــترك وادراك مـــا يحيط بالجيش والمجتمع من فساد ورشوه وانحلال الى خلق رابطة فكرية مشـــتركة بين عدد من الضباط ذوى الميول الوطنية النابعة من اتجاهات سياســـــية مختلفة ... وتركزت النقمة على الملك واشـــتد السخط على حاشيته وعلى احزاب الاقلية ايضا التى صادرت الحريات وانتهزت فرصـــة حرب فلسطين وحوادث ارهاب الاخوان لترد عليها بارهاب مماثل لم تشـــهده مصر مـن فترة بعيدة .

كان العنف قد أصبح طابعا للمرحلة ... الاخوان بما يملكون من ترسانة سرية للسلاح وايديولوجية ارهابية ، والدولة بما تملكه من اجهزة مسخرة في خدمتها مهما كانت الوسائل والغايات ... وقام الاميرالاى محمود عبد المجيد بتدبير معظم الاغتيالات التي كانت تستهدف تصفية العناصر المضادة مثل حسن البنا وعبد القادر طه .

وعندما وقعت الهدنة وتكشفت هزيمة الجيش بدأ النظام يدخل مرحلة اختناق جديدة تجسدت في العوامل الآتية :

اولا : جابهت وزارة السعديين فشلا جديدا هو هزيمة الجيش يضاف الى فشلها السابق في حل المشكلة الوطنية عن طريق الجلاء والوحدة مع السودان وعجزها عن حل مشاكل الطوائف الثائرة .

ثالثا : جاءت الهزيمة طعنة قاسية للجامعة العربية التي قامت تحقيقا للاستراتيجية البريطانية ووضح تماما شكلية دورها بالاجراءات التي اتخذها شرق الاردن ، وأدت الى استيلاء اسرائيل على مناطق كبيرة من الدولة العربية الواردة في التقسيم ، وانتهت الى قيام المملكة الاردنية الهاشمية تحت قيادة الملك عبد الله المعروف بتبعيته للاستعمار البريطاني .

رابعا : كان انتهاء الحرب الى الهزيمة يفرض على الحكومة انهاء الاحكام العرفية والافراج عن المعتقلين ، واطلاق حرية الصحافة ، الامر الذي قوى الجبهة المعادية لحكومة الاقليات والسراى .

خامسا : سرعان ما طفت الى السطح من جديد المشكلة الوطنية واصرار الشعب على جلاء القوات البريطانية الامر الذي أدى الى نمو سريع للحركة الثورية التي طال كبتها تحت ضغط الارهاب والاحكام العرفية .

لم يجد الملك امامه من سبيل الا التضحية بحكومة ابراهيم عبد الهادى فأرسل اليه محمد حيدر وزير الحربية بعد منتصف الليل يأمره بتقديم استقالته قبل يوم ٢٥ يوليو ، دون ان يقابله ، بطريقة وصفها الدكتور هيكل باشا بأنها كانت غير كريمة ، وهللت صحافة اخبار اليوم التي طالما ساندت ابراهيم عبد الهادى بأنها هدية الملك الى شعبه في العيد ...

والحقيقة أن الملك قد أجبر على ذلك اجبارا بعد أن كان موعد

الانتخابات قد اقترب ، وانتصار الوفد فيها مؤكد ••• وبعد أن كان ارهاب حكم السعديين واحزاب الاقلية قد بلغ الذروة دون قدرة على حل المشاكل المتراكمة •••

وكانت ظروف الهزيمة تفرض على الاستعمار البريطاني تغييرا استراتيجيا في المنطقة بعد ان ظهرت اسرائيل الى الوجود ، وبدأت جياتها في تعاون وثيق مع الولايات المتحدة الامريكية ، بينما الاستعمار البريطاني يواجه في مصر أزمة شديدة •

ونشرت صحيفة الايكونوميست قبل اسبوع واحد من اجبار ابراهيم عبد الهادى على الاستقالة مقالا تعلن فيه افلاس السياسة البريطانية المعتمدة على الجامعة العربية وتقول « ان السياسة المستقبلة الوحيدة يجب ان تعتمد على التعاون الانجلو امريكي وان تكون نقطة البدء في الشرق الاوسط هي التفاهم الوثيق بين الدولتين » •

كان تغيير وزارة ابراهيم عبد الهادى ضرورة تقتضيها الظروف السابقة التي استهدف الاستعمار بها محاولة الخروج من عنق الزجاجة بتكوين حلف عسكرى انجلو امريكى في المنطقة يحفظ له قبضته وسيطرته •

وعين حسين سرى باشا في يوليو ١٩٤٩ رئيسا لوزارة ائتلافية تضم أربعة وزراء لكل من الوفد وحزب السعديين والاحرار الدستوريين ووزيرين من الحزب الوطنى (جناح حافظ رمضان)واربعة من المستقلين ••• وكان حسين سرى معروفا بميله للسياسة البريطانية التي رفعته من موظف الى احد كبار (الساسة المستقلين) الذين يلجأ اليهم عندما تتأزم الامور وتتطلب وجها مرضيا عنه من الجميع •

وكان ذلك اول اشتراك للوفد في حكومة ائتلافية بعد أزمته مع الاحرار الدستوريين في وزارة ١٩٢٧ عندما تآمروا ضده بعد وفاة سعد زغلول •

ولم يطل عمر الوزارة الائتلافية كثيرا اذ استقال حسين سرى بعد الانتهاء من تقسيم الدوائر الانتخابية تبعا للتعداد الاخير للسكان ، ومحاولة احزاب الاقلية تقسيم الدوائر للأحزاب ورفض الوفد ذلك رفضا باتا ••• وتشكلت وزارة محايدة اخرى برئاسة حسين سرى في ٣ نوفمبر ١٩٤٩ لتشرف على اجراء الانتخابات •

وحدثت خلال هذه الوزارة عدة احداث هامة ••• اذ اجرى وزير التموين محمد على راتب تحقيقات تناولت سبعة من وزراء الحكومة السعدية وانكشفت كثير من الفضائح التي كانت تدور خلف ستار •

وكان الافراج عن بعض المعتقلين ، ومحاكمة قاتل النقراشي ومحاوله اغتيال حامد جودة التي ترافع فيها محمود سليمان غنام وعزيز فهمي وتخفيف الاحكام العرفية والرقابة على الصحف ، تمهيدا للانتخابات فرصة فريدة كشفت ايضا أهوال التعذيب التي تعرض لها المعتقلون في فترة حكم ابراهيم عبد الهادى سواء فى معتقل هاكستيب او الطور ... واستنكر الاحرار الدستوريون ذلك ونفوا ان تكون لهم مسئولية الا عن الوزارة التي يشغلونها ...

وتمزقت بصورة نهائية ثياب احزاب الاقلية وانكشفت عورة سيئاتهم الامر الذي جعل فرصتهم للنجاح في الانتخابات محدودة جدا .

واجريت الانتخابات في ٣ يناير ١٩٥٠ وكانت النتيجة انتصارا واضحا للوفد اذ حصل على ٢٢٨ مقعدا من مجموع مقاعد مجلس النواب البالغ عددها ٣١٩ ، واطلقت صحيفة المصرى على هذا اليوم (يوم ثورة الشعب) .

وكانت نتيجة الانتخابات مفاجئة للملك ايضا ، فأسرع الى منزل حسين سرى ليلا وقرر تعيينه رئيسا للديوان الملكى حتى يمكنه التفاهم مع الوفد من جهة ويحاول تنفيذ الاستراتيجية الانجلو امريكية من جهة اخرى .

كانت نقطة الخلاف الاولى بين الملك والوفد اثناء تشكيل الوزارة عندما طلب استمرار بقاء محمد حيدر فى منصبه وزيرا للحربية ، وكان قد احتفظ بموقعه في وزارات محمود فهمي النقراشي وابراهيم عبد الهادي وحسين سرى ، ليكون عونا للملك في مجلس الوزراء ، واداة للسيطرة الكاملة على الجيش ، وهو الذى حرك الجيش الى حرب فلسطين دون انتظار تعليمات رئيس الوزراء .

ولكن النحاس رفض ذلك رفضا باتا واصر على تعيين وزير وفدى هومصطفى نصرت ، وتم الاتفاق على انشاء منصب جديد يعين فيه محمد حيدر وهو منصب (قائد عام القوات المسلحة) ... وبهذا لم يعد للوزير الوفدي نفوذ يذكر على الجيش وانقطعت صلة الوزارة الوفدية تقريبا بسياسة الجيش وترقيات الضباط وتعييناتهم وتنقلاتهم واستمرت السلطة العليا في الجيش للسراى ولمندوبها محمد حيدر .

وكان قبول الوزارة الوفدية لهذا الحل الوسط تنازلا منها عن حقوقها الدستورية التي تمسكت بها منذ عام ١٩٣٧ عندما طالبت بأن يكون لها الاشراف على تعيين موظفى القصر نفسه ، وكان ذلك احد اسباب اقالتها ...

كانت سياسة الحكومة الوفدية تميل الى احتواء الملك بدلا من التصادم

معه منذ اللحظة الاولى ٠٠ وخاصة انه رغم التأييد الشعبى الجارف والاغلبية الساحقة فى الانتخابات فان اقالة الحكومات الوفدية اصبحت طابعا متكررا ٠ وابتعادها عن الحكم سنوات طويلة كان يضعف نفوذها فى الاجهزة التنفيذية ، مع ان الوفد فى المعارضة كان دائما أشد أثرا واكثر جاذبية منه داخل الحكم ٠

لم تكن سياسة الوفد تصعيد الخلاف مع الملك الى درجة التأزم حتى لا يقفز الملك خارج اطار دستور ١٩٢٣ ويفرض حكما ديكتاتوريا تستفيد منه القوى الاجنبية المتربصة ٠٠٠ وكان ذلك امرا طبيعيا من حزب ملكي دستورى لجأ اليه النظام عندما دخل فى أزمة الاختناق ٠

ولكن انتصار الوفد فى انتخابات ١٩٥٠ لم يكن أنتصارا له كحزب بقدر ما كان انتصارا لارادة الشعب ضد السراى واحزاب الاقلية ، وتعبيرا عن الموجة الشعبية الجديدة المؤيدة للوفد ، المطالبة فى نفس الوقت بأهداف اجتماعية اكثر عمقا وشمولا ٠

ومع ذلك فان تشكيل الوزارة لم يأت معبرا عن الاتجاهات اليسارية التى بدأت تنمو داخل الوفد ٠٠٠ بل استنت خطة جديدة هى الاستعانة بالكفاءات والطاقات العلمية لمواجهة مطالب الجماهير الاجتماعية ٠٠ كان فى الوزارة خمسة يحملون لقب (دكتور) لاول مرة فى تاريخ الوزارات المصرية ٠

الفصل السادس

الضباط الاحرار

كان الجيش فى عام ١٩٤٩ جريحا ومطعونا من أثر الهزيمة ... عندما انتهت الحرب وزعت قوات القتال في الجبهة على المناطق العسكرية المختلفة ، وضعفت الصلات التنظيمية تبعا لذلك بين الجيش من جهة والاخوان المسلمين والتنظيمات اليسارية من جهة أخرى .

وضعف تيار العمل السياسى فى شعبة الرئيسية الثلاث التى تحدثنا عنها (الارهاب ـ الاخوان المسلمين ـ الشيوعيين) .

كان الارهاب الذى تركز فى يد (الحرس الحديدى) تقريبا ، قد عجز عن ايجاد دوافع جديدة للاغتيال ... وخاصة ان حادث ٤ فبراير كان قد ضعف اثره بعد نجاح وزارة الوفد فى الانتخابات نجاحا كبيرا معبرا عن تاييد شعبى جارف .

وهكذا توقفت حركة (الحرس الحديدى) .

اما الاخوان المسلمون فكانوا قد تعرضوا لحملة ارهاب حكومى شديدة بعد اغتيال النقراشي باشا ، ابعدت الضباط عن الاتصال بهم ... وان كان تنظيمهم قد استمر محتفظا بكيانه تحت قيادة قائد الجناح عبد المنعم عبد الرؤوف . وعاد البكباشي محمد انور السادات الى صفوف الجيش من جديد ضابطا في سلاح الاشارة .

واستطاع قسم الجيش فى (الحركة الديموقراطية للتحرر الوطنى ـ حدتو) ان ينجو سليما من ارهاب الحكومة لشدة الاهتمام بالامن باعتباره السلاح الوحيد الذى يحمي قسم الجيش في وقت كان فيه معظم اعضاء

القيادة قد ضمتهم أسوار المعتقلات ... وكان المسئول السياسى لهذا القسم هو كاتب هذه السطور ومسئوله الثقافى احمد فؤاد وكيل النيابة فى ذلك الوقت ، ورئيس مجلس ادارة بنك مصر فيما بعد .

ولكن ضعف تيار العمل السياسى بالجيش فى شعبة الرئيسية الثلاث لم يدفع حركة الضباط الى الجمود ، ولم يمزق احلامهم او يبعثر جهودهم ... بل العكس هو الصحيح .

كان هناك فى كل سلاح ضباط لحقتهم يد السياسة ولم يكن ممكنا لهم ان يتخلصوا منها وخاصة بعد هزيمة حرب فلسطين .

. وفى هذه الفترة كان جمال عبد الناصر وكمال الدين حسين قد تركا الاخوان مع عدد ملحوظ من الضباط .

وكانت طبيعة الامور تفرض على الضباط ان يتجمعوا ويتبادلوا الرأى فى وحداتهم واسلحتهم .

كان هناك ضباط وطنيون باتجاهات فكرية مختلفة ، بعيدا عن اية صلات تنظيمية متناسقة .

كان هؤلاء الضباط يمثلون نواة خرجت من حرب فلسطين وهى غير مرتبطة بتنظيم موحد ... ولم يكن لهم حديث الا ما تركته الهزيمة فى نفوسهم من مأساة .

وكان ابتعادهم عن التنظيمات السياسية القائمه (عدا التنظيمات اليسارية) دافعا لهم على البحث عن أرض مشتركة للقاء بعيدا عن التعصب والتحجر الفكرى .

وقد لعب البكباشى جمال عبد الناصر شخصيا دورا رئيسيا بارزا فى تجميع الضباط من مختلف الاتجاهات السياسية . بدأ هذا الدور قبل حرب فلسطين بطريقة محدودة .

ومع انفراج الضغط الارهابى بتولى الوزارة الوفدية مسئولية الحكم فى ١٢ فبراير ١٩٥٠ ، وتجمع الوحدات فى القاهرة بعد تشتيتها عقب الحرب فى منقباد والقنال والاسكندرية وغيرها ، نبت التفكير فى تكوين تنظيم من الضباط المهتمين بأمور السياسة .

وجمع جمال عبد الناصر اللجنة التأسيسية التى كان يتصل بها فى أواخر ١٩٤٩ خلال حكم وزارة حسين سرى ، وكانت مشكلة من خمسة فقط هم جمال عبد الناصر وحسن ابراهيم وخالد محيى الدين وكمال الدين حسين وعبد المنعم عبد الرؤوف ... وهم ذوو ميول سياسية مختلفة مع انهم بدأوا جميعا فى ساحة الاخوان المسلمين .

ولم يكن قد اطلق على هذه اللجنة اسم (الضباط الاحرار) بعد ، كما انه لم يكتمل الشكل التنظيمي الا مع مطلع عام ١٩٥٠ عندما زاد عدد اللجنة التأسيسية بانضمام صلاح سالم وعبد اللطيف بغدادى وعبد الحكيم عامر وانور السادات وجمال سالم الذى دخل عليهم الاجتماع فجأة أثناء وجودهم فى منزل شقيقه صلاح سالم ، وتم فى هذا الوقت انتخاب جمال عبد الناصر رئيسا للجنة التنفيذية .

وكانت صلة جمال عبد الناصر قد بدأت بمحمد نجيب اثناء حرب فلسطين خلال عبد الحكيم عامر ، الذى قال لجمال انه قد وجد كنزا فى محمد نجيب لجرأته وشجاعته ووعيه بأن أزمة الهزيمة فى القاهرة وليست فى العريش .

وعندما بدأ العمل بين الضباط يأخذ شكلا تنظيميا نبت اسم (الضباط الاحرار) ليكون توقيع اول منشور لهم يصدر فى فبراير عام ١٩٥٠ .

وهنا كان تنظيم الضباط الاحرار قد بدأ يأخذ شكلا منفصلا عن القوى السياسية خارج الجيش ... أى انه لم يعد تنظيما تابعا للاخوان او الشيوعيين او الوفديين او السراى ... ولكن بعض اعضائه فى اللجنة التأسيسية لم يقطعوا صلاتهم التنظيمية القديمة ، ولم يغيروا افكارهم دفعة واحدة ... وانما اصبح انتماؤهم الى مجموعة واحدة يشكل جبهة وطنية متحدة .

كان كمال الدين حسين مازال على صلة طيبة غير تنظيمية بالاخوان المسلمين ، وكان خالد محيى الدين على صلة بالحركة الديموقراطية للتحرر الوطنى ، بعد أن كان قد انضم الى منظمة « اسكرا » عام ١٩٤٧ . وكان أنور السادات على صلة ببعض رجال السراى ... كما كان جمال عبد الناصر الذى انتخبوه رئيسا لهم فى بداية ١٩٥٠ شديد النشاط كثير الاتصالات بمختلف القوى السياسية من مختلف الاتجاهات .

ولم يكن محمد نجيب يحضر اجتماعات التنظيم اثناء تكوينه لانه كان محل رقابة سلطات الامن المسئولة باعتباره نجما محبوبا من ضباط الجيش ... ولانه كان فى رتبة كبيرة (اميرالاى) بينما كان اكبر الضباط فى ذلك الوقت يحمل رتبة (بكباشى) ، والاتصال يبدو مريبا ومثيرا ايضا ... ولذا تم الاتفاق بينه وبينهم على ان تكون الصلة به فردية وليست تنظيمية .

وتوالى صدور منشورات (الضباط الأحرار) ... المنشور الاول كتبه جمال عبد الناصر وخالد محيى الدين وقام بطبعه مدنى اسمه (شوقى عزيز) ثم نقلت ماكينة الجستتنر من منزله الى منزل عبد الرحمن عنان حد

ضباط سلاح الطيران ثم منزل حمدى عبيد أحد ضباط المشاة ووزير الادارة المحلية فيما بعد ، واخيرا استقر امر طباعة المنشورات وتوزيعها بأجهزة الحركة الديموقراطية للتحرر الوطني (حدتو) وذلك في مرحلة تالية بعد حريق القاهرة ٠٠٠ وكانت معظم المنشورات تكتب بأقلام الضباط اليساريين ومنهم خالد محيي الدين والقاضي احمد فؤاد وكاتب هذه السطور ، والبعض كتبه جمال عبد الناصر ٠

وكان استمرار صدور المنشورات بتوقيع (الضباط الاحرار) اعلانا عن بداية مرحلة جديدة بعد فترة امتدت خلال السنوات من ١٩٤٦ حتى ١٩٤٩ عندما كانت تصدر للجيش منشورات من تنظيم الضباط الاخوان وتنظيم الشيوعيين بتوقيع (رجال الجيش) ومنشورات مجهولة كانت تنتسب للحرس الحديدى ٠

منذ صدرت منشورات (الضباط الاحرار) توقفت القوى السياسية عن اصدار منشورات خاصة بها ، وكان هذا اعلانا عن نوع من الوحدة التنظيمية ٠

وكانت المنشورات تصل الى الضباط عن طريق عناوينهم المنزلية او في الوحدات بالبريد ٠٠٠ واحيانا كانت توزع باليد داخل المعسكرات بطريقة سرية ٠

وكانت هناك ظاهرة غريبة يمكن القول بأنها قد بدأت مع فترة المد الثورى عام ١٩٤٦ ، وهى حرية الحديث والمناقشة بين الضباط فى تجمعاتهم اليومية سواء في عربات الجيش الكبيرة التى تحمل الضباط من منازلهم الى المعسكرات او في الميس او نادى الضباط ٠

وكانت هذه الاحاديث والمناقشات الصريحة تتابع الاحداث الجارية وتعمقها بالتحليل من وجهات نظر مختلفة ، كانت تلتقى فى النهاية على فساد الحكم والملك ورجال الحاشية ٠

ولكن هذا التيار الوطنى العام فى المناقشة لم يكشف عن سرية التنظيم الذى كان يتضاعف في سرعة شديدة ، ذلك ان الضباط بعد هزيمة فلسطين كانوا يشكلون ارضا صالحة لبذر الافكار الثورية المضادة لنظام الحكم والملك شخصيا ٠

وعندما بدأ تساؤل الضباط عن البرنامج الذى يرتبطون به ٠٠٠ أعدت الاهداف الستة وصدرت فى منشور ٠٠٠ اعدها أحمد فؤاد وخالدمحيى الدين ٠٠٠ ووافق عليها جمال عبد الناصر ٠

أصبح اسم (الضباط الاحرار) يتردد في الجيش همسا احيانا وعلانية

احيانا اخرى كما ان القوى السياسية المختلفة وبعض الصحفيين أخذوا علمـــا به ... حتى المخابرات الحربية والبوليس السياسى كانا يعلمان بوجود هـــذا التنظيم الوليد .

ولكن اجهزة الامن سواء فى الجيش اوالداخلية كانت محدودة العـــدد والعدة ... كان ضباط المخابرات الحـــربية ١٥ ضابطا جند بعضهم فى الضباط الاحرار او كانوا على صلة هامشية بهم مثل عبد المنعم النجـــار مدير المعلومات الذى اصبح سفيرا فى باريس والعراق بعد الثورة ومســـاعده سعد توفيق واسماعيل فريد الذى اصـــبح سكرتيرا عسكريا لمحمد نجيب ثم محافظا للدقهلية فيما بعد .

وكان ضباط القسم المخصوص بالداخلية لا يتجاوزون ٢٤ ضابطا ، ولكن لم يكن يدخل فى إختصاصهم العمل داخل الجيش الا عن طريق المخابرات الحربية .
كانت قبضة اجهزة الامن لينة ، وقدرتهـــا على النفاذ الى اسرار الجيش محدودة ، لانهم لم يكونوا قد استخدموا بعد نظام العمالة لرجال الجيش ، وشراء ضمائر البعض بمبالغ ومكافآت متنوعة .

يقول عبد المنعم النجـــار ان وزارة الداخلية قد اتصلت بالمخابرات الحربية للحصول على معلومات عن الضباط الاحرار وانهم حاولوا الكشـــف عن عناصرهم وخططهم دون استخدام (وســـائل قذرة) ... ويقـــول أيضا ان كلا من المخابرات الامريكية والانجليزية كان لها خلايا خاصة بها ضــــد النشاط الشيوعى بالذات ... وقد أكد هذه الحقيقة الماجور ساتســـوم المسئول فى البوليس السياسى المصرى ثم ضـــابط أمن السفارة البريطانية بالقاهرة بعد خروج الضباط الانجليز جميعا من البوليس المصرى فى كتـــابه (تجسست على الجواسيس I spied spies)

ومع ذلك لم يعتقل أى ضابط من الضباط الاحرار .. فى الوقت الذى كانوا فيه يزدادون عددا ووعيا .

ولم يكن فى سياسة الوزارة الوفدية ما يثير الضباط الاحرار ضـــدها ... ولم يكن عداء الاخوان التقليدى للوفد ذا تأثير فى اتجاهات الضـــباط الاحرار ... بل ان جمال عبد الناصر كان ذا ميول وفدية واضـــحة ... أمضى ساعات طويلة فى منزلى بالاسكندرية قبل ٢٣ يوليو يدافع عن الوفـــد فى مناقشة حضرها مجموعة من الضباط الاحرار (البكباشى صلاح مصطفى الملحق العسكرى فى عمان الذى استشهد بطرد متفجر وصـــله من اسرائيل والبكباشى عبد الحليم الاعسر اركان حرب منطقة الاسكندرية فيما بعد) .

وقد بدأت الوزارة الوفدية عملها باقرار الحريات العامة ، فالغت الرقابة على الصحف ورفعت الاحكام العرفية بعد تردد فى مايو ١٩٥٠ وسمحت بالمظاهرات داخل الجامعة حيث مزقت صورة الملك وديست بالاقدام ...

والى جانب استقرار الحريات على أسس معقولة ، واصلت الحكومة الوفدية سياستها الاجتماعية ، فأقرت مجانية التعليم الثانوى عام ١٩٥٠ بعد ان كانت قد أقرت مجانية التعليم الابتدائى عام ١٩٤٢ ، وضاعفت جميع الضرائب بما فيها الضرائب العقارية الى ١٠٠٪ ، واعدت مشروعا لتعميم مياه الشرب فى القرى خلال خمس سنوات ، ودفعت وزارة التموين فروق اسعار بعض السلع لتكون فى مستوى محدودى الدخل ، وعمل كادر جديد للموظفين لمصلحة الصغار منهم .

الاساس الثالث الذى بنى الوفد سياسته عليه كان اجلاء الانجليز عن قاعدة قناة السويس قبل الموعد المحدد فى معاهدة ١٩٣٦ وهو عام ١٩٥٦ ، وتأكيد الوحدة بين مصر والسودان ، وقد بدأت المحادثات فى ابريل ١٩٥٠ وكان يتولاها وزير الخارجية محمد صلاح الدين وابراهيم فرج ، وحضر الفيلد ماريشال وليم سليم رئيس اركان حرب الامبراطورية البريطانية وعقد ثلاثة اجتماعات مع الجانب المصرى برئاسة مصطفى النحاس يومى ٥ ، ٦ يونيو ١٩٥٠ . وقد أوضح له النحاس انه « لا يمكن ان يركن لوعود جديدة او يقبل نظريات مستحدثة ترمى الى بقاء قوات أجنبية فى مصر تحت أى اسم وبأية صيغة » وذلك ردا على قول سليم بأن النحاس يستطيع بمركزه الشعبى ان يقنع الناس بأن « الجيش المشترك والوجود الاجنبى » مبدأ جديد لا ينطوى على الاحتلال ... وكذلك أصر النحاس على ضرورة جلاء القوات البريطانية واقترح أن تنتقل الى فلسطين ليسهل عودتها الى مصر فى حالة قيام حرب فعلية ، كما طالب النحاس ان تمد بريطانيا مصر بالطائرات مشيرا الى اهتمام مصر بتقوية جيشها ليدافع وحدة عن منطقة القناة .

استمرت المفاوضات دون أى تقدم من جانب البريطانيين الذين لم يتراجعوا عن موقفهم خطوة واحدة . وبعد وفاة بيفن وتولى موريسون وزارة الخارجية البريطانية القى خطابا استفز شعور المصريين لما فيه من قول قاطع بعدم الجلاء ، مع مهاجمة الحكومة المصرية لمنعها مرور البضائع الاسرائيلية فى قناة السويس وخليج العقبة ، ورد عليه محمد صلاح الدين ببيان عنيف ألقى به المحادثات امام البرلمان يوم ١٦ اغسطس ١٩٥١ وخاصة

ان الحكومة الوفدية كانت قد تحملت بداية موجة هجوم ضد موقفها من قضية المحادثات .

وهكذا يمكن تلخيص سياسة الوزارة الوفديه في اتجاهات رئيسية ثلاثة : تأكيد الحريات العامة ، واقرار نوع من العدالة الاجتماعية ، ومواجهة الاستعمار لتحقيق الجلاء ووحدة مصر والسودان .

ولم يكن فى هذه الاتجاهات الوطنية ما يثير الضباط او يجنح بهم الى تيار المعارضة رغم ان الوفد لم تكن له فى الجيش أية شعبية نظر للظروف التاريخية التى ابعدت الوفد عن جهاز الجيش ، وعن السيطرة على ادخال الطلبة للكلية الحربية ، والاساءة التى لحقت به بعد حادث ٤ فبراير . والتنافر الطبيعى الذى جعل من تأثيره الجماهيرى مطعنا له عند ضباط الجيش الذين لا تستقيم حياتهم الا على اساس من الانضباط والنظام .

ولذا تبلورت اتجاهات الضباط الاحرار كما ظهر فى منشوراتهم خلال حكم الوزارة الوفدية فى فضح مفاسد القيادات العليا فى الجيش ، والمطالبة بتحقيق الاهداف الوطنية .

وكانت مأساة حرب فلسطين قد عادت تطل على المجتمع بعد رفع الرقابة على الصحف ، وظهور عدة مقالات عن صفقات الاسلحة التى تمت خلال الحرب بوساطة بعض المقربين من السراى ، متابعة فى ذلك استقالة محمود محمد محمود رئيس ديوان المحاسبة ، والاستجواب الذى قدمه مصطفى مرعى عضو مجلس الشيوخ عن اسباب هذه الاستقالة .

ورغم ان محمود محمد محمود كان حريصا على الصمت الا انه افضى لمصطفى مرعى بأسباب استقالته ، وكان ذلك لانه سجل فى تقرير الديوان بعض الملاحظات على مسلك وزارة الحربية فى موضوع الاسلحة المشتراة اثناء حرب فلسطين ، بالاضافة الى حصول كريم ثابت المستشار الصحفى للملك على مبلغ ٨٠٠٠ جنيه من ميزانية مستشفى المواساة تحت باب (دعاية) ، وعندما أرسل التقرير الى المطبعة الاميرية ردت له البروفات .

وانتهزت الصحافة فرصة نظر الاستجواب فى آخر مايو ورفع الاحكام العرفية فشنت حملة على ما أسمته (الاسلحة الفاسدة) بدأت فى روز اليوسف يوم ٦ يونيو بمقال لاحسان عبد القدوس ومقالات لحلمى سلام فى مجلة المصور . ووجد بعض الضباط الذين لمسوا بأنفسهم فساد عمليات الشراء والسمسرة الفرصة المناسبة للاتصال بالرأى العام عن طريق الصحافة .

البكباشى عبد المنعم امين الذى كان مدرسا فى مدرسة المدفعية

ضادة للطائرات ، واصبح عضوا فى مجلس قيادة الثورة فيما بعد ، سافر
ى بعثة لشراء اسلحة مضادة للطائرات ، بعد ان ألقت احدى الطائرات
لاسرائيلية ٣ قنابل على القاهرة كشفت نقص وسائل الدفاع الجوى ...
كان معه البكباشي حسين محفوظ ندا مدرس مدفعية الميدان ، وهناك
اكتشفوا انحرافات من لجنة الشراء التى اشترت قنابل يدوية بمبلغ ثلاثة

أرباع المليون ، واشترت ايضا مدافع ماكينة هو تشكس من التى استخدمت
فى حملة السودان (١٨٩٦ — ١٨٩٩) .

واهملتهم اللجنة على حد قولهم كخبراء واعتمدت على السماسرة
لمهربين .. ولجأ عبد المنعم امين الى مصطفى مرعى بما عنده من بيانات
بعد تقديمة الاستجواب ، ولكن مصطفى مرعى تشكك فى اتصاله به قائلا
له أنهم هددوه بالقتل ، وهو لا يعرف ان كان عميلا مدسوسا عليه ..

ولم يكن عبد المنعم امين هو الوحيد الذى لجأ الى مصطفى مرعى ...
ولكن عبد اللطيف البغدادى اتصل به ايضا هو وحسن ابراهيم وضباط
الطيران محمد شوكت ومصطفى مرتجى ، وعندما قالوا له انهم معجبون
بموقفه ، وانهم على استعداد لتنفيذ ما يستقر رأيهم عليه حتى ولو وصل
الامر الى حد قتل الملك ... وهنا جفل مصطفى مرعى من هذا الحديث
الخطير الذى ليست له مقدمات من الثقة ، وآثر ان يتحفظ معهم كما تحفظ
مع عبد المنعم امين ، وسافر الى اوروبا .

هكذا كان الضباط غير المنتمين فى حيرة من امرهم ، تركز غضبهم
على السراى وما ارتكبة رجالها من آثام ، ولكنهم لم يجدوا الطريق السليم
الذى يسلكونه ... حتى ان احدهم وهو الضابط محسن عبد الخالق الذى
تولى ادارة دار التحرير للطبع والنشر بعد الثورة لجأ الى امينة السعيد
الصحفية ورئيسة تحرير (حواء) والتى اعتادت تحرير باب تحت عنوان
(اسألونى) .

كان الضباط فى مرحلة نشاط شديد للاتصال بالعناصر المعبرة عما
تطويه صدورهم ، وخاصة ان كثيرا منهم لم يكن قد انضوى واستقر فى
(الضباط الاحرار) ، ولم يكونوا قد شعروا بعد بحرارة الانتماء الى تنظيم
مقنع لهم ، بعد ان كانوا قد تجاوزوا مرحلة الخضوع المطلق لتنظيم الاخوان
المسلمين أساسا .

ولذا كان النشر عن قضية الاسلحة الفاسدة مركز جاذبية شديدة
لهم فانهالت منهم البيانات والوثائق والمعلومات على الصحفيين الذين تصدوا
للكتابة فى هذا الموضوع الذى ألهب مشاعر الرأى العام ، ووجد فيه الضباط

مشجبا يعلقون عليه هزيمة حرب فلسطين . ويردون به الكرامة لضباط الجيش .

ولم تجد الحكومة الوفدية بدا من تبليغ النائب العام للتحقيق رغم ان هذا يحدث تصادما مؤكدا بينها وبين الملك لان الذين مستهم البيانات كانوا من رجال الحاشية مثل انطون بوللي وادمون صهلان ومحمد حلمي حسين ... ووصلت الاتهامات الى محاصرة محمد حيدر قائد عام القوات المسلحة باعتباره مسئولا ومتسترا على العملية من بدايتها عندما كان وزيرا للحربية ، مما اضطره الى الاستقالة ، هو والفريق عثمان المهدى رئيس هيئة اركان حرب الجيش ، بناء على طلب النائب العام ابعادهما عن مناصبهما الحاليه .

بدأ النائب العام محمد عزمي التحقيقات بجرأة واضحة ، بعد ان وصله أمر كتابي من وزير العدل عبد الفتاح الطويل يطلب منه القبض على أي شخص سواء في الحكومة او السراى للتحقيق معه ، ولذا اصدر أمرا باعتقال ادمون صهلان الذى هرب الى سراى عابدين ، ولما اتصل حسن يوسف بوزير الداخلية الذى كان موجودا في بلطيم لم يوافق فؤاد سراج الدين على حمايته وأصر على تنفيذ أمر النائب العام ، فقام صهلان بتسليم نفسه .

ولكن النائب العام لم يواصل حملته حتى نهايتها ، بل استجاب لاغراء السراى فافرج عن المعتقلين ، وحفظ التحقيق بالنسبة لرجال الحاشية ، ورفع الحظر عن عودة محمد حيدر وعثمان المهدى الى منصبيهما .
وهاجمت الحكومة موقف النائب العام ، وخيرته بين الاستقالة او النقل الى منصب آخر ، فوافق على النقل ، وعين رئيسا لادارة قضايا الحكومة ... واعلن الملك عن استيائه من موقف الحكومة عندما قرر منح جميع الوزراء نياشين أعلى عدا وزير العدل ، ورفض الوزراء قبول النياشين تضامنا مع زميلهم .

وأبرزت هذه الحادثة التناقض بين الملك وبين ضباط الجيش ، وعمقت في نفوسهم الشعور بقدرة السراى على وضع الأمور في طريق مسدود ... ولذا كانت قضية الاسلحة الفاسدة من اولى القضايا التى اهتمت الثورة بتحقيقها وتقديمها للمحاكمة .

بعد ان استغرقت القضية ٩٠٠٠ صفحة في محاضر التحقيق ، ٢٣٠٠ صفحة في جلسات المحكمة ، ١٣٠٠ صفحة امام قاضى الاحالة فانتهت انتهت بحكم بسيط هو ١٠٠ جنيه غرامة لكل من القائمقام عبد الغفار عثمان والبكباشى حسن منصور وبراءة بقية المتهمين .

وهكذا كانت قضية الاسلحة الفاسدة ، قضية دعاية اكثر منها قضيه مخالفة للقانون ••• وقضية اثارة أكثر منها قضية اختلاس وسرقة •••والأقلام التى انجذبت اليها صورتها على اساس انها قضية رئيسية فى هزيمةالجيش، متجاوزة بذلك قضايا اخرى اكثر اهمية منها واكثر نفاذا فى التأثير على قدرة الجيش على القتال ••• قضايا تمس صلب النظام الحاكم وقدرته على تعبئة طاقات الجماهير بما فيها القوات المسلحة •

لم تكن الاسلحة الفاسدة هى السبب فى هزيمة الجيش المصرى فى حرب فلسطين ••• ولكنها كانت بقعه سوداء ضمن بقع كثيرة لطخت وجه النظام واساءت الى قدرة الجيش ، وأثارت خلال فترة النشر والتحقيق مشاعر الجماهير ضد الملك ورجال الحاشية ، لانهم ربطوا بين السرقات وهزيمة الجيش واعتقال الوطنيين الاحرار •

الكفاح المسلح ضد الاستعمار البريطاني

كان الموقف السياسى يتدهور ، وهيبة النظام تتآكل ، وحماقات الملك فى نفس الوقت تتضاعف وتتسم بعدم المبالاة أو سلامة التقدير ... والتهبت الصحف بمقالات نقدية عنيفة تفضح التصرفات الشخصية للملك ورجال الحاشية بعبارات مستهترة ، ولم يفلح قانون حماية اخبار القصر فى وقف هذه الحملة التى ظهرت فى عدة صحف منها الاشتراكية (مجلة حزب مصر الفتاة) واللواء الجديد (مجلة حزب الوطن الجديد) والجمهور المصرى (مجلة اثارة كان يملكها ابو الخير نجيب) والكاتب (مجلة أنصار السلام) والملايين (مجلة الحركة الديموقراطية للتحرر الوطنى ـ حدتو) وروز اليوسف التى بادرت بالسبق فى شن الهجوم فيما اطلقت عليه اسم الاسلحة الفاسدة •

وكان محمد صلاح الدين قد صرح فى مجلس النواب بأن الدورة لن تفض قبل أن يدلى بحديث للمجلس عن نتيجة المفاوضات ، ولذا فان المجلس لم يكن ينعقد ، ولكن الدورة لم تنفض •

وكانت الحكومة الوفدية قد اعلنت فى خطاب العرش لهذه الدورة التى لم تفض تهديدها بالغاء معاهدة ١٩٣٦ اذا لم تسفر المباحثات عن نتيجه •

وعندما القى محمد صلاح الدين بيانه امام مجلس النواب يوم ١٦ اغسطس حمل حملة عنيفة على الاستعمار البريطانى والسياسة الانجليزية فى فلسطين التى انتهت بانشاء اسرائيل ، واشار الى ان الحكومة ما زالت

عند وعدها بالغاء المعاهدة كما اعلنه رئيسها مصطفى النحاس فى خطاب العرش .

والتقطت الجماهير خطاب وزير الخارجية ليكون نقطة انطلاق لها في حركتها التي كانت تتصاعد يوما بعد يوم حتي يوم ٢٦ اغسطس ـ تاريخ توقيع معاهدة ١٩٣٦ ، فقررت التنظيمات السياسية التظاهر ، وخرجت القاهرة عن (بكرة ابيها) على حد تعبير جريدة المصرى ، وخرج نحو ١٥ الف متظاهر من عمال الورش الاميرية والسكك الحديدية وورش ابو زعبل ... وحدث تصادم بين البوليس والمتظاهرين فأصيب البعض من الطرفين ،واستمرت المظاهرات تموج في القاهرة حتي المساء .

وقد لعبت التنظيمات الوطنية واليسارية دورا بارزا في تحريك الجماهير وقيادتها خلال هذه الفترة كما سيأتي ذكره فيما بعد .
ووجدت الحكومة الوفدية انها تفقد كثيرا من رصيدها الشعبى امام موجة الحماس التي تجتاح الشعب ... ووجدت ايضا انها قد اصبحت محاصرة بوعدها الذى قطعته على نفسها بالغاء المعاهدة .

واستقر الرأى على اصدار قانون بالغاء المعاهدة ، واصدار تشريعات بتعديل موقف السودان ، وكلف بذلك الدكتور وحيد رأفت المستشار الملكى لرئيس الوزراء .

توقع الوفد الخروج من الحكم بعد اعداد هذه التشريعات ، ولكن الملك الذى استشار نجيب الهلالى قرر التوقيع لان نجيب قال له ان الموقف لا يحتمل عدم التوقيع ... وعدم التوقيع سيكون له آثر سىء عند الشعب .

وجمع فؤاد سراج الدين سكرتير الوفد الهيئة الوفدية البرلمانيه فى البهو الفرعوني الساعة الرابعة والنصف حيث أخذ يخاطبهم فى تنظيمات خاصة بالوفد لضمان تجمعهم لهذه اللحظة التاريخية الحاسمة .
ووصل النحاس باشا من الاسكندرية في نفس اليوم ،.والجماهير تستقبله بهتاف يكاد يكون واحدا (ألغ المعاهدة يا نحاس) .

ووقف النحاس باشا على منبر مجلس النواب ليعلن كلمته التاريخية « من اجل مصر ابرمت معاهدة ١٩٣٦ ومن اجل مصر اطالبكم اليوم بالغائها » وذلك فى يوم ٨ اكتوبر ١٩٥١ وهو نفس اليوم الذى آقال فيه الملك الوزارة الوفدية بخطابه المهين فى ٨ اكتوبر ١٩٤٤ .
فوجىء البريطانيون بالصورة التى الغيت بها المعاهدة ، فقد توقعوا ان يكون الالغاء شكليا وليس بهذه الصورة الدستوريه .

وحضر السفير البريطاني يحتج لدى فؤاد سراج الدين الذى قال له ان عندكم قواعد اخرى مثل عدن وقبرص ومالطة ، ولكن السفير البريطاني قال له انه لا يوجد فى أى قاعدة منها المزايا التى تتوافر فى قاعدة السويس ، وعندما سأله سراج الدين عن هذه المزايا ، قال السفير البريطاني ان قاعدة السويس تتميز بالآتى :

١ - توافر الايدى العاملة الرخيصة .
٢ - وسائل النقل متوافرة لها من طائرات وبحر وسكة حديد .
٣ - الحياة الاجتماعية فى مدن القناة ، وهى مسألة جوهرية للقوات المسلحة .

والتقط فؤاد سراج الدين هذه الكلمات لتبدأ منها سياسة الحكومة الوفديه بعد الغاء معاهدة ١٩٣٦ فى مواجهتها للاستعمار البريطاني .
وكان الغاء المعاهدة اعلانا ببدء الكفاح المسلح ضد قوات الاحتلال البريطانيه فى منطقه القناة ، وحفزا لتجمع القوى الاستعماريه والرجعيه فى محاولة للاطاحة بالحكومه الوفدية التى استردت كامل شعبيتها وأزالت كثيرا من التناقضات بينها وبين القوى الوطنية الديمقراطية التى فرضت نفسها على الساحة الشعبية .

وبعد خمسة ايام من الغاء المعاهدة تقدم سفراء انجلترا والولايات المتحدة وفرنسا وتركيا يطلبون مقابلة مشتركه مع وزير الخارجيه ، ولكن الوزير حدد لهم مواعيد متتالية قدموا له فيها مذكرة واحدة تطالب باستبدال الغاء المعاهدة بعقد اتفاقية دفاع مشترك ... ولكن مجلس الوزراء قرر رفض المذكرة واعلن ذلك فؤاد سراج الدين فى اليوم التالى مباشرة امام مجلس النواب بعد سؤال من حامد العلايلى مراقب حزب الأحرار الدستوريين عن سر مقابلة السفراء الاربعة لوزير الخارجية .
وفى نفس اليوم كانت ٣ ناقلات جنود بريطانية وصلت الى بور سعيد تحمل امدادات لتنفيذ خطة بريطانية جديدة تقضى باحتلال كافة مرافق مدن القنال ووضع اليد على جميع وسائل عبور القنال ، وبذا تصبح قوات الجيش فى غزة وسيناء تحت سيطرة قوات الاحتلال .

وتحركت التنظيمات السياسية تعد نفسها للكفاح المسلح .

الوفد ممثلا فى الحكومة أصدر تشريعا بسجن كل عامل مصرى يعمل فى القاعدة البريطانية ، مع اذكاء الروح الوطنية فى الاذاعة مما ادى الى تحقيق بطالة كاملة لعدد من العمال المصريين كان يتراوح بين ٤٠٫٠٠٠ ، ٥٠٫٠٠٠ عامل ، واصدرت الحكومة فى نفس الوقت تعليمات لوزير الشئون

الاجتماعية بصرف مرتبات العمال كاملة وتهيئة العمل المناسب لهم خارج منطقة القناة ، وفى ايام قليلة تجمعت اكثر من ١٧ باخرة بريطانية فى القنال بغير تفريغ لشحناتها .

وصدر قرار وزارى يمنع السكك الحديدية من نقل أى مهمات او مواد الى القاعدة البريطانية ... وكذا منع النقل البرى والنهرى .

وصدر تشريع بمعاقبة كل من يتعاون مع القوات البريطانية بالسجن .
وتوقفت الحياة الاجتماعية للجنود في مدن القناة نتيجة لنشاط الفدائيين حتى اعتبرت المدن خارج الحدود للقوات البريطانية .

- يقول فؤاد سراج الدين ان عددا كبيرا من ضباط البوليس فى ملابسهم المدنية قد شاركوا فى عمليات القتال وحرب العصابات ضد الجنود البريطانيين فى القاعدة ... ويقول ايضا انه قد ابطل كافة المزايا التى ذكرها له سير رالف ستيفنسون السفير البريطانى وهو يعدد له مزايا قاعدة السويس عن غيرها من القواعد الاخرى فى قبرص ومالطة وعدن .

وعندما تطور القتال في منطقه القناة بدأت الحكومة تشترى السلاح للفدائيين من الصعيد ... كما قابل فؤاد سراج الدين سفراء يوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا والاتحاد السوفييتى وطلب منهم شراء اسلحة للبوليس.

... ولكن هذه المقابلات التى تعتبر بداية الاتصال بالدول الاشتراكية فى موضوع شراء السلاح لم تسفر عن نتيجة ايجابية ، ويعلل فؤاد سراج الدين ذلك بأنهم لم يكونوا قد قرروا بعد مواجهة الغرب بطريقة استفزازية فى المنطقة .

وكانت الحكومة الوفدية تتصل بالسفير الامريكى جيفرسون كافرى

عند مواجهتها بعض المصاعب ، فعندما منع الانجليز تدفق المازوت من السويس الى القاهرة الامر الذى يؤدى الى توقف المجارى والمصانع والمخابز واللوارى ، اتصل فؤاد سراج الدين بالسفير الامريكى وحذره من خطر الهجوم على الاجانب اذا نفد المخزون من المازوت وهو لا يكفي لاكثر من ستة ايام . وبعد اتصالات بين الحكومة الامريكية والبريطانية عدلت القوات البريطانية عن منع المازوت عن القاهرة .

وكانت الحكومة الوفدية الى جانب اعطائها الاوامر لقوات البوليس بمهاجمة قوات الاحتلال البريطانى فى القناة ، تعقد حملات مع بعض القوى الفدائية غير الحكومية ... فعندما قدم الصحفى المعروف فكرى اباظة رئيس تحرير المصور قريبه قائد الجناح وجيه أباظه الى فؤاد سراج الدين

قامت بينهما صلة استمرت طوال معركة القناة كان يحصل فيهـا وجيه على مساعدات من الحكومة ٠

وتمت في هذه الفترة مقابلة اخرى بين فؤاد سراج الدين واحمـد انور احد الضباط الاحرار وقائد البوليس الحربى بعد الثورة ٠٠٠

وافق جمال عبد الناصر على المقابلة محذرا أحمد أنور من الارتباط بشىء لوجود زملاء يجب الرجوع اليهم ، كما حذره ايضا من محاولة فؤاد سراج الدين معرفة معلومات عن (الضباط الاحرار) ٠

يقول أحمد انور ان فؤاد سراج الدين حاول أن يعرف منه اسـم قائد التنظيم في سؤال عابر عمن يصلح رئيسا لاركان حرب الجيش ، فقـال له : محمود سيف اليزل ، كما يقول انه قد بارك حركة الضباط دون ان يـورط نفسه فيها ، وانه حمل له ذلك فيما بعد جميلا لانه كان يسـتطيع الاضرار به بعد المقابلة ٠

ويقول فؤاد سراج الدين ان احمد انور قد عـرض عليه وقوف الجيش مع الحكومة الوفدية اذا أقالها الملك ، وانه قـد علق على ذلك بقـوله ان الملك لا يعتمد الا على الجيش ، ومع ذلك فقد انفق بعد هذه المقابلة مع مصـطفى النحاس على ان يقترح مصطفى نصرت وزير الحربيه عزل محمد حيدر القـائد العام للقوات المسلحة ، .وفعلا ذهب مصطفى نصرت للسراى وطـالب بتغيير حيدر ولم يصل الرد حتى اقالة الوزارة ٠٠٠ وتصادف ان احتفـل الجيش فى نادى الضباط بعيد ميلاد الملك (١١ فبراير ١٩٥٢)فى حفل تغنى فيـه أم كلثوم ، وأناب الملك محمد حيدر في آخر لحظة حتى يفاجىء الوزارة بذلك، واستقبله الضباط بعاصفة من التصفيق بينما استقبلوا كلمة وزير الحـربية بتصفيق فاتر ٠

عمق هذا الاستقبال شعور الوفد بانصراف الضـباط عنه ، وبأنهم القوة التى يستند اليها الملك ، رغم وجود حركة بين الضباط الوطنيين ٠

وظلت الحكومة الوفدية تواصل كفاحها ضد القوات البريطـانية فى القناة بواسطة البوليس اساسا ٠٠٠ بينمـا تأمر قـوات البوليس بضرب المظاهرات فى شوارع القاهرة ٠٠٠ وأدى هذا التناقض الى وجود نوع مـن الانفصام فى طبيعة عمل قوات البوليس فى هذه المرحلة الحرجة التى تواجـه فيها الحكومة الوفدية عدوا اجنبيا فى القناة ، وتواجه مظاهرات تشب ضـدها فى القاهرة ، تتهمها بالتقصير أحيانا ، وتطالب بالسلاح أحيانا أخرى .
ولم يكن الضباط بعيدين عن معركة الكفاح المسلح فى القنال ٠٠٠ كمـا

ن اتصالهم بالوفد لم يكن هو الاتصال الوحيد :

ولم يكن الوفد هو القوة السياسية الوحيدة المؤثرة في تحريك الجماهير لكفاح المسلح ... بل ان تنظيمات سياسيه ناشئة استطاعت ان تلعب دورا بارزا في هذه الفترة التى عمرت بالحرية والديموقراطية .

وحدث تغيير آخر في ترتيب القوى داخل الجيش ... بعد ان كانت الشعب الثلاث للعمل السياسى هى (الارهاب ـ والاخوان المسلمين الشيوعيين) ، حدث تحول مواكب للحركة الجماهيرية .

ضاع الاتجاه الارهابى فى تيار الكفاح الشعبى المسلح ، وذبلت قدرة (الحرس الحديدى) على الاغتيال بعد تفجر طاقات الشعب الثورية ، واصيبت حيويته بالجمود .

وحدث تبدل فى موقف الاخوان المسلمين جعل ارتباط الضباط بهم يضعف عما كان قبل واثناء حرب فلسطين ... وكانت الصلة بين (الضباط الاحرار) وتنظيم الاخوان قداستمرت قائمة على اسس غير عدائية وغير تنظيمية أيضا .

وكان الاخوان المسلمون قد تعرضوا لهزة شديدة بعد اغتيال المرشد الشيخ حسن البنا ، ونبتت داخل الجماعة خلافات وصراعات على تولى الزعامة من بعده وخاصة ان نظامها الأساسى كان يركز كل السلطات فى يد المرشد العام ، وليس لمكتب الارشاد أو الهيئة التأسيسية الا وجود استشارى بجانبه طوال فترة توليه المسئولية التى تمتد حتى آخر يوم فى حياته دون تحديد لفترة زمنية معينة .

ولذا كان اختيار المرشد يعتبر موضوعا حاسما فى صراع الخلفاء ولم يفز الشخص القوى الذى يفرض نفسه ويدين له الباقون بالولاء ... فكان ان اجتمع رأيهم على تعيين شخص ضعيف . لكى يبدأ كل منهم محاولته فى السيطرة على الجماعة خلاله .

واتفق الرأى على تعيين حسن الهضيبى مرشدا عاما ، وهو مستشار عمل بالقضاء ٢٧ عاما واتصل بالشيخ البنا عام ١٩٤٢ ولكنه لم يكن عضوا بمكتب الارشاد ولا بالجمعية التأسيسية المكونة من ١٥٠ عضوا ، ولم يكن عضوا بارزا معروفا للاخوان كما انه كان قد اتم الستين من عمره فى عام ١٩٥٠ .

واتخذ الملك موقف التأييد من انتخاب المستشار حسن الهضيبى مرشدا عاما ، بل قيل انه كان العامل الاول فى انتخابه لان كان متزوجا من شقيقة ناظر الخاصة الملكية مرادحسن ، وقد نشرت مجلة اللواء الجديد

ان مزراحى باشا محامى الخاصة الملكية كان له دور فى تحسين العلاقات بين الملك والاخوان ، ليستميلهم الى جانبه فى حالة اتخاذ مواقف العداء من الوفد ٠

ولم يمض شهور على انتخاب الهضيبى حتى ذهب فى احدى عربات النصر الملكية مع بعض زعماء الجماعة لمقابلة الملك ، الذى ذكرهم بوعد حسن البنا لكريم ثابت عام ١٩٤٨ باتخاذ خطة معاداة الشيوعية اذا ألغى الملك قرار حل الجماعة ٠٠٠ وقد تكررت زيارة المرشد للملك عدة مرات صرح بعد احداها بأنها (زيارة نبيلة لملك نبيل) ٠

وكانت جماعة الاخوان المسلمين قد خرجت من حرب فلسطين ومن فترة الاعتقالات ، وقد مال ميزان قوتها ، وضعفت قبضتها على الضباط الذين نظمتهم فى صفوفها خلال السنوات السابقة ٠٠٠

ولذا لم تسهم جماعة الاخوان المسلمين خلال فترة الحكومة الوفدية فى أى عمل ايجابى ضد الملك او الاستعمار ٠٠٠ بل انه عندما عين الملك حافظ عفيفى رئيسا للديوان ، وسارت المظاهرة تهتف ضد الملك وحافظ عفيفى ، كتبت مجلة الدعوة التى كان يصدرها صالح عشماوى عضو مكتب

الارشاد هجوما على رئيس الديوان الجديد ٠٠٠ وإبرقت وكالات الانباء بهذا الموقف الجديد للجماعة من الملك ٠٠٠ ولكن عبد الحكيم عابدين سكرتير الجماعة سرعان ما اذاع بيانا هذا نصه : « يقرر المركز العام للاخوان المسلمين ان مجلة الدعوة لاتصدر عنه ولا تنطق بلسانه ولا تمثل سياسته وانها صحيفة شخصية تعبر عن أراء صاحبها ولا تتقيد دعوة الاخوان المسلمين بما ينشر فيها » ٠

وتخلفت الجماعة عن بقية القوى والتنظيمات السياسة التى حاولت أن تجذبها فى اتجاه ثورى ، أو تؤيد اتجاه صالح عشماوى ضد اتجاه الهضيبى المتحفظ والحريص على عدم حدوث احتكاك بينه وبين السراى باعتبارها مركز السلطة فى مصر ٠٠٠ رغم انه كانت تتوافر لهم الاسلحة فى جهازهم السرى ٠

واقتصر نشاط الاخوان خلال هذه الفترة على الدعوة الى التربية الاسلامية وكأنما هى تناقض الثورة ضد الاستعمار ، وفى حديث للهضيبى مع مجلة الجمهور المصرى يوم ١٥ اكتوبر ١٩٥١ أى عقب الغاء المعاهدة باسبوع واحد قال « هل تظن ان اعمال العنف تخرج الانجليز من البلاد ، ان واجب الحكومة اليوم هو ان تفعل ما يفعله الاخوان المسلمون من تربية الشعب واعداده فذلك هو الطريق لاخراج الانجليز » ٠٠٠ ثم نفى الهضيبى

ما أشيع من ان الجماعة طلبت من الحكومة تدريب ١٦ الف شخص ونفى أن في نية الجماعة التوجه بهذا الطلب .

وكان الهضيبي يردد « اذا كانت الحكومة تريد تسليح الشعب فعليها أولا أن تسلحه بالاخلاق فتغلق تلك المواخير الساهرة طوال الليل ودور اللعب التي تفسد الاخلاق » .

وخطب الهضيبي في شباب الاخوان قائلا لهم « اذهبو فاعكفوا على تلاوة القرآن الكريم » ، ورد عليه خالد محمد خالد متهما اياه بالابتعاد عن الدين الذى يفضل الكفاح على العبارة حسبما أثر عن رسول الله وقال « وجد الوطن في التاريخ قبلما يوجد الدين وكل ولاء للدين لا يسبقه ولاء للوطن فهو ولاء ذاتي ليس من روح لله ، والوطن عماد الدين وسناده » ثم خاطب الاخوان قائلا « اطلقوا سراح الطاقة المحتكره » ... وكتبت روز اليوسف تقول انه يجب على الاخوان التحرك في المعركة والا فقدتم مصر .

لم يسرع الضباط المنضمون للاخوان المسلمين لمعركة القناة ، كما أسرعوا للتطوع في حرب فلسطين .. وبدت منطقة القناة خالية من أية حركة ايجابية لهم .

وبذلك تخلى الاخوان المسلمون عن أداء دور بارز في الكفاح المسلح ، وآثروا مهادنة الملك ، وترقب نتائج تورط الوفد في مواجهة الاستعمار واحتفظوا بأسلحتهم في المخازن ليوم قريب .

ونتيجة لهذا الموقف المتهاون انصرف الضباط الذين انضموا للجماعة عدا قلة محدودة جدا وكانت هذه الفترة هي نقطة النهاية في ارتباط الضباط بالاخوان المسلمين .

اما التنظيمات الشيوعية فقد اسهمت ايضا في معركة الكفاح المسلح في القناة ، ولكن بقدرات بدأت محدودة ثم نمت مع تطور القتال .

وصدرت في هذه الفترة طبعة ثانية من كتابي (حرب العصابات) ، ودرست قيادة حدتو الموقف فوجدت أنه لايجوز أن تضيق حلقة الكفاح لتصبح محصورة في الفدائيين وحدهم ، وانما يجب ان يتسع نطاق المعركة ليشمل الفلاحين في القرى المنتشرة بالمنطقة ، وكثير منهم مسلح بطبيعته ، كما انه تم البحث في انشاء تنظيمات سياسية لتوعية الجماهير وقيادتها في القرى ، وجرت اتصالات كثيرة لخلق قيادة موحدة لكافة الكتائب والتنظيمات المقاتلة حتى يزداد تأثيرها وتتوحد أهدافها ، وتكون نواة لجبهة تخلق في جو المعركة .

وكانت معركة (القرين) تجسيدا لهذه الاهداف التي رسمتها

(حدتو) فلم تكن معركة فدائيين فقط ، وانما كانت معركة فلاحين اساسا ، فقد خرجت القرية كلها ، وتسلق الفلاحون النخيل ، وصوبوا مدافعهم ضد دبابات الانجليز التى تراجعت ، وعجزت عن احتلال القرين .

وكانت مشكلة التنظيمات الشيوعية هى نقص السلاح عكس الاخوان المسلمين الذين توافر لهم السلاح ولم تتوافر ارادة القتال ...

كنا نحصل لهم على السلاح من داخل الجيش ... كان يحضره لنا جمال عبد الناصر من مجدى حسنين فى سلاح خدمة الجيش بثكنات العباسية ، وكنت أحمله مع الصاغ عثمان فوزى سفير مصر فى هولندا بعد الثورة الى المقاتلين فى منطقة القناة .
وكان جمال عبد الناصر يعرف حقيقة الدور الذى نقوم به ويوافق عليه ، بعد ان كانت صلته قد توطدت بمندوبى قسم الجيش فى (حدتو) للعمل فى تنظيم الضباط الاحرار وهما القاضى احمد فؤاد واليوزباشى خالد محيى الدين .

وقد استشهد فى القتال عباس الاعسر الطالب بكلية تجارة الاسكندرية، وعضو لجنة انصار السلام بالمدينة ... وتحولت الجنازة الى مظاهرة شعبية كبيرة ، نظمنا اشتراك ضباط الجيش فيها رغم اتصال بعض ضباط القسم السياسى بنا ومحاولتهم أن يثنونا عن ذلك ... وسار ضباط الجيش فى صفوف منتظمة ومن خلفهم الجماهير تهتف ، وامامهم طالب يحمل تمثالا كبيرا لحمامة السلام البيضاء ... وكان عدد ملحوظ من الضباط وصف الضباط قد وقعوا بيان ميثاق ستوكهولم .
كان عدد الانصار يتزايد ، ومضمون المعركة يتعمق ... ويلتقى صوت طلقات الرصاص مع رنين الكلمات المطبوعة على صفحات المجلات الوطنية .
ولم تكن التنظيمات والقوى السياسية وحدها فى المعركة ... كان هناك بعض ضباط الجيش ايضا .

كان تنظيم (الضباط الاحرار) قد بدأ يتبلور وتتحدد معالمه ويزداد عدد المنضمين اليه يوما بعد يوم ... وكانت المنشورات هى الوسيلة الاولى لاثارة الضباط وتوجيههم .

كانت المنشورات خالية من الهجوم على الوفد او الحكومة القائمة ... لما كانت تقوم به من اعمال هى اقصى ما فى طاقتها ... وكان كتاب هذه المنشورات من اعضاء قسم الجيش (حدتو) وهم يدركون ان الهجوم على الوزارة الوفدية لاخراجها واسقاطها يلتقى تماما مع رغبة الاستعمار والملك والعناصر الرجعية خارج السلطة وداخلها .

ولكن المنشورات كانت تعلن « ان الجيش هو جيش الامه وليس جيش فرد من الافراد ، والامـــة هى التى تنفق عليه ودافعو الضرائب مـــن ابنـــاء الشعب هم الذين يدفعون مرتبات هؤلاء الجنود ، وهم الذين يســـلحونهم فمهمتهم الأولى ان يكونوا فى خدمة الشعب لا فى خدمة أى انسان آخـــر » ٠٠ وكانت تهاجم الاموال التى تنفق على زفاف الملك « اليكم يا من تجمعـــــون المال من عرق الشعب لتنفقوه فى غير صالح الشـــعب ٠٠٠ اليكم يا مـن تسوقون البلاد الى هاوية سحيقة لتصلوا بالبلاد الى مآربكم الخاصـــة ٠٠٠ اليكم كلمتنا هذه لتكون نذيرا لكم لعلكم تثوبون الى رشـــدكم وترجعون عن غيكم ٠٠٠ وانتم ايها الضباط اليكم هذا العرض الموجز لما يحدث اليـــوم من مهازل ، فكونوا متيقظين دائما لما يدبر لجيشكم وبلادكم ، ولا تتهاونـــوا فى حقوقكم قيد أنملة » ٠٠٠ وكانت تعلن موقفهـــا السياسى كما يأتى : « الشعب والجيش يقفان اليوم بالمرصـــاد لكل حـــركة ترجع بنا الى الوراء ٠٠٠ ان الشعب والجيش سيحطمان اية محاولة لضرب الحركة الوطنيـــة ٠٠٠ لقد أيدنا الحكومة فى خطوتها الوطنية التى اتخذتهـــا بالغاء المعـــاهدة الاستعمارية) (١)

وكان جمال عبد الناصر الرئيس المنتخب لتنظيم الضباط الاحـــرار حريصا على اشتعال حركة الكفاح المسلح فى القنال ٠٠٠ يســـهل امـــداد التنظيمات المختلفة بالسلاح والذخيرة اذا طلبت وكما كان يعطينى الســـلاح لمتطوعى (حدتو) كان يعطى السلاح والذخيرة لعبد القادر عودة وحســـن عشماوى ، كما كلف كمال رفعت احد الضباط الاحرار المرتبطين فى البـــداية بالتنظيمات اليسارية والوزير وعضو مجلس الرئاسة بعد الثورة ، وحســـن التهامى ضابط المخابرات وعضو الضباط الاحرار ثم الوزير بعد الثورة بالاشراف على معسكر تدريب الفدائيين فى صحراء الفيوم ، ليرسلوا بعد ذلك الى كتائب وجيـــه اباظة عضـــو الضباط الاحرار ، والمتصل بفؤاد سراج الدين وزير الداخلية ٠

واشترك بعض الضباط الاحرار اشتراكا فعليا فى معركة القنـــال ٠ ويروى لنا انور السادات الذى اعادته الوزارة الوفدية الى صـــفوف الجيش بعد فصله واعتقاله عقب ضبطه متصلا بالجواسيس الالمان فى القاهرة يروى قصة (التيتل) وهو اللغم البحرى الكبير الذى تقرر اغلاق القناة به واشترك فى العملية تخطيطا وتنفيذا جمال عبد الناصر وأنور السادات وصلاح هدايت

(١) حرب التحرير الوطنية ـ كمال رفعت ٠

الضابط المتخرج بعد ذلك فى كلية العلوم ووزير البحث العلمى بعد الثورة وحسن التهامى وضابط خفر السواحل عبد الستار عرفة ... ولكن العملية لم تنجح لاخطاء غير مقصودة فى البداية ثم اخطاء فنية فى النهاية .

لم يكن (الضباط الاحرار) يشكلون وحدات مقاتلة ، ولكنهم كانوا يتصلون بالفدائيين يدربونهم ويعدون معهم الخطط ، ويشتركون احيانا فى بعض العمليات .

ولكن وحدات الجيش العادية فى منطقة القناة ظلت بعيدة تماما عن احداث المعركة ، تخضع لتعليمات قادتها التقليديين الذين يتلقون أوامرهم من محمد حيدر رجل السراى وقائد عام القوات المسلحة .

وكان غريبا ان تسهم قوات البوليس بالعبء الاكبر فى معركة الكفاح المسلح بالقناة ، الى جانب الفدائيين والاهالى الذين بدأوا ينضمون الى حرب العصابات .. بينما قوات الجيش تمارس حياتها الطبيعية دون اعتداء على قوات الاحتلال ، ودون تحرش من قوات الاحتلال .

ولولا نشاط بعض (الضباط الأحرار) وروحهم النضالية لعد الامر باعثا على التناقض الشديد . واظهر الجيش فى مظهر القوة المستكينة الخاضعة لتعليمات السراى المتعاونة مع الاستعمار .

ارسل ضباط العريش ورفح الى رئيس الوزراء ووزير الحربية ورئيس اركان حرب برقية قالوا فيها « ان مصر العزيزة اولى بدمائنا من فلسطين ، واذا لم تصدر الينا الاوامر بالتحرك الى القناة فسنتصرف على مسئوليتنا » وقد حضر مفتش عام الجيش بعد البرقية للتحقيق ولكنه لم يصدر أى اتهامات ولم تحدث مساءلة .

وقد أهاجت هذه الحالة مشاعر الضباط ، وجذبتهم الى احداث البلد السياسية ، وسهلت فرصة التجنيد لتنظيم (الضباط الاحرار) ، وشاءت الظروف ان يدخلوا تجربة عملية لاختبار قوتهم .

وكانت هذه التجربة هى انتخابات نادى الضباط ، وهى فى العادة كانت تمر هادئة ودون اهتمام كبير من جانب الضباط .. ولكنها اقبلت هذه المرة فى ظروف مشحونة بالقلق والتوتر .

(الضباط الاحرار) يعيشون أزمة الوطن دون ان تنطلق طاقتهم فى حرية مثل بقية المواطنين ، يلمسون فساد السراى وتعاونها مع الاستعمار ولا يجدون وسيلة للتعبير الا فى المنشورات .

وقد تحدد موعد الانتخابات بعد اسبوع واحد من هدم البريطانيين

لقرية كفر أحمد عبده ، وهياج وثورة الرأى العام المصرى .

وقرر اللواء محمد نجيب ان يدخل الانتخابات رئيسا للنادى ، وكانت اللجنة التأسيسية للضباط الاحرار قد اختارته لما اتصف به من شجاعة وأمانة وبساطة خلقت له بين الضباط شعبية ملحوظة .

وتعتبر انتخابات نادى الضباط هى بداية المواجهة العلنية الصريحة بين الملك وبين (الضباط الاحرار) .

وعندما رشح محمد نجيب نفسه رئيسا للنادى لم يكن ذلك مما يريح الملك ، فقد سبق ان نقله منذ شهور من سلاح الحدود الى سلاح المشاة ، ردا على رغبته فى نقل الاميرالاى حسين سرى عامر وكيل الحدود المقرب من السراى والذى تولى قيادة السلاح بعده ، لما احاط به من شبهات سلوكية .

أراد الملك ان يفرض حسين سرى عامر على مجلس ادارة النادى واصدر أمره بتأجيل اجتماع الجمعية المحدد له يوم ١٨ ديسمبر ١٩٥١ ، ولكن الضباط اجتمعوا وقرروا ان تجرى الانتخابات يوم ٣ يناير ١٩٥٢ .. وفى اليوم المحدد رفضوا اعتبار سلاح الحدود من أسلحة الجيش التى يمثل مندوبوها فى مجلس ادارة النادى باعتباره سلاحا يضم ضباطا منتدبين من مختلف الاسلحة .

وكان فى هذا الاجراء صفعة شديدة لارادة الملك .. وتمت الانتخابات فعلا وحصل محمد نجيب على أغلبية ساحقة (عدة مئات من الاصوات) بينما حصل المرشحون الآخرون لمنصب الرئاسة وهم اللواء حافظ بكرى مدير المدفعية ، واللواء ابراهيم الأرناءوطى مدير المهمات واللواء سيد محمد مدير الصيانة على ٥٨ صوتا فقط .

لم ينجح محمد نجيب وحده .. ولكن نجح معه ايضا مرشحو تنظيم الضباط الاحرار الذين شكلوا أغلبية المجلس وكان منهم زكريا محيى الدين وحسن ابراهيم وابراهيم عاطف ورشاد مهنا الذى عين سكرتيرا لمجلس ادارة النادى .

وكان هذا دليلا على تأثير ونفوذ تنظيم (الضباط الاحرار) بين ضباط الجيش ، كما كان دليلا ايضا على شعبية محمد نجيب .

ولم تكد تمضى عدة ايام على الانتخابات حتى قام جمال عبد الناصر ومعه حسن ابراهيم وكمال رفعت وحسن التهامى بمحاولة اغتيال حسين سرى عامر امام منزله يوم ٨ يناير ١٩٥٢ .

وهكذا اطلت فكرة الاغتيالات برأسها من جديد .. ولكن سرعان ماتبين

لجمال عبد الناصر بعد تجربته الاولى ان الاغتيالات لن تحقق الهدف لانها حتى لو نجحت فان فساد النظام سوف يبقى ، كما عبر عن ذلك فى كتابه (فلسفة الثورة) .. وهكذا لم يكد يطل الارهاب برأسه من جديد حتى عاد واختفى .

وصرح رئيس شعبة الاخوان بالسويس بأنه « ليس للاخوان أى نشاط فى حركه المقاومة » ، واثار هذا التصريح جدلا بين بعض قادة الاخوان مثل الشيخ محمد الغزالى الذى عارض هذا التصريح ، وسيد قطب الذى قال ان مسئولية التعبير عن رأى الاخوان ملقاة على عاتق المرشد العام وليس على سواه .. وعقب حسن الهضيبى على هذا الجدل منتقدا كثرة الحديث عن موقف الاخوان ومتسائلا « كأن شباب مصر كله قد نفر الى محاربة الانجليز فى القنال ولم يتخلف الا الاخوان المسلمون » .

وكتب كمال رفعت فى كتابه (حرب التحرير الوطنية) ان أحد الفدائيين عندما ذهب الى الشيخ فرغلي مسئول الاخوان فى الاسماعيلية يسأله عن موقف الاخوان من احتلال الانجليز للمدينة فقال « نحن لسنا على استعداد لتحمل تهور النحاس ولا يمكن ان نضحى بأولادنا من اجل الوفد .. الوفد عملها وعليه ان يتحمل نتائجها .. وما حدث فى الايام الماضيه كلام فارغ وقد راحت الناس ولا أحد يدرى بها .. كما أن الانجليز لا يمكن ان يخرجوا بالاتفاق مع الوفد وحده ، فهو حاليا لايخيف الانجليز لانهم يعلمون ان هناك قوة ثانية فى البلد هى الاخوان ، فاذا لم يقتنع الوفد بقوتنا فلن تفلح أى محاولة له ، وعلينا ان نترك الوفد يغرق وحده وينتهى » .

ويقول كمال رفعت انه كان لدى الاخوان اسلحة كثيرة مخبأة لم تستخدم فى القتال ضد الانجليز .

ومع ذلك لم يغب الاخوان المسلمون عن معركة القنال غيابا تاما ، فان بعض أعضاء الجماعة من الشباب لم يطق الدخول فى جدل حزبى والمعركة مع الاستعمار تدور فى القنال فاشترك البعض منهم ، وتشكلت منهم عدة مجموعات ، واستشهد منهم بعض طلبة جامعة القاهرة (فؤاد سابقا) عمر شاهين واحمد المنسى وغيرهما .

ولكن هذه الحركات المحدودة لم تكن تعبر تماما عن امكانيات وقدرات الاخوان المسلمين التى اندفعت الى معركة فلسطين بحماسة أشد .

تطور الكفاح الشعبى المسلح تطورا ملحوظا فى منطقة القناة ، وبدأت كتائب التحرير الشعبية تعالج نقط الضعف فيها ، وزاد اقبال (الضباط الاحرار) على المشاركة الصادقة فيها ، وتصاعدت العمليات حتى أصبحت

خسائر القوات المحتلة مصدر قلق شديد للقيادة البريطانية ٠٠ نشرت جريدة التيمز يوم ٢٦ ديسمبر ١٩٥١ تقول « ان أعصاب الجنود الانجليز قد أصبحت شديدة التوتر ، وانهم (أى الجنود) يتساءلون عن جدوى الاحتفاظ بقاعدة عسكرية ، فقدت كل قيمة عسكرية لها نتيجة للشعور الوطني المعادى » ٠٠ كما علقت نفس الجريدة على تصريح للشيخ ابراهيم حمروش شيخ الازهر يحل فيه دماء الجنود البريطانيين ، وكتبت فى صفحتها الاولى تحذر من أبعاد هذا الجهاد الدينى ٠٠ وعندما نسف الفدائيون قطارا كاملا محملا بالجنود والاسلحة والذخيرة يوم ١٢ يناير كتبت النيوز كرونيكل تقول « على الضباط الانجليز على هذه المعركة بأنها اعنف من أية معركه خاضوها ايام الانتداب البريطانى فى فلسطين » ٠٠ وكتبت نيوستيتسمان « يبدو واضحا أن حرب العصابات قد اصبحت مسألة مقررة عند الفدائيين فى مصر ٠٠ أن مستقبل المصالح البريطانية قد اصبح الآن مظلما .. فاما جلاء مخجل عن مصر . واما اشتباك عسكرى وفترة طويلة من المعارك فى ظل الاحكام العسكرية » ٠

ووصل الى القاهرة نجيب الراوى موفدا من نورى السعيد رئيس وزراء العراق حيث قابل فؤاد سراج الدين فى مكتبه وقال له ان الانجليز قد افلسوا تماما ، وهم يطلبون حلا يحفظ ماء الوجه .. واستطرد قائلا بأنهم مستعدون للموافقة على كل شىء على شرط ايقاف أعمال الكفاح المسلح فى القناة .. وقال له فؤاد سراج الدين ان الموقف قد وصل الى الحد الذى لا يجرؤ فيه مصرى على اعلان ذلك ، وأنه على الانجليز أن يقرروا الجلاء ، وعلينا تأمين ظهرهم أثناء الرحيل .

وفى هذه الفترة كانت خطة تخلص الملك من الحكومة الوفدية تتحرك فى نشاط ٠٠ قال لى احد كبار ضباط البوليس السياسى فى ذلك الوقت ، ان تعليمات قد وصلت لهم خلال هذه الفترة بأنه قد تقرر التخلص من الحكومة الوفدية ، وأن عليهم ان يهيئوا انفسهم لذلك ٠٠ ويقول أيضا أن قوات بوليس القصور كانت عندها ملفات هى صورة طبق الاصل من ملفات البوليس السياسى الذى كان يرسل لهم كل الاخبار وكافة التقارير ..

وعند محاكمة كريم ثابت أمام محكمة الغدر ، واستدعاء حافظ عفيفى كشاهد اثبات قال « ان الملك ابلغه انه يريد التخلص من حكومة الوفد فقلت له ان المعركة دائرة مع الانجليز ولا يمكن اخراجها الآن ، وانه لابد من حدوث

شيء هام لاخراجها .. ولم يملك المستشار نفسه عن التعليق قائلا « واظن يا باشا وجدتم في حريق القاهرة الحاجة المهمة » .

وكانت الحكومة الوفدية تواجه انفصاما في سلوكها .. تمد قوات البوليس وكتائب التحرير بالذخيرة والسلاح وتطلب منهم مقاومة الانجليز ، بينما هي تضطر الى مقاومة المظاهرات في القاهرة والاسكندرية بالرصاص أحيانا .

وكانت المظاهرات عقب الغاء المعاهدة ظاهرة شملت معظم المدن المصرية ، وافرغت ما في صدور الجماهير من رغبة في القتال والمطالبة بالسلاح .. وكانت القوات البريطانية قد قتلت ٧ متظاهرين وجرحت ٤٠ في الاسماعيلية وقتلت ٥ واصيب الكثيرون في بور سعيد ثم وضعت منطقة القنال تحت حكم عسكري مباشر تجاهل السلطه المصرية .. وفي ١٧ ، ١٨ نوفمبر اطلق الانجليز النار على ثكنات البوليس في الاسماعيلية فرد هؤلاء وسقط القتلى والجرحى من الجانبين ، وشيعت جنازة الشهداء المصريين في احتفال خرجت له المدينة كلها ، وفي اليوم التالى طلب الانجليز الى محافظ القنال سحب قوات البوليس المصرى من الحى الافرنجي بالاسماعيلية وسحب جنود بلوكات النظام وعدم ظهور الضباط المصريين بهذا الحى بأسلحتهم فقبل الجانب المصرى هذه المطالب ، وفي ٣ ديسمبر اطلق الانجليز النار على بعض قوات البوليس في السويس واستشهد ٢٨ مصريا منهم ٧ من رجال البوليس وقتل من الانجليز ٢٢ ، وتجدد الاشتباك في اليوم التالى وسقط ١٥ شهيدا .

وفي ٨ ديسمبر طلب الانجليز اخلاء حي (كفر أحمد عبده) بدعوى تحصن الفدائيين به واجتمع مجلس الوزراء وقرر رفض الطلب ، فحشد الانجليز آلاف الجنود ودبابات ومصفحات لم يكن ممكنا لقوة بوليس لايزيد عددها عن ٤٠٠ ان تقاوم فانسحبت وهدم الانجليز كفر أحمد عبده .. وردت الحكومة على ذلك باستدعاء عبد الفتاح عمرو السفير المصرى بلندن فعينه الملك مستشارا له للسياسة الخارجية ، وهو المعروف بميوله الانجليزية ، واستولت على نادى الجزيرة الذى انشأه البريطانيون فور احتلالهم مصر عام ١٨٨٢ وقصروا عضويته على العائلات البريطانية ولا يدخله المصريون الا بعد المرور على مجهر بريطاني دقيق ، واباحت للشعب حمل السلاح .

كانت هذه الاحداث المتكررة تهيج مشاعر الشعب في مصر فتنطلق المظاهرات ويحدث من بعض أفرادها اعتداء على الممتلكات .. وادرك بعض

الثوريين ان ذلك يمكن ان يكون ثغرة يتسرب منها المستعمرون ، فكتب سلامة موسى فى صوت الامة (٢٥ أكتوبر ١٩٥١) يذكر بأن ما حدث من فساد للنظام امر يخيف الاجانب وان بعض الشعارات كانت سيئة مما يعطى للاعداء فرصة الاندساس فيها لافسادها .. وخاطب النحاس باشا الشعب طالبا منه الهدوء .

واصدر رؤساء تحرير الصحف بيانا يطالب بالعدول عن المظاهرات حتى لايستغلها الانجليز ، وقد وقع البيان معظم رؤساء التحرير بما فيهم رؤساء تحرير (الكاتب) و (الاشتراكية) ورفض ابو الخسير نجيب رئيس تحرير مجلة (الجمهور المصرى) التوقيع لان مجلته كانت من مجلات الاثارة غير الواعية !

ولكن استشهاد المكافحين فى القنال جعل وقف المظاهرات امرا صعبا مما اضطر الحكومة عقب اعلان ٢٣ اكتوبر يوما للحداد الى اصدار بيان بأن عناصر غير بريئة اندست فى المظاهرات ، وقررت منع المظاهرات منعا باتا مع التهديد باستخدام العنف .

ومع ذلك لم تتوقف المظاهرات تماما .. ولم تستخدم الحكومة العنف تماما حتى يوم ١٤ نوفمبر حيث صرحت الحكومة بخروج اكبر مظاهرة شهدتها مصر تحت شعار (الصمت . الحداد . النظام) ، وسار فى طليعتها مصطفى النحاس وبجواره على ماهر ورجال الحكومة ، وشيخ الازهر والبطريرك والحاخام ورجال الدين والقضاء والجامعه والمهنيون وبعض العسكريين كما اشتركت وفود من الدول العربية والسودان .. وكانت كتائب التحرير تحرس المظاهرة فلم يحدث حادث واحد ، فى الوقت الذى قدر فيه عدد المتظاهرين بمليون متظاهر عدا المتفرجين على الارصفة ، حتى انها وقد بدأت من ميدان الاسماعيلية (التحرير) لم يعرف لها أول من آخر ، وعم الصمت المظاهرة الكبيرة ، وتساقطت على المتظاهرين المنشورات الثورية وارتفعت لافتات قدرت بعشرة آلاف لافتة كتب عليها (يسقط الدفاع المشترك) (الوساطة الامريكية خدعة) (يسقط الاستعمار) (الموت للخونة) .. الى غير ذلك من الشعارات الثوريه .

ولم تكن هذه المظاهرة التاريخية هى خاتمة المظاهرات .. فقد كانت حوادث القنال تجد انعكاسا وردود فعل سريعة فى القاهرة لا تجد لها وسيلة للتعبير الا التظاهر رغم حظر ذلك ، حيث كانت المظاهرات تخرج بصفة تلقائية شعبية دون قيادة منظمة قادرة .

وزادت حدة المظاهرات فى اواخر ديسمبر واحرق المتظاهرون بعض عربات الترام ، ورجموا البوليس بالحجارة مما أدى الى تعطيل الدراسة فى الجامعات ، وتجمع الطلبه رغم ذلك فى مظاهرات كانت تزداد عنفا وشدة طوال شهر يناير ..

وبدت ظاهرة جديدة ايضا هى هجوم بعض الشبان على الملاهى والحانات كما حدث من تحطيم ملهيين بالقاهرة يوم ١٥ يناير ، وانفجار دارين للسينما يوم ١٩ يناير .. وهو اتجاه يتنافر مع المظاهرات الشعبية ، ويشير دون دليل الى فكر الاخوان المسلمين الذين كانوا يرددون دائما الحديث عن الملاهى والحانات ، ولا يخوضون مباشرة فى قضية الكفاح المسلح .. مما يكون قد دفع بعض العناصر لهذا اللون من التدمير .

ومن الاستفزازات البريطانية التى كانت تفتعل فى القناة ردا على نشاط الفدائيين .. ومن ردود الفعل المنبثقة فى شكل مظاهرات فى القاهرة والاقاليم .. رسم الاستعمار البريطانى والملك وقوات البوليس السياسى خطتهم المشتركة للاطاحة بالحكومة الوفدية :

وصلت الاستفزازات البريطانية الذروة ليله الجمعة ٢٥ يناير عندما حاصر آلاف الجنود البريطانيين ومعهم المصفحات والدبابات مبنى محافظة الاسماعيلية وارسل الجنرال اكسهام القائد البريطانى بالمنطقة إنذارا لقوات البوليس المصرى بمحافظة الاسماعيلية بتسليم اسلحتها والخروج من المحافظة والثكنات والرحيل عن منطقة القناة كلها .

وجد القائد المصرى نفسه أمام احتمالين كلاهما صعب ، تسليم السلاح أو المقاومة مع فارق العدد والعدة واراد ان يستطلع رأى فؤاد سراج الدين وزير الداخلية فأرسل ضابطا صغيرا قفز من فوق السور ليتصل به بعد ان كان الانجليز قد قطعوا اسلاك التليفون عن المحافظة .

تمت المكالمة فى الثانية بعد منتصف الليل وكان فؤاد سراج الدين نائما وعندما استيقظ وجد نفسه مضطرا لاعطاء قرار : فسأل الضابط بالايجاب عما اذا كانوا مستعدين للمقاومة حتى آخر طلقة ولما اجاب الضابط بالايجاب أعطى فؤاد سراج الدين قرارة بالمقاومة ، ثم وضع السماعة وهو يبكى .

وكان عدد جنود بلوكات النظام فى الاسماعيلية الف جندى مع كل منهم الف طلقة .. وبدأت المعركة باطلاق قذائف المدفعية والدبابات على مبنى المحافظة ، وقاوم البوليس المصرى مقاومة باسلة واطلق مليون طلقة رصاص. وانتهت المعركة بمقتل ٧٠ عسكريا مصريا ، ٤٠ عسكريا بريطانيا .
ودخل الجنرال اكسهام مبنى المحافظة وصافح قائد القوة المصرية

قائلا له « اهنئك واهنىء جنودك على الروح التي قاتلوا بها ، ولذا فلن اعاملكم كأسرى حرب ، ولن تخرجوا من هنا رافعي الايدي » .

ورحل جنود بلوكات نظام الاسماعيلية في عربات السكه الحديد الى القاهرة ، وعندما اذيعت الاخبار كانت لها ضجة عالمية .. وظهرت صحف انجلترا يوم ٢٦ يناير وقد كتبت (انها تخجل لان الجيش البريطاني يحارب البوليس المصري) .

وتحركت في القاهرة منذ الصباح الباكر دوامة من المظاهرات لا تهدأ ولاتتوقف .

اتصلت السفارة البريطانية في الثانية بعد منتصف ليلة ٢٥ ـ ٢٦ يناير بقوات البوليس تطلب حماية طائرة بريطانية هبطت في مطار القاهرة .. وموظفو المطار ممتنعون عن تقديم أي خدمات لها ولم ينزلوا الركاب وهددوا بحرق الطائرة بمن فيها .. وبعد اتصالات طويلة لم يعثروا على اللواء امام ابراهيم رئيس مكتب الاجانب ، فتحرك الى المطار بعض ضباط القلم السياسي . وبقوا هناك حتى السادسة والنصف صباحا .

وفي طريق العودة بلغهم ان عساكر بلوكات النظام قد خرجوا في مظاهرة ، فغيروا خط سيرهم لتفاديها ، وذهبوا الى منازلهم للنوم حتى الحادية عشرة صباحا .

وكان جنود بلوكات النظام في ثكنات العباسية قد خرجوا بأسلحتهم في السادسة صباحا في مظاهرة صاخبة احتجاجا على ما اصاب زملاءهم في الاسماعيلية . واتجهوا الى جامعة فؤاد بالجيزة حيث اختلطوا بالطلبة المتظاهرين ، وتحركت الحشود المشتركة تنادي بحمل السلاح والسفر لمحاربة الانجليز ، وتهتف أمام قصر عابدين بسقوط الملك .

وتجمع المتظاهرون في مبنى رئاسة الوزراء حيث خرج عبد الفتاح حسن وزير الشئون الاجتماعية يخطب فيهم ، وهم يهتفون بالمقاطعة الكاملة للانجليز وارسال القوات المسلحة للقناة ، وابرام معاهدة للصداقة مع الاتحاد السوفييتي ، وتجاوزت المظاهرة بمطالبها قدرة عبد الفتاح حسن على احتوائها وقد اوقف وزير الداخلية حكمدار القاهرة لانه لم يمنع المظاهرات .

وكانت مظاهرة اخرى تسير أمام كازينو أوبرا حوالي الحادية عشرة والنصف صباحا حيث استفزها بعض ما شاهدته في شرفته فأحرقت الكازينو .

وهنا بلغ الامر فؤاد سراج الدين الذي اصدر اوامره بفض المظاهرات

بشدة ، وكان لدى الحكمدار اللواء مراد الخولى اوامر كتابيه بأطلاق الرصاص ولكنه لم ينفذها . . وابلغ امام إبراهيم مرعوسيه بأن الوزير قد اصدر اوامره بعدم التعرض للمظاهرات رغم صحة ذلك ومعروف ان امام ابراهيم كان أحد كبار المسئولين فى القسم السياسى الذى لا يدين بالولاء الاول لوزير الداخلية وانما يدين بالولاء اساسا لسلطات السراى التى كانت لها دائما صـــلات مشبوهة علنية وسرية بالسفارة البريطانية .

وانتقلت مظاهرات هذا اليوم بعد ذلك الى مرحلة جديدة مشبوهة هى حرق سينما ريفولى ثم سينما مترو ثم نادى (الترف كلوب) البريطانى الذى اشتعل بمن فيه ، وتلاحقت الحرائق فى المتاجر الكبيرة والفنادق حتى شلمت ٣٠٠ متجر وفندق شبرد ومترو بولوتيان ، وعشرات من الحانات والبارات ومعارض السيارات وبنك باركليز البريطانى وغيرها مما حول وسط القاهرة الى شعلة من النيران .

ومع بداية هذه المرحلة المثيرة كان ٦٠٠ من ضباط الجيش والبوليس يتوافدون بالمئات على سراى عابدين لحضور مأدبة غداء ابتهــاجا بمــولد (حضرة صاحب السمو الملكى الامير احمد فؤاد ولى العهد) والذى كان قــد ولد يوم ١٦ يناير واصدر مجلس الوزراء قرارا بتعطيل المصالح (ابتهاجا) بمولده يوم ١٧ يناير ، وقرر منح كل مواليد هذا اليـــوم عشرة جنيهات (لتكتمل البهجة) ، واجتمع البرلمان فى جلسة خاصة للاحتفال بالمناسبة (السعيدة) ، وذهبوا جميعا الى قصر عابدين لقيد اسمائهم فى ســـجل التشريفــات .

وفى مناسبة مرور اسبوع على ميلاد ولى العهد استعرض الملك قــوات الجيش من شرفه عابدين وقال « فى هذا اليوم اهدى الى الجيش اعز شىء عندى وهو ابنى » .. واصدر حركة ترقيات كبـــيرة فى الجيش ، وألقت طائرات الهليوكبتر اكياس الحلوى على سكان القاهرة الذين كانت افكارهم مع المكافحين فى القناة .

القاهرة تحترق وضباط الجيش والبوليس على مأدبة الملك يتناولون الغداء الشهى ويحتفلون بميلاد ولى العهد ، ووزير الداخلية يحاول الاتصــال بحيدر باشا تليفونيا ليصدر اوامره بنزول قوات الجيش ، ولكن حيدر باشا لايغادر مقعده على المائدة ويرسل له وحيد شوقى مدير خفر السواحل يحدثة عما دفع فؤاد سراج الدين الى مغادرة مكتبه بوزارة الداخلية والذهاب بنفسه الى قصر عابدين ، بعد ادراكه ان الحرائق خطة مدبرة ، ومع ذلك ظل ينتظر حتى الساعة الثالثة الا ربع مساء حتى حضر له حيدر وحافظ عفيفى ثم ذهبا

معا لمقابله الملك وعادا فأبلغاه موافقة (جلالته) على نزول ضباط الجيش . .
وقد نصحهم عثمان المهدى قبل نزولهم بتفادى الشوارع المزدحمة بالمظاهرات .

حتى الخامسة مساء لم تتحرك قوات الجيش ، وعندما وصلت بعد ذلك الى حديقة الازبكية اخذت موقفا سلبيا من الذين يحرقون القاهرة بدعوى انه لاتوجد عندهم اوامر كتابية بأطلاق الرصاص .

ومع الغروب كان كل شيء قد انتهى .. احترقت القاهرة وباتت فيها عصابات اللصوص والمخربين تسرق وتنهب .

واجتمع مجلس الوزراء ليلة ٢٦ يناير بعد ان كانت قد توقفت كل أعمال العنف ، وانطفأت معظم الحرائق ولم يقدم النحاس استقالته للملك كما جاء في بعض المصادر .

يقول فؤاد سراج الدين انه كان هناك احتمال قائم بتكرار اعمال العنف يوم ٢٧ يناير وخاصة بعد ثبوت ان الحرائق لم تكن تتم بطريقه مرتجلة .. وانما كانت تتم بوسائل حديثة كما ظهر في حريق شبرد اذ كانت هناك جماعات تفتح غازات معينة ثم تشعلها .

ويشير كمال رفعت في كتابة (حرب التحرير الوطنية) إلى هذه الحقيقه عندما يقول ان هناك فرقا منظمة من محترفي الحرق والتخريب انقضت على قلب العاصمة فى سيارات الجيب ، تحمل احدث اساليب الحرق والتدمير واشدها فاعلية ، وكانوا يقومون بمهمتهم بأعصاب باردة دون ان يبدو عنهم شعار أو تصدر كلمة أو اشارة .. كان عملهم مدروسا وخريطتهم مرسومة .. الاماكن التي يقصدونها محددة سلفا تتقدم مجموعة لاقتحام الابواب اما بنسفها بقنبلة عند اسفلها أوعمل فجوة بمواقد الاستيلين ،وتسرع الى الداخل مجموعة ثانية تقذف في جوف المبنى بالمواد الناسفة والحارقة وتندفع خارجة بعد ثوان معدودة ، وفى لمح البصر يكون المبنى كله شعلة من النار .

ويستطرد فؤاد سراج الدين فيقول انهم لم يجدوا امامهم من سبيل الا فرض الاحكام العرفية ، لسرعة اعتقال بعض الشبان المعروف عنهم التهور واجراء التفتيش للبحث عن المواد التى استخدمت .

فكرت الحكومة الوفدية فى الآثار التي يمكن ان تترتب على فرض الاحكام العرفية وفكروا ايضا في أمر الاقالة الماثل امامهم .

وكان حافظ عفيفي قد سأل فؤاد سراج الدين فى مكتبه بقصر عابدين وهو ينتظر حيدر عما اذا كانت الحكومة الوفدية قد قررت قطع العلاقات

السياسية مع بريطانيا ، لان السفير البريطاني ابلغه بوجود معلومات تشير الى ذلك ، وان هذا يعتبر بمثابة اعلان حرب بين الدولتين ، يمكن أن تدخل القوات البريطانية بعدها القاهرة .

وعندها قال سراج الدين انهم لو حضروا الى القاهرة لانقض عليهم الشعب .. ولكن حافظ عفيفي قال ان الامر خطير لانهم عندئذ قد يأخذون الملك أسير حرب وبهذه الطريقه يفرضون شروطهم على مصر .

ويقول فؤاد سراج الدين انه ايقن بعد هذه المحادثه ان عمر الحكومة الوفدية قد انتهى ، لانه طالما وصل الحديث الى احتمال أسر الملك فأن الامر لابد ان يؤدى للاطاحة بالحكومة الوفديه .

وقد جاء فى مذكرات ايدن بعد ذلك انهم فكروا فعلا فى دخول القاهرة عندما ازعج الكفاح المسلح قوات الاحتلال ، ولكن القائد البريطانى ابلغه ان قواته لا تستطيع ان تؤدى هذه المهمة .

كانت الاقالة ماثلة امام الوزارة الوفدية وهى تناقش ليلة ٢٦ يناير موضوع فرض الاحكام العرفية ، وكانوا يدركون ايضا ان هذه الاحكام ربما تجعلهم أول من يكتوى بنارها .. ومع ذلك « لم يكن امامنا مفر – صيانة للامة واحتياطا للمستقبل – من فرض الاحكام العرفية » على حد تعبير فؤاد سراج الدين .

التبرير غير مقنع ، ومفاجأة الحريق جعلت الوفد يجنح الى طبيعة غير طبيعته ، لان قبضته على السلطة ضعفت ، واقتناع الناس بقوته قد تأثر من الاحداث ومن الحريق .

عين النحاس باشا حاكما عسكريا فى نفس الليلة ، واوقفت الدراسة فى الجامعة والمعاهد والمدارس الى اجل غير مسمى ، بدأت حملة اعتقالات شملت بعض الثوريين ، واغلق مبنى الحزب الاشتراكى ، وصدر قرار بمنع التجول فى مدينة القاهرة والجيزة من السادسة مساء الى السادسة صباحا وعين عبدالفتاح حسن رقيبا عاما على الصحف . وعين المحافظون والمديرون حكاما عسكريين فى مناطقهم وصدر امر عسكرى بمنع التجمهر واعتبار كل تجمع مؤلف من خمسة اشخاص أو أكثر مهددا للسلم والنظام العام ويعاقب من يشترك فيه بالحبس سنتين أو بالسجن خمس سنوات ان كان حاملا سلاحا .

ولكن هذه الاجراءات العنيفة ، ولبس ثياب الحاكم العسكرى لم تنقذ حكومة الوفد من مصيرها المحتوم فقد أصدر الملك امرا باقالتها بعد أقل من ٢٤ ساعة فى مساء يوم ٢٧ يناير ١٩٥٢ .

وتحديد مرتكبي جريمة حريق القاهـرة ، يأتي من تحـديد الذين استفادوا من هذه الجريمه .

كانت قوات الاحتلال البريطاني تعاني مغاناة شديدة من الكفاح المسلح حتى كاد الامر يصل بهم الى حافة اليأس ، وجاء حريق القاهرة بالاحكـام العرفية التي قضت على الحركة الثورية الصاعدة ، ومنعت نشاط الفدائيين واخمدت الجذوة المشتعله في نفوس الشعب .

ويقول كمال رفعت في كتابه (حرب التحرير الوطني) ان المخابرات البريطانية اعدت معسكرا في (كسفريت) كان معزولا تماما عن العـالم الخارجي ، وكان يضم مجموعة من عتاة المجرمين والمغامرين عملاء المخابرات والتجسس ، ويشير الى انهم كانوا العناصر المدربه التي اعتمـد عليهـا البريطانيون في تدبير الحريق ، كما حدث بعد ذلك في حريق طهران الذي صاحب اسقاط حكومة مصدق عام ١٩٥٣ .

وكانت قبضة الملك على السلطة قد ضعفت ، واهينت كرامته وهتف بسقوطه في المظاهرات ، واتخذت الحكومة الوفدية قرارات واجراءات دستورية لم يفلح في مقاومتها الا بالتآمر والتنسيق مع الاستعمار عن طريق تعيـين حافظ عفيفي رئيسا للديوان ، والذى قالت جريدة التايمز يوم تعيينه « انه أول شعاع ضوء يبدد ظلام الجو الشامل في مصر » .

ولذا فان اقامة مادبة غداء تضـم ٦٠٠ ضابط من قيـادات الجيش والبوليس في اليوم والموعد المحدد لبدء الحريق ، وابقاء الملـك لهم شبـه محتجزين في السراى امام موائد الطعام الى ما بعد الثالثة مساء ، وبعـد أن كانت الحرائق قد التهمت معظم شوارع وسط القاهرة ، وهو أمر لا يمكـن ان يرتفع فوق الشبهات ، وخاصة انه نفذ في اليوم التالي مباشرة لاكبـر الاعمال استفزازا لشعور المصريين وهو معركة الاسماعيلية يوم ٢٥ ينـاير ، مما يدل على وجود تنسيق مشترك محكم .

وكان اختيار اليوم مدروسا في الخطة الملكية الانجليزية المشـتركة بعناية فائقة ، فانه كان مفروضا في هذا اليوم ان تفى الحكومة الوفـدية بوعدها في قطع العلاقات نهائيا مع انجلترا ، وعقد معاهدة صداقه مع الاتحاد السوفييتي .. كما ان الاخبار اليوم نشرت لمراسلها البريطاني (ايار) صباح يوم الحريق برقية بأن لندن تتوقع اشتراك الجيش المصري في معركة القنال وذلك بعد البرقيات التي ارسلها بعض ضباط الجيش يطلبون فيها المساهمة في الكفاح المسلح .. كما ان يوم ٢٦ يناير كان اليوم السابق لعقد أول مؤتمر

لاتحاد عام نقابات العمال المصريين بتصريح من الحكومة الوفدية .

وقد اسهم البوليس السياسى فى تنفيذ المؤامرة بدوره المرسوم عن طريق غياب بعض قيادتها أو اتخاذهم من المظاهرات موقفا سلبيا ، أو ادعائهم بأن الوزير قد أمر بعدم التعرض لها .. وهم الذين سبق أن ناقشوا سرا طريقه التخلص من الحكومة الوفدية حسب رواية اللواء صادق حلاوة .

هكذا تمت فصول الخطة الملكية الانجليزية المشتركة .. واحترقت القاهرة ، وانتكست الحركة الثوريه التحررية للشعب المصرى .. ودخلت الحياة السياسية فى مصر مرحلة جديدة .

• تعد دراسة الأستاذ احمد حمروش عن ثورة ٢٣ يوليو التى تصدر فى عشرة أجزاء - عن دار الموقف العربى - أكبر أعماله حيث تتميز برؤيته كأحد جنود ثورة يوليو وهى حصيلة جلسات مناقشة طويلة مع زملائه الذين شاركوا فى صنع الثورة وتحملوا مسئولية مسيرتها ، ومع السياسيين الذين عايشوا أحداثها الكبرى ·

فى هذا الجزء يتعرض الأستاذ حمروش الى دور العسكريين فى تاريخ مصر الحديث ، ثم يحكى قصة ثورة يوليو منذ أن بدأت فكرة فى ضمير بعض الضباط الوطنيين ، من مختلف الاتجاهات والمدارس الفكرية ، حتى انتهت الى تدبير وتنظيم وحركة ، ثم يمضى خلال مرحلة هامة من مراحل الثورة خاضت فيها صراعات مختلفة انتهت الى عزل محمد نجيب وتولى مجلس قيادة الثورة المسئولية بعد تعيين جمال عبد الناصر رئيسا للوزراء ·

انه كتاب خطير وشيق عن موضوع من أخطر الموضوعات وأهمها ·

« الموقف العربى »



